أمواج العمر

بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف

د. فوزية العشماوي



سيرة ذاتية

أمواج العمر

بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف

أمواج العمر

بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف

د. فوزية العشماوي

المحرر العام: أشرف يوسف

الطبعةالأولى / ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٠٤٨/ ٢٠١٢
I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 167 - 6

أمواج العمر

بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف

سيرة ذاتيـة

د. فوزية العشماوي

إسكندرية - جنيف، ٢٠١٢

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

العشماوي، فوزية
أمواج العمر بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف: سيرة ذاتية/ فوزية العشماوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٦٧ ٦

١- العشماوي، فوزية – المذكرات.

أ– العنوان.

٩٢٠

رقم الإيداع / ٧٠٤٨ / ٢٠١٢

أمواج
في بحر حياتي

تقاذفتني أمواج العمر من بحر إسكندرية
إلى بحيرة جنيف السويسرية،
هذا ملح أجاج
وهذا عذب فرات
امتزج المالح بالعذب
فأصبح ماء معينًا.

د. فوزية العشماوي

أمواج العمر

أمواج العمر تتدافع في بحر الحياه
وترتمي على الشاطئ بلا مبالاه
صرخات النورس تنطلق في الفضاء
فما من مجيب وتضيع في الهواء

أذوب في حمرة الغسق .
أرتطم بصخور الحنين
أكتم في قلبي الأنين
ويتراءى في الأفق
شجن السنين

المحتويات

مقدمة 11
انعكاس الأمواج 17

الجزء الأول: أمواج بحر إسكندرية 19
– أمواج الطفولة 21
– أمواج المراهقة 66
– أمواج الشباب 89
– أمواج الحب 97

الجزء الثاني: أمواج بحيرة جنيف 131
– أمواج الغربة 133
– أمواج النجاح 172
– أمواج الاختلاف 187
– أمواج التعصب 196
– أمواج الحنين 208

الجزء الثالث: أمواج المشاهير 219
– أمواج المشاهير 221
– أمواج المد والجزر 264

ملحق: ألبوم الصور التذكارية 281

مقدمة

الأمواج تتلاطم في البحر، الموجة وراء الموجة، تعلو وتهبط، تخبو وتضيع، تذوب هباء وكأن لم تكن.

وأيام العمر تجري، يومًا وراء يوم، وتنساب في بحر الذكريات تمتزج في بعضها البعض ثم تضيع ملامحها، تخبو وتذوب هباء وكأن لم تكن.

من يستطع أن يعيد موجة واحدة إلى البحر بعد وصولها إلى البر؟

من يستطع أن يعيد يوما واحدا من العمر بعد غروب الشمس؟

أيام العمر كأمواج البحرتعلو بنا وتقذفنا في خضم الحياه نصارعها، نتسلقها، نذوب فيها نكاد نغرق بداخلها، نسقط ثم ننهض، ننتصب في تحد، تلطمنا من جديد، نسقط ثم ننهض، نسير نحو الشاطئ فنصل بأمان تذوب الأمواج أو الأيام والأعوام من حولنا ونخرج من بحر الحياه كما دخلناه وكأن لم يكن.

وحين يقترب الإنسان منا من سن الستين أو ربما من السبعين يشعر أنه على عتبة المنتهى وأنه لا يستطيع أن يعيد أدراجه للوراء وأن لفحة هواء بسيطة يمكن أن تلقي به إلى المجهول.

حينذاك يدرك الإنسان أن حياته تفلت من بين أصابعة كحبات الرمال أو كزبد الأمواج. يتأمل الأفق ويتطلع إلى ما وراءه ويتذكر كم من مرات ومرات تطلع إلى الشمس وهي تغرب وتختفي ولا تترك وراءها إلا الظلام.

من يستطع أن يوقف دورة الزمان؟

الشمس تشرق من جديد بعد دورتها اليومية.

هل يستطيع أي إنسان، مهما كان، أن يشرق بعد أن يأفل نجمه؟

هل يستطيع أحد أن يحيا بعد موته؟

وحين يتأكد الإنسان من أن كل شيء إلى زوال يتشبث بالأمل الباقي وهو الذكرى، فيقول في نفسه: ربما إذا تذكرني الناس لا أذوب بالموت.

ما السبيل إلى دوام الذكرى؟

إنجاب "الذرية الصالحة" أي "اللي خلف ما ماتشي" كما يقول المثل الشعبي.

يظن بعض الناس أن أولادهم وأحفادهم استمرارا لهم والبعض الآخر يرى أن الكتابة وسيلة للبقاء بعد الموت خاصة كتابة الذكريات والسيرة الذاتية ليستفيد منها الأولاد والأحفاد وكذلك كل من يقرأها.

والبعض الآخر يفضل عدم كتابة سيرته الذاتية لأن الله أمر بالستر، ولأن إفشاء الأسرار ليس من المبادئ الإسلامية، خاصة أن الأمر سيستدعي

بالضرورة سرد ذكريات يدخل في مدارها أشخاص أحياء وأموات إلى جانب كشف خبايا النفس البشرية.

كل منا له ذكريات تبقى في الوعي والذاكرة، ولكنها تتأرجح بين الوعي واللاوعي، أحيانا تتداخل في بعضها فتصبح وكأنها لوحة مكتملة وأحيانًا تنقصها بعض مكونات اللوحة، تماما مثل جزئيات لوحات الفسيفساء التي نشاهدها في بعض المتاحف الكبرى، بعضها احتفظ بالبريق الآخّاذ والألوان الزاهية وبعضها مطموس، وبعضها فقد جزئيات صغيرة نتج عنها فراغ في اللوحة.

جالت بخاطري كل هذه الأفكار حين بدأت في تدوين ذكرياتي ومسيرتي في الحياة، وانتابتني الهواجس وعلا صوت بداخلي يقول: إن ذلك يتعارض مع بعض المفاهيم الإسلامية، كما جاءت في بعض آيات القرآن الكريم مثل ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ (سورة الحجرات، آية:12) وكذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة "اذكروا محاسن موتاكم".

وقلت في نفسي: إن السيرة الذاتية نوع من الاعترافات مثلما يفعل إخوتنا المسيحيون في الجلوس أمام القس على كرسي الاعتراف ليتخلصوا من ثقل الذنوب ويطلبوا المغفرة والسماح من خلال الاعتراف والتوبة.

وعلا صوت آخر يقول: ولماذا لا أكتب تجربتي في الحياة خاصة أن حياتي فيها كثير من التجارب التي ربما قد يستفيد منها البعض، وربما أيضا يمكن أن تصلح لتقييم بعض الأحداث التي عاصرتها في فترة زاخرة بالتغييرات في كثير من مناحي الحياة، سواء في المجتمع المصري، حيث

ولدت ونشأت وعشت حتى بلغت الثلاثين من عمري، أو في المجتمع الأوروبي، حيث عشت أكثر من نصف عمري في سويسرا وهي قلب أوروبا كما يقولون.

قررت أن أخوض التجربة بشجاعة وصدق. سأذكر بالطبع كثيرًا من الشخصيات العامة المشهورة، سواء من المصريين أو من الشخصيات الدولية والتي عرفتها والتقيت بها سواء في مصر أو في جنيف، في مراحل حياتي المختلفة، وربما قد يتضايق أصحابها مما سأسرده عنهم.

ليست عندي شجاعة جان جاك روسو، الأديب والفيلسوف الفرنسي الشهير مؤلف "العقد الاجتماعي" والذي كانت أفكاره الثورية وراء قيام الثورة الفرنسية الكبرى عام 1789، والذي أمضى الخمس سنوات الأخيره من حياته في عزلة تامة ليكتب سيرته الذاتية الكاملة والتي نشرت في عام 1782، بعد وفاته تحت عنوان "الاعترافات".

لم يخجل روسو من ذكر أشياء تشينه هو شخصيا مثل نزعته إلى التعري وكشف عورته في الطريق العام أمام النساء والأطفال، وهو مرض نفسي يطلقون عليه "إجزيسيونيسم: exhibitionnisme". كذلك لم يخجل روسو من أن يذكر تفاصيل علاقته غير الشرعية بخادمته التي أنجبت له خمسة أولاد أودعهم جميعا في ملجأ الأيتام فور ولادتهم، و لم يكلف خاطره مرة واحدة بالسؤال عنهم. ولكنه ندم في أواخر حياته على هدا التصرف الشائن بالتخلي عن فلذات كبده، و لم يستطع بعد ذلك العثور عليهم أو معرفة ماذا كان مصيرهم، ولكن بعد فوات الأوان.

ليست عندي ذكريات تشينني مثل روسو، ولكن عندي ذكريات جميلة وأخرى فيها كثيـر من الشجن والألم، فالإنسان بلا ألم ليس بإنسان. وهناك أيضا ذكريات أخرى تخصني وحدي ولا جدوى من نبشها، إذ ربما تؤذي بعض الأحباب الذين أحرص على رضائهم حتى وإن كانوا قد غلطوا في حقي أو قسوْا عليّ أو ظلموني في بعض الأحيان.

تدفقت الذكرياتي في بحر حياتي كالأمواج.

هناك أمواج الطفولة وأمواج المراهقة وأمواج الشباب وأمواج الحب وأمواج الغربة وأمواج النجاح وأمواج التعصب وأمواج الحنين وأمواج المشاهير، أمواج المد والجزر.

تتابعت الأعوام بتلقائية كالأمواج، وحين ازداد تصارع الأمواج وعرفت لأول مرة في حياتي العواصف الشديدة، كدت أغرق وتأخذني الدوامة في بحر لجيٍّ لا أحد يدرك منتهاه.

ولكني عثرت على طوق النجاة فأخذتني أمواج الايمان وأوصلتني إلى بر الأمان.

وازداد إيماني ويقيني بـالآية الكريمة ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

فـوزيـة العشماوي

جنيف، يناير 2012

انعكاس الأمواج

كلما نظرت إليها خيِّل إليَّ أنني أنظر في مرآة، نفس الملامح الرقيقة، البشرة البيضاء المشربة بحمرة خفيفة، الضحكة التي تزيد من بريق عينيها وبروز الغمازتين في وجنتيها، أسلوبها في الكلام، رنَّة صوتها حين تنفعل، خجلها أمام الأغراب، احتجاجها الدائم على كل شيء حولها، جرأتها على أبيها وأمها، عصبيتها وثورتها لأتفه الأسباب، حبها للانفراد بنفسها... هذه الصغيرة ذات الأعوام الثمانية هي حفيدتي، نسخة طبق الأصل من الطفلة التي كنتها قبل أكثر من ستين عاما.

كلما رأيتها تضحك وتلعب على سجيَّتها وتكيل المقالب لشقيقتها الكبرى ثم تسارع بالشكوى منها، أتذكر طفولتي وشقاوتي وجرأتي على إخوتي. كيف يمكن أن تنتقل التصرفات والأخلاقيات عبر الجينات الوراثية

بعد جيلين من الأجيال، كل تصرفاتها وحركاتها وألاعيبها منسوخة من الطفلة التي عاشت بداخلي في الخمسينيات من القرن العشرين.

حتى الأطعمة والمشروبات التي أميل إليها وأفضلها على غيرها هي أيضا تفضلها، نفس المزاج للمذاق المالح بدلا من السكري، الميل لأكل الفاكهة والحلويات وأكل الجبن بعد الوجبات، هل يمكن أن تكون الوراثة حتى في المزاج والأكل، وهل يا ترى ستتحكم الجينات أيضا في مسار حياتها؟ لا أعتقد، فأنا أؤمن إيمانا راسخا بالمكتوب في اللوح المحفوظ، كل منا نصيبه مفروض ومكتوب قبل أن يولد وسيكون نصيبها إن شاء الله مختلفًا عن نصيبي وقدري، تماما مثلما بصمات أصابعها مختلفة عن بصمات أصابعي.

هي ولدت في مدينة جنيف بسويسرا في القرن الواحد والعشرين من أب مصري وأم فرنسية، في زمان غير زماني وفي ظروف اجتماعية واقتصادية تختلف تماما عن ظروفي، وأتمنى أن يكون نصيبها في الحياة أفضل من نصيبي.

هل معنى ذلك أنني غير راضية عن نصيبي في الحياة؟ أو هل كنت أتمنى أن يكون نصيبي من الحياة أفضل مما كان؟

لا والله ليس بالإمكان أفضل مما كان.

ربما تكون هي انعكاسًا لأمواج العمر الذي مضى بي وستعود الأمواج بها إلى الشاطئ لتبدأ دورة جديدة.

الجزء الأول

أمواج بحر إسكندرية

أمواج الطفولة

حين كنت في سنها كنت أعيش في الإسكندرية في حي "بحري" أمام البحر بجوار مسجد سيدي المرسي أبو العباس. رأيت النور لأول مرة في أحد البيوت القديمة الملاصقة للمسجد حتى أنهم دوّنوا في شهادة ميلادي تحت بند مكان الميلاد "بيت الصحن". وأعتقد أنه صحن المسجد الكبير، أكبر مساجد الإسكندرية في ذلك العهد وربما حتى الآن. وحي "أبو العباس" مقابل للبحر. وأهل الحي معظمهم من الصيادين أو العاملين بمهن مختلفة متعلقة بالبحر، لذلك فأهل الحي جميعا مرتبطون بالبحر ارتباطا وثيقا. وهذا سر تعلقي بالبحر منذ الصغر بل أعتقد أن البحر دخل في تركيبة شخصيتي وفي تكويني النفسي، فأنا لا أستطيع أن أبعد عن البحر كثيرًا مثل السمك، وإذا مرت فترة دون أن أرى البحر أشعر بالغربة

والوحشة ولا أبالغ إن قلت إنني أشعر بالاختناق بعيدا عن البحر. خرجت إلى الدنيا صباح يوم مشرق في بداية شهر أكتوبر وفي بداية الأربعينيات من القرن العشرين، من أم مصرية ذات جذور سورية ومن أب مصري إسكندراني أصيل من حي السيالة في رأس التين.

حين سمعت أمي أولى صرخاتي وتأكدت من القابلة أنها وضعت أنثى قالت لها بصوت مبحوح من أثر الصراخ حين المخاض "سيبّي سرتها".

سمع أبي من وراء باب الغرفة أولى صرخاتي، فتح الباب وسمع الحكم بالإعدام الذي أصدرته عليّ أمي قبل أن تراني!

قال الرجل الطيب للقابلة: "إوعي تأذي البنت وإلّا أوديكي في داهية"، واقترب من فراش الوالدة الباكية من سوء ما بُشرت به، وقال لها بصوت اجتهد أن يجعله متسامحا "حمدا لله على سلامتك".

نظرت إليه المرأة المخذولة بخلفتها للبنات وقالت بانكسار "بنت ثالثة يا سي عبده، ليه بس يا ربي"، أجابها بانفعال "كل اللى يجيبه ربنا كويس وله في ذلك حكم، مين عارف يمكن الخير ييجي على قدومها".

كان أبي إسكندرانيًا من أصل منوفي، فقد نزح جده لأبيه من قرية "عشمة" في المنوفية وجاء هذا الجد إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف ودرس به وحصل على عالمية الأزهر وعمل بالقضاء وأصبح قاضيا شرعيا. وكعادة الناس في ذلك العهد كانوا يطلقون على الشخص القادم من بلدة ما اسم هذه البلدة، فالقادم من أسيوط يصبح "الأسيوطي" والقادم من

أسوان يصبح "الأسواني" والقادم من دمياط يصبح "الدمياطي" وهكذا أصبح جدي "العشماوي" لأنه قادم من "عشمة". ولكنه -كما قالوا لنا في طفولتنا- كان مزواجا فكلما لجأت إليه زوجة طالبة الطلاق من زوجها يقوم بتطليقها من زوجها ويتزوجها هو بعد انقضاء عدتها وبعد أن يطلّق زوجة من زوجاته الأربع ليتزوج بها.

وطبقا لهذه الأسطورة عن الشيخ خليل العشماوي، فإنه رزق من كل زوجة من زوجاته الكثيرات أولادا، ذكورا وإناثا، وبما أنه كان يطلق زوجاته بسهولة ليتزوج بزوجة جديدة ويكتفي بأربع زوجات في وقت واحد تطبيقا للشريعة، فكانت كل زوجة يطلقها الشيخ تأخذ أولادها وتعود إلى أهلها وإلى البلدة التي جاءت منها ولا يعرف الشيخ بعد ذلك شيئا عنها ولا عن أولادها، ولا يحدث بالطبع أي اتصال بين أولاد الشيخ خليل العشماوي، فلا يعرف بعضهم بعضا، وهذا سر إنتشار "العشماوية" في مختلف مدن وقرى مصر دون أي اتصال فيما بينهم.

جدي أبو والدي هو الشيخ إبراهيم خليل العشماوي، كان أيضا أزهريا ويعمل كإمام مسجد في مسجد السيالة بالإسكندرية، ولكنه كان وطنيا متحمسا ومعارضا لسياسة الخديو، بل إنه في إحدى خطب الجمعة تجرأ و لم يقم بالدعاء التقليدي للخديو على المنبر، وإنما انتقد الخديو علنا في خطبة الجمعة. وأسرع زميل له وحاقد عليه بالوشاية به لدى المسئولين، فنفاه الخديو في مسجد بعيد عن الإسكندرية، وهو مسجد الدخيلة.

ترك جدي أسرته وأولاده في الإسكندرية و"هاجر" وحده إلى

الدخيلة. وكانت الدخيلة في ذلك الوقت قرية صغيرة معزولة وهي لا تبعد عن الإسكندرية إلا بنحو عشرين كيلو مترا ولكنها لم تكن متصلة بالإسكندرية بأي مواصلات والمواصلة الوحيدة إليها كانت ركوب الحمير.

عاش جدي، الشيخ إبراهيم العشماوي، بقية عمره وحيدا في مسجد الدخيلة ولم ير زوجته أو أولاده بعد ذلك أبدا ويقال إنه تصوف وقضى بقية عمره داخل المسجد يصلى ويتعبد ويدير حلقات الذكر ويعيش على القليل من الزاد الذي يحضره إليه مريدوه من المتصوفين، ولم يخرج من المسجد إلا وقدماه للأمام محمولا إلى مقره الأخير في مقابر الدخيلة.

أما جدتي، زوجة الشيخ إبراهيم العشماوي، فقد عاشت مع أولادها الخمسة في السيالة في الإسكندرية بعيدا عن زوجها المنفي في الدخيلة. وكانت امرأة شجاعة وقوية الشكيمة استطاعت أن تربي وحدها أولادها معتمدة على مجهودها في التطريز والخياطة وأشغال الإبرة وحياكة ملابس السيدات، حتى حصل أكبر أبنائها على الابتدائية القديمة وعمل بالتجارة وساعد والدته في تربية إخوته حتى حصل كل منهم على الابتدائية القديمة.

كانت شهاة الابتدائية في ذلك العهد شهادة محترمة تؤهل الحاصل عليها للعمل في الوظائف الحكومية "الميري" ومرتب أول تعيين ثلاثة جنيهات كاملة، ولكن أبي وأعمامي الثلاثة فضّلوا عدم العمل في الوظيفة الميري والعمل في التجارة.

اشتغل أبي مع أعمامي بتجارة "البورسلين" الفاخر اوالصيني، كما يطلق عليه العامة، فكانوا يستوردون البورسلين من تشيكوسلوفاكيا، ويبيعونه بالجملة والقطاعي. وازدهرت تجارتهم وأصبحوا من كبار تجار الجملة في الصيني الفاخر المستورد.

حين رزق بي أبي كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها، والحالة الاقتصادية في مصر عصيبية جدا من جراء الحرب وتعطيل البواخر وعدم وصول البضاعة من الخارج، ولكن أبي كانت لديه بضاعة قديمة في المخازن فاستفاد من تخزينها وباعها بأضعاف ثمنها بعد انتهاء الحرب فازدادت أرباحه. وكان الرجل الطيب يُرجع سعة الرزق إلى مولدي وأنني أحضرت معي الخير والفرج.

ولكن بعد ثورة يوليو 1952، وسياسة الرئيس جمال عبد الناصر لتشجيع الصناعات في مصر ومنع الاستيراد من الخارج، تحوّل نشاط أبي من التجارة إلى الصناعة. فاشترك مع أحد الفنيين في صناعة الألومنيوم في تأسيس مصنع لصناعة الأواني المنزلية من الألومنيوم في نفس الوكالة التي كان يقوم بتخزين الصيني المستورد فيها في السكة الجديدة بالإسكندرية. وأصبح هذا المصنع الصغير من أوائل المصانع في الإسكندرية المتخصصة في الأواني المنزلية من الألومنيوم ثم بعد ذلك من الإستنلس ستيل والتيفال.

أما أمي فهي إنسانة بسيطة، طيبة وساذجة، وهي تنحدر من أسرة نزحت من الشام إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر، وكان والد أمي يمتلك عدة فنادق في الإسكندرية، وكان رجلا ثريا ومزواجا ويطلق

عليه الناس لقب "الباشا الشامي" ويسمون أمي "زوبة الشامية". ومثل بقية نساء مصر في النصف الأول من القرن العشرين، كانت أمي ربة بيت متفرغة تماما لشئون بيتها ورعاية أولادها وخاضعة خضوعا تاما لزوجها، وضحية للجهل والخزعبلات السائدة بين النسوة عن السحر والعمل وكيد الضرة لضرتها، وتعدد الزوجات وعدم الرضا بخلفة البنات وتفضيل الولد على البنت، إلى جانب كل هذه المعتقدات المغلوطة التي كانت تعيش فيها النسوة في مصر في ذلك العهد.

لذا كان تقبُّل أمي لمولدي مختلفا تماما عن تقبُّل أبي لي، بل إنني أحيانا أتساءل هل تقبّلتني أمي في يوم من الأيام؟

توصيات أبي لها مستمرة بأن تحسن رعايتي والعناية بي. ولكنها أهملت الوصية كما أهملت الوليدة، و لم تعرني اهتماما طوال حياتها بل إنها كانت أحيانا تتفاخر علنا بأنها قالت للقابلة يوم مولدي "سيبّي سرتها" لأنني كنت في رأيها بنتًا ثالثة: "زي قِلّتها".

ثلاث مرات تحمل أمي بعد مولدي وفي كل مرة تفقد الجنين وهي في الأشهر الأخيرة من الحمل، ويشاء العليُّ القدير أن يكون الجنين الذي لم يكتمل و لم يخرج وليدا إلى الدنيا ذكرا، فتشتاط أمي غضبا وتزيد من إهمالها لي ونقمتها عليّ بل إنها كانت تصرخ إحتجاجا وتقول "مش كان الموت ياخد البنت دي ويسيب لي الولد، ليه كدا بس ليه يا ربي". وصل بها الأمر إلى هذا الحد، ألم تتمن موتي منذ لحظة ولادتي؟

لم يكن الأمر سهلا على بنت صغيرة مثلي أن تعيش بهذا الإحساس

المؤلم بأن أمها لا ترغب في وجودها، عانيت كثيرا وأنا طفلة من إحساسي بعدم اهتمام أمي بي مثلما تفعل كل الأمهات، كنت أتألم من عدم رضاها عني بلا سبب يتفهمه عقلي الصغير، وأتعجب من تبرمها باستمرار من "المصايب التلاتة". هكذا كانت ترانا نحن البنات الثلاث الجميلات الرقيقات كالفراشات حولها.

كانت أمي لا تكف عن الشكوى من أن الله حرمها من إنجاب الصبيان وأعطاها "كبة بنات". وتمادت أمي في إهمالها لي ولإخوتي البنات فكانت تتركنا مع خالتي رتيبة وتذهب إلى المشعوذين والمشعوذات لمساعدتها على "فك العمل" الذي بسببه يموت الصبيان في رحمها بينما تبقى البنات.

خالتي رتيبة هذه ليست خالتي أنا، بل هي خالة أمي وفي نفس الوقت زوجة أبيها، فقد تزوج جدي لأمي من هذه الأخت الصغرى لزوجته لأن زوجته ذكية، أم أمي، توفيت بعد دقائق من ولادتها لمولود ذكر، هو مولودها الثاني بعد أمي.

مات الولد بعد ساعات من وفاة أمه، جدتي ذكية، فأصبحت أمي يتيمة بسبب الولد. ورفض جدي بعد وفاة جدتي أن يعود إلى زوجته الأولى "أم عبيد"، التي كانت تطارده وتريد أن تستعيده بعد أن أخذته منها جدتي ذكية، وكانت أم عبيد هذه تكيد لجدتي ذكية ويقال إنها كانت تلجأ للسحرة والمشعوذين ليعملوا عملاً لضرتها ذكية ليخلصوها منها. وعندما ماتت ذكية وهي تلد ثاني مولود لها قالت النسوة إن "أم عبيد" عملت لها عملاً وقتلتها به.

تحكي لي خالتي رتيبة كل هذه الحكايات، تخفِّف عني وتقول لي إن أمي لا تكرهني فلا توجد في الدنيا أم تكره أولادها ولكنها فقط متلهِّفة على إنجاب الولد الذي حرمت منه أمها والذي حرمت منه هي أيضا.

وبعد كل مرة تلد فيها أمي ولدا ميتا لم يكتمل نموه في رحمها يترسخ في ذهنها وفي أعماقها الاعتقاد بأن لعنة "أم عبيد" أصابتها هي وأمها، وأن كل ما يحدث لها إنما هو من جراء "العمل اللى عملته أم عبيد لأمها ولها حتى تحرمهما من خلفة الصبيان". لذلك كانت أمي تتردد على السحرة والمشعوذ ين لفك العمل.

في كثير من الأحيان كانت خالتي رتيبة تشفق على أمي وتتعاطف معها وتواسيها بقولها: "يمكن يكون الكلام دا صحيح وتكون ضرتي أم عبيد، هي اللي عملت لكما العمل دا". ثم تعود وتقول: "أستغفر الله العظيم، ربنا قادر يفك كيدها وسحرها وما يقدر على القدرة إلا الله".

تضحك خالتي رتيبة ضحكة مجلجلة وهي تحكي لي حكايات ضرتها أم عبيد والسحر و"العمل" الذي كانت تضعه لها هي أيضا، بعد أن رفض جدي العودة لأم عبيد وتزوج من خالتي رتيبة.

وحكت لي خالتي رتيبة عن ألاعيب ضرتها أم عبيد التي كانت تتفنن في إدخال "العمل" إلى غرفة نوم خالتي رتيبة حتى يكرهها جدي ويعود لزوجته الأولى. فكانت الزوجة المهجورة تلجأ للخادمات وتتصاحب عليهن وعلى زوجة البواب وتغريهن بالهدايا والمال حتى يضعن "العمل"

تحت المرتبة أو داخل المخدة التي تنام عليها خالتي رتيبة، حتى يكرهها زوجها ويهجرها ويعود لأم عبيد. وكثيرا ما تختم خالتي رتيبة حكاياتها بقولها: "لكن ربنا أقوى منها ومن سحرها، أصل ربنا ما يتعاندش أبدا". وبالرغم من أنني كنت طفلة صغيرة إلا فإنني كنت أضحك من هذه الحكايات ولا أصدقها.

بعد خمس سنوات على مولدي رزقت أمي أخيرا بالولد حيا وكانت فرحتها به لا توصف وكأن أبواب السماء وأبواب الجنة فتحت لها. معاملتها له وتدليلها له يفوق الحد والوصف، وبالطبع ازداد إهمالها لي ولشقيقاتي ولم تعد ترى من دنياها سوى مولودها الذكر الذي أصبح المحور الذي تدور حوله حياة أسرتنا بكاملها.

ما زلت أذكر أول صفعة تلقيتها من أمي على خدي الصغير بسبب أخي الرضيع.

المشهد يتراءى الآن أمام عيني رغم مرور أكثر من ستين عامًا عليه: أنا واقفة بحجمي الضئيل أمام السرير الهزاز الصغير الذي يرقد فيه أخي الرضيع، أنا ممسكة في يدي بالزجاجة الصغيرة "البزازة" وبها سائل الكراوية، بعد أن سقطت الزجاجة من فمه الصغير وأخذ يصرخ فأسرعت أنا إليه، وكنت ألعب بالقرب من سريره، أمسكت بالزجاجة لأضعها في فمه ولكن قبل أن تصل إلى فمه وصلت أمي فرأتني وأنا ممسكة بالزجاجة في يدي، وبدون أدنى كلمة رفعت يدها وهوت بها على خدي في صفعة مدوّية وهي تصرخ فيّ: "شلتي البزازة ليه من بقه، يا مجرمة".

اتهمتني ظلما بدون تحقيق وعاقبتني بالصفعة الأولى في حياتي وأنا مظلومة!

ليست تلك الواقعة هي الوحيدة عن قسوة والدتي عليّ وظلمها لي. كنت أعاني من تفرقتها في المعاملة بيننا ليس فقط بيني وبين أخي ولكن حتى بيني وبين أختيّ اللتين تكبراني، الأخت الكبرى بأربع سنوات والثانية بسنتين. كنت مضطهدة مرتين مرة لأني بنت ومرة لأن ترتيبي الثالثة في البنات. كانت تشتري لهما الملابس الجديدة أما أنا فتعطيني ملابسهما القديمة التي تصغر عليهما.

أذكر مرة وأنا في التاسعة من عمري تقريبا، يوم وقفة العيد الصغير وكان وقتها في بداية الشتاء، دخلت أمي من الخارج ومعها لفافة ضخمة ونادت علينا لنرى ملابس العيد الجديدة. أخرجت معطفًا جميلا سماوي اللون من الصوف، وبه ياقة وجيوب من القطيفة الزرقاء اللامعة وأعطته لأختي الكبرى. ثم أخرجت معطفا آخر برتقالي اللون وجيوبه وياقته من القطيفة البنية، وأعطته لأختي الوسطى.

ثم أخرجت المعطف الثالث والأخير وكان من الصوف الكشمير في لون الجمل وبه جيوب قطيفة بنية، هجمت أنا على المعطف الصغير اعتقادا مني أنه لي، ولكنها دفعتني بعيدا ونادت على أخي الصغير وهي تقول "دا بالطو أخوكي الصغير!" سألتها في دهشة: "وأنا فين البالطو بتاعي؟". أجابتني بجفاء: "تاخدي بالطو أختك بتاع السنة اللي فاتت!" انفجرتُ باكية وجريت أرتمي على سريري في نحيب مكتوم خوفا من أن تسمعني فتأتي وتضربني.

عندما عاد أبي في المساء ووجد كل إخوتي في فرح ونشوة بملابس العيد الجديدة و لم يجدني وسطهم، ناداني من غرفة البنات، فقد كنا نحن البنات الثلاث ننام في غرفة واحدة نطلق عليها اسم "غرفة البنات"، أما أخي الصغير فقد تم تخصيص غرفة خاصة له بمفرده لأنه ولد ولا يصح أن ينام مع البنات كما تقول أمي، على الرغم من أنها حين رزقت بالابن الثاني تركته ينام وسط البنات وتركت الابن الأكبر وحده في غرفته الخاصة لأنه كبر وأصبح شابا (رغم أنه كان في الرابعة من عمره) ولا يصح أن يشاركه في غرفته طفل صغير!

حين رآني أبي والدموع في عيني سألني عما يبكيني فأسرعت أمي تقول بسخرية:

"علشان مش راضية تلبس بالطو أختها. تكونيش عايزة بالطو جديدًا؟ طيّب ولما يصغر عليكي السنة الجاية نرميه يعني... مش خسارة!!

دبت خناقة عنيفة بين أبي وأمي وأنا واقفة أرتعش من الخوف، لأني أعرف أن أمي لن تتركني دون عقاب وستنتقم مني في غياب أبي. ولكن الرجل الطيب حذرها أمامي قائلا: "إوعي تقربي من البنت والا تؤذيها في غيابي".

أخذني أبي من يدي وغادرنا البيت معا وذهب بي إلى محلات هانو في المنشية الكبيرة، وأشتري لي بالطو جاهزًا مستوردًا وليس مثل بلاطي إخوتي التفصيل، أجمل بالطو ارتديته في حياتي، كان من الصوف الأحمر وبه أزرار كروازيه والياقة والجيوب من القطيفة الأرجوانية.

والغريب أننا عندما عدنا إلى البيت ورأت أمي البالطو قالت لأبي وكأن لم يكن: "كنت تجيبه مقاس أكبر شوية علشان ينفعها سنتين ثلاثة كمان!".

ربما تكون هذه الظروف هي التي غرست في نفسي روح التحدي والرغبة الشديدة في إثبات الذات ودفع الظلم الواقع عليّ منذ لحظة ولادتي.

وجدت في التفوق في دراستي خير وسيلة لإثبات الذات، ولفت الأنظار إليّ حتى أبرهن للجميع، وخاصة لأمي، أن البنت ليست أقل من الولد بل أنها أحيانا تكون أفضل منه.

بالطبع لم يكن لأخي ذنب في تحيُّز والدتنا له وموقفها الظالم منا نحن شقيقاته البنات وموقفها من الشقيق الأصغر الذي رزقت به فيما بعد و لم تتعلق به بمقدار تعلقها بابنها الأول، وكانت تردد دائما أنه ابنها البكري وكأنها لم تنجب قبله، لدرجة أن إحدى قريباتنا قالت لها بسخرية ذات مرة: "إنت لازم تضعي ابنك في فاترينة زجاجية وتجلسي طوال اليوم تتأملي في جماله"، على الرغم من أنه لم يكن جميلا.

لا أذكر أبدا أنني شعرت بالغيرة من أخي هذا أو حسدته أو حقدت عليه، بل بالعكس كنت أحبه جدا وكنت أفضل صحبته على صحبة شقيقاتي البنات على الرغم من تقارب عمرنا نحن البنات والبعد النسبي بيني وبين أخي، خمس سنوات، ولكنني ربما وجدت في اقترابي منه وسيلة لأجعل أمي تحبني أو تهتم بي ضمن اهتمامها به.

لقد أدركت بذكائي الفطري أن أخي يحظى بإمتيازات داخل الأسرة

فاقتربت منه أكثر لأنال حظا من هذه الامتيازات. ثم أنه كان دائما بشوشا، مرحا وكريما يتقاسم معي كل ما تعطيه له أمي في الخفاء من شيكولاته وحلوى، وحتى النقود التي لا يعرف كيف يصرفها أو ماذا يشتري بها.

كان مصروف أخي الأسبوعي يفوق مصروفنا نحن البنات، بحجة أن الصبيان يحتاجون أشياء أكثر من احتياجات البنات! وعندما بدأ أخي يكبر شجعته أنا على القراءة فأحبها وكان يشتري بمصروفه الكبير المجلات الأسبوعية والروايات والقصص فآخذها منه وأقرأها أنا أيضا، ويرجع إلى أخي حبي لروايات نجيب محفوظ الأولى، فقد كان أخي يشتريها بمصروفه ويقرأها ثم يتركها لي لأقرأها من بعده، وبعد ذلك بسنوات كثيرة أعددت أنا رسالة دكتوراه عن "المرأة في روايات نجيب محفوظ"، واكتفى أخي بقراءتها.

حين اشترى أخي من مصروفه الكبير راديو ترانزستور صغيرًا فرحت كثيرا لأني سأستعيره منه، وأتمكن من الاستماع بمفردي لأغاني مطربي المفضل فريد الأطرش. فلم يكن في بيتنا حينذاك سوى راديو وحيد ضخم، من إنتاج المصانع الحربية، نحتفظ به على رف خشبي مرتفع في الصالة الكبيرة التي تحيط بها الغرف الأربع لشقتنا الكبيرة، وحين إذاعة أغنية لفريد الأطرش كنت أقف فوق كرسي خشبي أضعه تحت الرف الموجود فوقه الراديو لأكون قريبة منه، وأضع أذني على الجهاز لأسمع فريد، أما بعد أن اشترى أخي الراديو الترانزستور فقد كنت أستعيره منه وأضعه على خدي وأسمع "حبيب القلب من جوّه"، كما كانت أمي تطلق عليه لتسخر مني.

في تلك الأيام كان الراديو الترانزستور موضة جديدة ومرتفع الثمن لأنه اختراع جديد يتهافت الشبان على شرائه، ويسيرون في الشوارع يحملونه بفخر، ويجعلون صوته عاليا للفت انتباه البنات إليهم تماما مثلما يفعل الشبان اليوم بالاختراع الجديد "الموبايل".

وأعتقد أنني منذ ذلك الوقت تولدت عندي المقدرة على تحويل السلبيات إلى إيجابيات. وقد استفدت طوال مراحل حياتي المختلفة من هذه المقدرة التي ساعدتني على مواجهة الأمواج العاتية التي عصفت بحياتي فنجحت في تسلقها حتى وصلت إلى بر الأمان.

* * *

لا أدري لماذا أخرجني أبي من مدرسة رأس التين الابتدائية حيث كنت أدرس مع شقيقاتي البنات، وكنت في سنة ثانية ابتدائي، وأدخلني مدرسة السبع بنات للراهبات، وهي مدرسة أجنبية فرنسية بالمصروفات بينما كانت مدرسة رأس التين مدرسة حكومية بالمجان.

كل ما أذكره أن اثنتين من بنات عمي الأكبر وكذلك بنات خالي كن معي في مدرسة السبع بنات، فهل أراد أبي أن يقلد عمي وخالي ويتفاخر مثلهما بأن ابنته في مدرسة الراهبات؟ ونظرا لأنه لم يكن باستطاعته أن يصرف على البنات الثلاث ويدخلهن بالمصروفات فاكتفى بواحدة فقط؟ أم استشعر أنني متميزة عن شقيقاتي في الفهم والتلقي، وأحس بأن مستوى ذكائي أكبر من سني فأراد أن يهيئ لي محيطا دراسيا يتناسب أكثر مع قدراتي المبكرة! كل ما أعرفه أنه سحبني من المدرسة الحكومية وألحقني بمدرسة السبع بنات للراهبات الفرنسية.

يبقى سؤال سألته لنفسي مرارا واحترت في الإجابة عنه "أليس غريبا أن أكون الوحيدة بين إخوتي الخمس التي درست في مدرسة فرنسية ويشاء القدر أن أسافر إلى سويسرا الناطقة بالفرنسية وأعيش فيها أكثر من نصف عمري؟".

هل أبي هو السبب أم هي أسباب وأقدار مكتوبة ومدوّنة قبل الميلاد وليس لأحد يد فيها؟

تفوقت في دراستي في مدرسة السبع بنات للراهبات كنت ذكية ولماحة وشقية جدا واستطعت في أشهر قليلة أن أتعلم اللغة الفرنسية، التي

كانت لغة التعليم الأولى في المدارس الأجنبية، إلى جانب العربية كلغة ثانية والإنجليزية كلغة ثالثة. وفي ذلك الوقت كانت أغلب المدارس الأجنبية للبنات تديرها الراهبات ويعمل بها كثير من المدرسين الأجانب. ولم يكن هناك إلا قليل جدا من المدارس الخاصة التي يتم التدريس فيها باللغة العربية، وبعد الثورة انتشرت هذه المدارس العربية وتقلص دور المدارس الأجنبية التي لم يعد يطلق عليها مدارس أجنبية بل مدارس اللغات.

استطعت منذ السنة الأولى لي في مدرسة السبع بنات أن أسبق التلميذات القديمات، لأنني كنت أكبر سنا من معظم التلميذات، لأني درست سنتين في مدرسة رأس التين الابتدائية، وحين التحقت بمدرسة السبع بنات أرجعوني إلى سنة أولى ابتدائي. نجحت كذلك في أن أجمع حولي شلة من التلميذات أوجههن وأقودهن في اللعب وفي الشقاوة والمقالب ضد الراهبات، وعلى الرغم من شقاوتي الزائدة عن الحد فإنني كنت محبوبة جدا من الراهبات.

والحق يقال فلم تكن الراهبات يجبرن البنات التلميذات المسلمات على دخول كنيسة المدرسة أو حضور دروس "الكاتشيزم: Cathéchisme" أي التربية الدينية المسيحية، ولم تكن الراهبات يتحدثن أبدا أمامنا عن الدين المسيحي وتعاليمه. صحيح أننا كنا نسمع صلاتهن باستمرار، منذ وقوفنا في طوابير الصباح حين يدق جرس المدرسة في الثامنة صباحا، فنتجمع في طوابير وتبدأ الراهبة والتلميذات المسيحيات في إنشاد صلاة الصباح، ونحن المسلمات ننصت إليهن في صمت. ثم بمجرد دخولنا

الفصول وقبل بدء الحصة الأولى نقف جميعا في خشوع وتنشد الراهبة أو المدرسة المسيحية وتردد أدعية للعذراء مريم وابنها يسوع، والبنات التلميذات المسيحيات يرددن وراءها هذه الأدعية التي نستمع إليها نحن التلميذات المسلمات كل صباح وظهر ومساء حين انتهاء اليوم الدراسي والتي حفظناها عن ظهر قلب مثل الأغاني أو الأناشيد التي نسمعها من الإذاعة.

ولكن لم تطلب منا الراهبات أبدا أن نرددها مع التلميذات المسيحيات بل على العكس كانت الراهبة تقول للتلميذات المسلمات: "يمكن قراءة بعض القرآن في صمت أثناء صلاة المسيحيات" وهذا ما كنت أفعله فأقرأ الفاتحة و"سورة الإخلاص والمعوذتين أثناء صلاتهم المسيحية".

وقد ذكرت في روايتي "**السبع بنات في الإسكندرية**" كثيرًا من المقالب ومغامرات الشقاوة الطفولية وأنا في هذه المدرسة التي قضيت فيها ثماني سنوات دراسية، وحصلت منها على الشهادة الابتدائية الفرنسية القديمة "سرتيفيكا: Certificat" ثم الشهادة الإعدادية "بروفيه: Brevet".

وكانت الدراسة في مدرسة السبع بنات تنتهي بعد الشهادة الإعدادية والتي كانت امتحاناتها الشفهية تجري في القنصلية الفرنسية في القاهرة على أيدي مدرسين فرنسيين يحضرون من فرنسا خصيصا لإجراء الامتحانات الشفهية لجميع طلبه وطالبات المدارس الفرنسية الموجودة في القطر المصري حينذاك.

بعد تخرجي في مدرسة السبع بنات وحصولي على الشهادة الإعدادية

بتفوق، التحقت بمدرسة سان جوزيف للراهبات بمحرم بك، و لم أمكث بها سوى سنتين دراسيتين فقط، وإن كنت قد عملت بها فيما بعد كمدرسة ابتدائي لمدة أربع سنوات أثناء دراستي الجامعية.

بعد ذلك التحقت بمدرسة سانت جان أنتيد بالشاطبي بالإسكندرية، أو مدرسة "بوزنسون" كما يطلقون عليها لأن الراهبات العاملات بها قادمات من مدينة "بوزنسون" في فرنسا. ولقد حصلت من هذه المدرسة على شهادة البكالوريا الفرنسية وكان ترتيبي الأول على جميع المدارس الفرنسية بالقطر المصري. وهذه المدرسة موجودة حتى الآن وهي من أعرق المدارس الفرنسية في الإسكندرية، وقد ازدادت شهرتها بعد المسلسل التليفزيوني "**ضمير أبلة حكمت**" الذي قامت النجمة فاتن حمامة ببطولته في التسعينيات، وتم تصوير بعض أحداثه في مدرسة سان جان أنتيد بالإسكندرية.

أحتفظ بذكريات جميلة عن مدرسة السبع بنات منها نوادر تدل على مدى الشقاوة والانطلاق في هذه السن الصغيرة، كما أنها تعكس لمحات من الجو المعيشي المسالم والمتسامح الذي كانت تمتاز به الإسكندرية في الأربعينيات والخمسينيات، كمدينة ساحلية "كوزموبولاتينية" جميلة منفتحة على العالم وتضم جاليات أجنبية متميزة من جميع البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ومن جميع الديانات المسلمة واليهودية والكاثوليكية والمارونية والأرثوذكسية. وكانوا جميعهم يعيشون في وئام وتسود بينهم روح المحبة والتسامح والتعايش السلمي.

حين ألحقني والدي بمدرسة السبع بنات، التي تقع في شارع السبع بنات بالقرب من المنشية في وسط البلد، كنت في الثامنة من عمري وكنا قد انتقلنا مع بداية الخمسينيات من حي أبو العباس ببحري إلى منزل في شارع البحرية في حي الجمرك، على الرغم من أن أمي لم تكن راضية عن السكن في حي الجمرك وكانت تود أن تسكن في عمارات المينا الشرقية مثل شقيقتها ومثل شقيق زوجها، لأن حي المينا الشرقية أرقى بكثير من حي الجمرك الذي سكنا فيه، لأن حي الجمرك هو سكن العاملين في المينا الغربية وفي الجمارك ومعظمهم من الحمالين، ولكن أبي فضل استئجار هذه الشقة في حي الجمرك لأنها أرخص بكثير من شقق عمارات المينا الشرقية، حيث كان إيجار شقتنا ثلاثة جنيهات شهريا، أما شقة خالتي في عمارة قهوة الملك فاروق في المينا الشرقية، فكان إيجارها سبعة جنيهات وبما أن أبي كان رجلا لا يحب "الفشخرة" أي المظاهر الكذابة فقد ارتأى أنه من الأفضل توفير فرق الإيجار أو ربما كانت موارده المالية لا تسمح له بتسديد هذا الإيجار الشهري الباهظ، بمعايير الخمسينيات، لشقة في المينا الشرقية.

سكنا إذن في حي الجمرك في شارع البحرية. وشارع البحرية هذا هو شارع طويل جدا مواز لشارع السكة الجديدة، الذي تقع فيه محلات والدي وأعمامي والوكالة التي يقومون بتخزين البضاعة فيها من الصيني المستورد والصاج المدهون الذي تصنع منه الأواني المنزلية.

كانت العمارة التي سكنا فيها عمارة شاهقة بمعايير ذلك العهد فقد

كانت أعلى عمارة في الحي، وعشت فيها منذ أواخر الأربعينيات بعد أن تركنا حي أبو العباس الذي ولدت وترعرت فيه. وظلت شقتنا الواسعة في الدور الأخير من هذه العمارة هي بيت العائلة الذي عشت فيه حتى زواجي، واحتفظت أمي بالشقة بعد وفاة أبي، وتزوج فيها أخي الأكبر وعاش فيها مع زوجته وأمي وحتى وفاتها، رحمها الله، في أواخر الثمانينيات.

ولكني أعتز بمولدي في حي أبو العباس الذي أحتفظ له بمكانة خاصة في نفسي لما له من عبق ديني وتاريخي محبب.

عمارتنا من أعلى العمارات في شارع البحرية الذي يوازي الميناء الكبير وتوجد به الأبواب المتعددة للدخول للميناء ابتداء من باب نمرة واحد أو باب الكراستة، ومرورا بباب نمرة خمسة، الذي اشتهر في الثمانينيات عندما ظهر فيلم يحمل هذا العنوان قام ببطوله الممثل الكوميدي المشهور عادل إمام. في نهاية شارع البحرية يوجد باب "حداشر" حيث يلف الترام نصف دائرة كاملة في اتجاه الأنفوشي وحتى رأس التين، عند القصر الأبيض، قصر الملك فاروق الذي خرج منه في 26 يوليو 1952، واستقل الباخرة المحروسة وغادر مصر نهائيا بعد أن تنازل عن العرش لابنه الرضيع أحمد فؤاد الثاني، تحت ضغط الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة لتحرير مصر من الفساد، كما قالوا لنا في ذلك العهد.

مازلت أذكر ذلك اليوم المشهود في تاريخ الإسكندرية. كنت طفلة في العاشرة من عمري، وكان أبي قد استأجر لنا بيتا للمصيف في الدخيلة،

وإنتقلنا إليه منذ أول شهر يوليو 1952، وفي يوم 26 يوليو نزلت مع أبي إلى الإسكندرية، حيث كان ينزل يوميا بسيارته "الستروين" للذهاب إلى محل عمله في السكة الجديدة ويعود إلينا في الدخيلة في المساء عند غروب الشمس. وفي ذلك اليوم أردت أن أذهب إلى مدرستي السبع بنات لإحضار شهادة نجاحي، وأخذني أبي معه وبعد زيارتي للمدرسة مررت على بيتنا في الجمرك لإحضار بعض الأشياء التي طلبت مني أمي إحضارها معي من الشقة، وكنت قد تواعدت مع أبي ليمر عليّ في المنزل لأعود معه في المساء للدخيلة. وعند الغروب، جلست أتأمل منظر قرص الشمس وهو يسقط ويتلاشى في البحر، وكنت أحب هذا المنظر جدا وأحرص على مشاهدته كلما وجدت بالقرب من البحر، ولفت نظري الازدحام والهرج والمرج والأصوات العالية والهتافات و لم أفهم ما يحدث وسمعت أصواتًا عالية من الناس المتجمهرة في الشارع، ورأيت من بعيد باخرة صغيرة تبحر وسمعت سبع طلقات للمدافع وهتافات وصفيقًا وصراخًا وجميع الجيران في الشرفات يهللون ويهتفون:

"عاشت الثورة... ربنا ينصرهم... يعيش محمد نجيب ويغور الملك والفساد... ريّحونا منه... ارموا ورا قلة وزير، إلهي ما يرجعه".

وعندما وصل أبي بسيارته أمام المنزل في المساء لنعود معا إلى الدخيلة اخبرته بما رأيت وأنا في دهشة لما يحدث، فأخذ يشرح لي أن الباخرة الصغيرة التي رأيتها هي المحروسة التي استقلها الملك فاروق وأسرته وغادروا مصر نهائيا إلى إيطاليا لأن الثورة قامت في مصر والضباط

الأحرار حرروا مصر من فساد الملك فاروق وطردوه بعد أن تنازل عن العرش لابنه ولي العهد الأمير أحمد فؤاد، وأن اللواء محمد نجيب وزملاءه الضباط هم الذين سيحكمون البلد بعد ذلك وكل الأمورراح تتحسن إن شاء الله.

وأذكر أنني قلت لأبي في دهشة: "لكن يا بابا الأمير أحمد فؤاد لسه مولود أنا فاكره صورته ومامته الملكة ناريمان شايلاه وهو لابس فستان دانتيل طويلاً وجميلاً جدا وأنا محتفظة بصورته في أودتي..." وضحك أبي وقال لي: "أيوه عندك حق الأمير عمره 6 أشهر بس، هو بعدين حيبقى ملك مصر".

وشاءت الأقدار أن ألتقي بـ "الملك" أحمد فؤاد الثاني بعد أكثر من خمسين سنة على تنازل والده الملك فاروق عن عرش مصر لصالحه، وبالرغم من أنه لم يصبح أبدا ملك مصر فإن الجميع يطلقون عليه لقب "الملك أحمد فؤاد"، خاصة المصريين المقيمين في الخارج، وكذلك وسائل الإعلام الأوروبية. التقيت الملك أحمد فؤاد عدة مرات في جنيف بسويسرا حيث يعيش في مدينة لوزان التي درس بها هو وأخواته البنات وعاشوا فيها جميعا، وكانت الأسرة المالكة السعودية هي التي تتولى تسديد مصروفاتهم الدراسيية حتى تخرجوا. ولقد أصبح أحمد فؤاد من كبار رجال الأعمال واشتهر بالعمل في مجال التجارة البحرية، بينما عملت شقيقاته الأميرات فريال وفوزية وفادية بالتدريس في المدارس السويسرية. وهو يشبه والده الملك فاروق شبهًا كبيرًا، نفس الوجه الأبيض البشوش المشرب بحمرة، نفس الملامح والحجم والسمنة، وأعجبني فيه تواضعه الشديد وخجله من

المجاملات وكلامه المهذب وهو يتحدث بالفرنسية والإنجليزية، ولا يجيد العربية فيما عدا بعض الكلمات والجمل البسيطة.

* * *

نعود لذكريات مدرسة السبع بنات بالإسكندرية، حيث كنت أذهب إلى المدرسة بالأتوبيس الخاص لأن أبي كان يصر على ذلك وعمل لي اشتراك في الأتوبيس المدرسي الخاص بالمدرسة منذ التحاقي بها، إلا أنني طلبت منه أن يلغي هذا الاشتراك ليوفر ثمنه، نصف جنيه في الشهر.

في الحقيقة كان هناك غرض آخر في نفسي، وهو السير في الحارات الضيقة التي توصل شارع البحرية عموديا بشارع السكة الجديدة ثم من شارع السكة الجديدة إلى شارع السبع بنات رأسا، والمسافة كلها لاتستغرق أكثر من عشر دقائق سيرا على الأقدام. أما أتوبيس المدرسة فقد كان يأخذ المسافة في نصف ساعة لأنه يتوقف عدة مرات مرورا على بيوت التلميذات المشتركات فيه.

كان أتوبيس المدرسة يقطع شارع البحرية يسارا في اتجاه باب الكراسته ثم يقطع شارع باب الكراستة عموديا حتى قسم شرطة اللبان أو "كراكون اللبان" حسب تعبير الإسكندرانية، وبعد ذلك يسير الأتوبيس في شارع السبع بنات حتى المدرسة التي تقع في نهاية هذا الشارع الذي يحمل اسمها.

وقد اكتسب "كراكون اللبان" هذا شهرة واسعة، حيث كانت تقطن بجواره سفاحتا الإسكندرية الشهيرتان، ريا وسكينة. وترجع شهرة ريا

وسكينة، إلى الأفلام والمسلسلات التليفزيونية العديدة التي تم إعدادها عن جرائمهما البشعة. فقد كانتا تستدرجان النساء إلى بيتهما لسرقة مصوغاتهن وتخنقانهن بكتم أنفاسهن بمنديل مبلل ثم يتم دفنهن في بدروم البيت الملاصق "لكراكون اللبان" أي قسم الشرطة دون أن يشعرأحد من رجال الشرطة بما يجري من جرائم في الناحية الأخرى من جدار المركز، في كراكون اللبان هذا.

ومن كراكون اللبان وحتى ميدان المنشية يمتد شارع السبع بنات، وبه كثير من البارات أو الخمارات بلغة أهل إسكندرية. وكثيرا ما استرعى انتباهنا، نحن التلميذات الصغيرات داخل أتوبيس المدرسة، منظر بعض النساء الخواجات (يونانيات وإيطاليات) وهن يرتدين ملابس قصيرة جدا وسيقانهن عارية ووجوههن شديدة الحمرة من كثرة المساحيق فوقها، دون أن نفهم في ذلك الحين ما سر هؤلاء النسوة ولماذا يقفن هكذا نصف عاريات صيفا وشتاء على أرصفة شارع السبع بنات.

أعود من المدرسة في الرابعة بعد الظهر إلى البيت، وكانت عمارتنا تطل على البحر ونرى من شرفتنا البواخر الضخمة القادمة من أوروبا سواء بواخر الركاب أو بواخر البضاعة. كنا نرى الفنار الأسود الضخم الذي يرسل شعاع نور ساطع دائري لإرشاد البواخر ليلا، والذي كان ينير كل غرف شقتنا ايضا. عمارتنا تقع أمام مبنى "منه فيه" وهذه التسمية الغريبة أطلقها أهل الإسكندرية على مكتب مزادات مصلحة الجمارك هذا، حيث يجري كل عام مزاد كبير لبيع كل البضائع التي تم الحجز عليها من

المسافرين أو القادمين بالبواخر سواء لأنها من الممنوعات أو لأن أصحابها لم يستطيعوا تسديد الرسوم الجمركية المقررة عليها.

عمارتنا ملتصقة بعمارة أخرى عالية صفراء يقال إن الجنود الإنجليز كانوا، أيام الحرب العالمية الثانية، يصعدون فوق سطوحها لمراقبة حركة البواخر، وأنهم كانوا يختبئون ليلا في "غرف الفراخ" المبنية فوق السطوح. أما نحن أولاد سكان العمارة المجاورة، فقد كنا نتسلق السور العالي الفاصل بين العمارتين ونختبئ في غرف الفراخ هذه ونحن نلعب إستغماية.

كثيرا ما كنت ألعب مع أبناء بواب عمارتنا وخاصة ابنته السمراء البشوش خفيفة الدم التي كان سكان العمارة يسمونها "فتحية الهابلة" لأنها فاشخة "ضبَّها" على طول وبتضحك على الهايفة والمليانة.

كنت متعلقة بفتحية الهابلة لأنها كانت تحكي لي حواديت ونوادر ونكت إباحية غريبة. وعلى الرغم من أننا لا نفهم معناها، لا هي ولا أنا في ذلك الوقت، ولكن فتحية الهابلة كانت تسمعها من أبيها "عم أحمد البواب" وهو يحكيها لزوجته الشابة "بتول"، التي تزوجها وهو في السبعين بعد وفاة أم فتحية. وكان الرجل لا يدرك أن ابنته فتحية الهابلة، التي ترقد معهما في ركن الغرفة الضيقة المخصصة له فوق السطوح، تتصنَّت عليهما ليلا وهما في فراشهما يمزحان ويتأوهان أحيانا دون أن تفهم فتحية السر وراء تلك التأوهات والشهقات الغريبة التي تصدر عنهما.

كنت أصاحب فتحية الهابلة ابنة البواب أيضا وهي ذاهبة إلى السوق

لشراء طلبات السكان، خاصة يوم الأحد إجازتي الأسبوعية.

نسير من شارع البحرية حتى وكالة الليمون وهو سوق خضار تتعالى فيه أصوات الباعة الجائلين على عربة يد خشبية صغيرة إلى جانب معروضات أصحاب الدكاكين على جانبي الشارع المزدحم بالزبائن خاصة من النساء.

وأحيانا كنا نخترق شارع وكالة الليمون بأكمله نحو سوق الميدان في نهاية شارع السكة الجديدة وهو سوق الغلابة أيامها، والباعة يعرضون فيه الأسماك الصغيرة الرخيصة مثل السردين والبساريا في قفة من القش، إلى جانب الخضراروات الطازجة مثل البامية الفلاحي وعيدان الملوخية الخضراء وورق العنب. وكنت أشترى من سوق الميدان "العجوة" وهي مكّونة من بلح طري ممزوج ببعضه، كانت أمي تقوم بتسبيح العجوة في الزبدة لتحشو بها المعمولة الإسكندراني اللذيذة التي تجيد صنعها. كما كنت أشتري لأمي بعض الخضراوات التي تطلبها مني، وكنت أجيد الفصال في السعر مع الباعة، خاصة الباعة الجائلين على عربات اليد، لأن أسعارهم تكون غالبا أرخص من أسعار المحلات ولأنهم يتساهلون في البيع ليتخلصوا سريعا من بضاعتهم قبل أن يهجم عليهم مفتشو وزارة التموين في حملات التفتيش المباغتة التي تلقي ببضاعتهم أرضا وتصطحبهم إلى قسم الشرطة لتسديد غرامات باهظة.

ولكن خلال أيام الأسبوع، عندما أكون في المدرسة، كانت أمي تشتري الخضراوات من الباعة الجائلين الذين يسيرون في شارع البحرية، ويمرون

أمام عمارتنا بعربة اليد المحملة بالخضراوات وهم ينادون على بضاعتهم بأعلى صوت لتسمعهم ربات البيوت. تدلّي أمي بـ "سبت سلالي" مجدول من الخوص الأصفر ومربوط بحبل طويل، تدلي به من شرفتها وتضع فيه ورقة نقدية ملفوفة في ورقة ومضغوطة بدبوس غسيل خشبي حتى تثقل ولا تطير في الهواء، مكتوب عليها طلباتها وكمية الخضار الذي تريد شراءه، وحين يصل السبت إلى أسفل في متناول يد البائع، يأخذ الورقة النقدية وورقة الطلبات ويجهز الطلبية ويضعها في السبت مع الباقي من النقود. وأحيانا، كنت أستخدم "السبت السلالي" وأدلي به لبائع الجرائد والمجلات لأشترى منه بنفس الطريقة الجرائد والمجلات التي نريدها.

قبل أن أسرد بعض ذكريات الطفولة في مدرسة السبع بنات، أود التعريف بأسطورة السبع بنات في الإسكندرية، هناك حكايات كثيرة عنها أقربها للحقيقة والواقع تقول: إن الأسطورة ترجع إلى عهد إسماعيل باشا عندما بدأ سياسته الخاصة بالانفتاح على أوروبا وأخذ يشجع الأوروبيين على الحضور إلى مصر لإدخال المدنية الحديثة على البلد وليجعل من مصر قطعة من أوروبا.

أسرع كثيرمن الأوروبيين بالحضور إلى مصر للمعيشة فيها واختار الكثيرون الإقامة في الإسكندرية لكونها مطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل مدنهم الساحلية التي فارقوها في أوروبا ولأنها تمتاز بنفس السمات المشتركة من جو دافئ مشمس طوال السنة.

كثر توافد الأوروبيين على الإسكندرية، المدينة الهادئة ذات البيوت

البيضاء والنخيل السلطاني وشجر البلخ، احتل الأجانب الأثرياء من اليونانيين والفرنسيين والإيطاليين شرق المدينة ابتداء من الأزاريطة ومرورا بالشاطبي والإبراهيمية وكليوباترا حمامات وستانلى باشا وبولكلي.. أما الفقراء الأجانب من اليونانيين والقبارصة فقد انضموا لليهود وسكنوا بجوارهم في أحياء المدينة القديمة في العطارين وراغب باشا وشارع فرنسا وشارع النبي دانيال، واختلطوا كذلك باللبنانيين والسوريين في تلك الأحياء الشعبية ذات العبق السكندري المميز.

كل هذا الخليط من الأجانب وجدوا في الإسكندرية الملاذ والسكينة والمعيشة الهادئة المستقرة على الرغم من لغاتهم المتعددة ودياناتهم المختلفة مما حذا ببعض الكنائس أو بالأحرى بعض جمعيات التبشير الأوروبية إلى إرسال بعثات تبشيرية إلى مصر وخاصة إلى الإسكندرية وفتح كنائس ومدارس لتعليم أسس الدين المسيحي أو المذهب الديني الذي تبشر به هذه الجمعيات الأوروبية.

وكان معظم قادة هذه الحملات التبشيرية من الرهبان والراهبات التابعين لمذاهب مختلفة وجمعيات لعل أشهرها "الجيزويت" "نوتر دام دي سيون" و"ساكريه كور"، و"الفرنشسكان" و"سان فإنسان دي بول" وأيضا "المير دي ديو".

والغريب أن الأهالي المسلمين كانوا يرددون أسماء هذه المدارس دون أن يفهموا معناها، وكانوا على أغلب الظن يعتقدون أنها أسماء أجنبية لا تترجم، ولكني على الرغم من صغر سني وبعد أن تعلمت الفرنسية

وأجدتها وفهمت معنى أسماء هذه المدارس، اندهشت جدا من أن السلطات المصرية أباحت إنشاء مدرسة في مصر الإسلامية تحمل اسم "والدة الله" "مير دي دييه: Mère de Dieu"؟ كيف تقبل الأهالي المسلمون أن يكون لله الواحد الأحد الذي "لم يلد ولم يولد" ابن، أي أن الله سبحانه وتعالى، ابن مريم. وهذا يتنافى مع الدين الإسلامي لأن ابن مريم هو المسيح وليس الله وأن مريم أم المسيح "عيسى بن مريم" فكيف يطلق على مدرسة في مصر الإسلامية اسما يقول إن مريم أم الله وليس أم المسيح؟!

إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على روح التسامح وعدم التعصب في الجو العام في مصر في الأربعينيات والخمسينيات، وإن كان البعض يقول إن ذلك إنما يرجع إلى الجهل السائد بين الأهالي.

أما جمعية "سان فإنسان دي بول"، على اسم القديس بولس فهي جمعية فرنسية أرسلت إلى الإسكندرية بعثة مكونة من سبع راهبات لإنشاء كنيسة ومستوصف طبي ومدرسة لتعليم اللغة الفرنسية، فاختارت البعثة حي المنشية في وسط البلد واشترت مساحة شاسعة من الأراضي وأنشأت فوقها مباني ضخمة وأطلقت على المنشأة اسم "مستوصف ومدرسة الميزيريكورد: Miséricorde" أي الرحمة، إلى جانب كنيسة مرتفعة على الجانب المواجه من الشارع.

ولكن أهالي الإسكندرية وجدوا هذا الاسم الفرنسي ثقيلا في النطق، وبما أنهم كانوا يرون الراهبات السبع يعملن بهمة ونشاط في المستوصف

والمدرسة ويخرجن إلى الشارع ويسرن دائما مجتمعات في حلقة سباعية حتى لا يتعرضن للمضايقات، فقد أطلق الأهالي عليهن اسم "السبع بنات". وهكذا التصقت التسمية ليس فقط بالراهبات السبع ولكن بالمدرسة والمستوصف. فما كان من بلدية الإسكندرية إلا أن أطلقت رسميا على الشارع الذي توجد فيه المدرسة اسم شارع السبع بنات. ولايزال الشارع موجودا ويحمل نفس الاسم حتى الآن.

استمرت الراهبات السبع في إدارة المدرسة والمستوصف، وهذا الأخير كان يخدم الحي كله بالمجان في البداية ويوفر العلاج للأهالي في مختلف التخصصات الطبية حتى إن شهرته فاقت آفاق الحي.

أخذ المرضى يتوافدون عليه من شتى أنحاء مصر لكفاءة الأطباء الأجانب العاملين فيه، وكذلك لمهارة وتفاني الراهبات الممرضات به. واكتسب المستوصف شهرة طبية احتفظ بها حتى منتصف الخمسينيات أو بالأحرى حتى العدوان الثلاثي على مصر في 1956.

بعد العدوان الثلاثي غادر الأطباء الفرنسيون الإسكندرية، وضمت وزارة الصحة مستوصف السبع بنات إليها وعهدت بإدارته إلى أطباء مصريين.

أما مدرسة السبع بنات فقد اكتسبت هي أيضا شهرة واسعة على الرغم من أنها في البداية كانت مدرسة مخصصة لبنات الأجانب المقيمين بالإسكندرية لتعليمهن أصول الدين المسيحي واللغة الفرنسية. ويقال إن بعض الأسر المصرية الراقية من أهالي الإسكندرية أجرت مفاوضات مع

إدارة المدرسة لإلحاق بناتها بمدرسة السبع بنات ليتعلمن اللغة الفرنسية وأصول الإتيكيت وأشغال الإبرة والتريكو وإدارة البيت والعناية بالزهور والموسيقى على أيدي الراهبات، فوافقت إدارة المدرسة وفرضت رسوما مرتفعة لقبول التلميذات المسلمات.

بدأت البنات المسلمات يتوافدن على مدرسة السبع بنات ويشاركن التليمذات الأجنبيات في دراسة جميع المواد فيما عدا التربية الدينية المسيحية أو ما يطلقون عليها "كاتيشيزم: Catéchisme" ومع مرور السنين تغيرت الراهبات، ولكن استمرت المدرسة والمستوصف على نفس المنهاج وازداد عدد الراهبات وانضم اليهن بعض القساوسة خاصة لتدريس الدين ولأداء الشعائر الدينية في الكنيسة التابعة للمدرسة، ولتولي المراسم الدينية من تعميد المواليد وتلقي الاعترافات ومراسم الخطوبة والزواج ودفن الموتى.

لم تتغير سمعة المدرسة والمستوصف على الرغم من إزدياد عدد التلميذات المسلمات في المدرسة واللواتي أصبحن يشكلن الأغلبية منذ الأربعينيات.

منذ أن التحقت بمدرسة السبع بنات وأنا في نحو الثامنة من العمر اندمجت بسرعة في الجو العام السائد وتعلقت ببعض التلميذات ونمت بيننا صداقة قوية، وأصبحنا شلة مكونة من سبع بنات، لم نكن نشعر بأي اختلاف بيننا على الرغم من أن أسماءنا كانت مختلفة، بعضها أسماء عربية إسلامية والبعض الآخر ينتمي لثقافات متعددة. كنا جميعا من نفس

المستوى الاجتماعي أو بالأحرى لم نكن نشعر بفروق اجتماعية بيننا لأننا نرتدي نفس الزي المدرسي الموحد "يونيفورم" ولا يسمح لنا بأي مظهر آخر ينم عن الثراء أو الاختلاف. لم نع أو ندرك الفوارق الدينية والثقافية بيننا إلا بعد العدوان الثلاثي على مصر، ونمو الحس القومي بعد سماع الأغاني الوطنية لعبد الحليم حافظ وكلمات صلاح جاهين، التي ألهبت مشاعرنا وجعلتنا نشعر بفخر بمصريتنا وعروبتنا، وننظر إلى الراهبات وإلى التلميذات اليهوديات والفرنسيات والإيطاليات نظرة مختلفة يشوبها العداء والانحياز للقومية العربية. وسادت بعد ذلك سواء في مدرسة السبع بنات أو في الإسكندرية وفي مصر عامة روح من التعصب لم تكن موجودة من قبل، ولقد فقدت الإسكندرية تميزها والتعددية الثقافية والدينية التي كانت تشتهر بها والتي افتقدناها للأسف الشديد منذ العقد الأخير من القرن العشرين بعد ازدياد نشاط التيار الإسلامي المتشدد والجماعات الإسلامية التي نشرت جوا من التعصب والرجعية يرفض الآخر ولا يحترم معتقداته الدينية!

خلال سنوات الدراسة الابتدائية والإعدادية بمدرسة السبع بنات كنا نذهب مبكرا إلى المدرسة قبل دق الجرس بنصف ساعة لمراجعة دروسنا أو لنلعب بعض الوقت في فناء المدرسة الواسع، وحول الأشجار العتيقة الباسقة التي تحمينا من الشمس صيفا ومن المطر شتاء. كنت أستيقظ في السادسة صباحا وأتناول إفطاري وغالبا ما يكون من الفول المدمس أو البليلة، والتي كانت أمي تعده قبل نومها كل ليلة. تضع أمي حبات الفول أو حبات القمح مع الماء في قِدرة صغيرة مستطيلة من الألومنيوم الأبيض

ذات يد طويلة يتم تعليقها في مسمار ضخم على جدار المطبخ وتضع تحت القدرة "لمبة غاز نمرة عشرة" تظل شعلتها البسيطة مشتعلة طوال الليل، فتنضج حبات الفول أو حبات القمح داخل القدرة. وفي الصباح يقوم كل فرد من أفراد الأسرة بغرف مغرفة فول أو مغرفة بليلة من القدرة في سلطانية صغيرة ويضيف عليها ما طاب له من زيت زيتون وملح وليمون في حالة الفول المدمس أو لبن وسكر وبعض المكسرات على البليلة.

أغادر البيت كل صباح في السابعة ما عدا يوم الأحد، يوم العطلة الأسبوعية للمدرسة وذلك قبل أن تتدخل وزارة التربية والتعليم بعد ثورة 23 يوليو 1952، وتلزم كل المدارس الأجنبية في مصر بأخذ يوم إجازة إضافية أي يوم الجمعة من كل أسبوع، مثل بقية المدارس الحكومية إقرارا لمبدأ احترام ثقافة وديانة التلميذات المسلمات. فأصبحت مدرسة السبع بنات تغلق يومين في الأسبوع الجمعة والأحد.

الزي المدرسي الموحد من أهم ما يميز تلميذات مدرسة السبع بنات: المريلة الصيفية سماوية اللون من قماش خفيف ذي مربعات صغيرة بيضاء، أما المريلة الشتوية فهي من القماش الصوف الكحلي، حول الرقبة كول أبيض مستدير منشي صيفا وشتاء.

أما يوم الإثنين الأول من كل شهر فله مريلة خاصة من البيكة البيضاء ذات حزام عريض أزرق. المريلة البيضاء هذه مخصصة لذلك اليوم المشهود، يوم توزيع الكارنيه أو بطاقة الدرجات الشهرية. تتجمع تلميذات جميع فصول المدرسة في قاعة الاحتفالات بالمدرسة وتأتي رئيسة الراهبات ومن خلفها سكرتيرة المدرسة تحمل جميع البطاقات المدرسية.

تأخذ الرئيسة الراهبة في توزيع البطاقات على تلميذات كل فصل على حدة تبدأ بأولى ابتدائي فصاعدا. تنادي السكرتيرة على كل فصل فتنهض تلميذات الفصل ويتقدمن مع مدرسة الفصل لاستلام بطاقاتهن. تنادي السكرتيرة على كل تلميذة باسمها فتسير التلميذة حتى المنصة التي تجلس وراءها الرئيسة والسكرتيرة، تقوم هذه الأخيرة بتسليم بطاقة التلميذة للرئيسة التي تقوم بدورها بتسليمها للتلميذة مع تهنئة لطيفة أو توبيخ خفيف طبقا للدرجات الحاصلة عليها كل تلميذة.

بالطبع التلميذات البليدات كن يكرهن هذا اليوم وهذا الاحتفال الشهري الذي يستمر ساعة أو أكثر، أما التلميذات المجتهدات "الشاطرات" فكن يفرحن به جدا، لأن كل تلميذة تحصل على الدرجات النهائية في المواد الرئيسية تستحق نيشانا مذهّبا مزخرفا بالمينا، تضعه الرئيسة على صدر التلميذة وتحتفظ به التلميذة طوال الشهر حتى يوم الإثنين الأول من الشهر التالي.

وكثيرا ما كانت الرئيسة تقلّدني وسام التفوق الشهري وكنت أتباهى به أمام زميلاتى في المدرسة وحتى أمام إخوتي في البيت.

مازلت أحتفظ بالصور التذكارية التي أظهر فيها بالمريلة المدرسية الصيفية أو الشتوية ونيشان التفوق فوق صدري. أين أنا الآن من البنت الحلوة الشقية الممتلئة نشاطا وطموحا وبهجة؟ ما كان أجمل المريلة البيضاء والكول المنشي الأبيض حول رقبتها النحيفة الطويلة. يذكرني منظرها بمنظر البجعة الرشيقة البيضاء التي تسبح في خيلاء في بحيرة جنيف في

سويسرا. هل كان يدور بخلدي في ذلك العهد أنني سأعيش حول ضفاف بحيرة ليمان في مدينة جنيف السويسرية، وأنني سأصبح أستاذًا في جامعة جنيف العريقة التي أنشأها المصلح البروتستانتي جان كالفان في القرن الخامس عشر!

أول كل شهر تعود البنت المتفوقة التي كنتها إلى بيتها حاملة الكارنيه المجلد بالورق السلوفان الشفاف البراق واسمها مكتوب عليه بحروف دائرية جميلة الشكل باللغة الفرنسية بخط اليد وبالحبر الصيني الأسود، بينما نيشان التفوق يزيِّن صدرها وتجري نحو أمها لتريها درجاتها وتشرح لها كيف أنها الوحيدة في الفصل التي حصلت على تلك الدرجات النهائية في المواد الصعبة. تنظر إليها أمها في عدم مبالاة وتقول لها في ضيق: "ما أنت عارفة أنا لا باعرف أقرأ فرنساوي ولا حتى عربي ".

تفيق البنت من نشوتها وتدخل حجرة البنات، مكسورة النفس والخاطر وكأن إجابة أمها خنجرًا انغرس في قلبها الصغير الذي كان من دقائق يرقص فرحا وسرورا. ترتمي فوق فراشها والكارنيه فوق صدرها وتتذكر ما حكته لها خالتها رتيبة عن طفولة أمها التي "خيبت روحها بنفسها" لأنها كانت ترفض الذهاب إلى المدرسة و لم يستطع جدي الطيب القلب أن يجبر ابنته المدللة على الذهاب إلى المدرسة، فقد كان لا يرفض لها طلبا بحجة أنها يتيمة ومحرومة من حنان الأم، فدللها أكثر من اللازم وطاوعها، وكانت النتيجة أنها لم تتعلم حتى القراءة والكتابة ومبادئ الحساب مثل كل البنات من جيلها، وتركت نفسها تنساب وراء ما تردده

النسوة الجاهلات من حولها، رغم كل محاولات خالتي رتيبة لتعليمها القراءة والكتابة ولتشجيعها على قراءة القرآن الكريم معها، فقد كانت خالتي رتيبة متعلمة وحاصلة على الشهادة الابتدائية القديمة أما أمي التي كانت تصغرها بأكثر من خمسه عشر عاما فقد ظلت أميّة.

على الرغم من كل محاولات خالتي رتيبة لتعليم أمي القراءة والكتابة في البيت فإن أمي كانت عنيدة وترفض ذلك بشدة. فضّلت أمي منذ صغرها تعلم الخياطة والتطريز والتريكو وأشغال الإبرة والطبيخ وصناعة الحلويات والكعك والغريِّبة والبسكوت وبرعت فيها. والغريب أنها لم تكن أبدا تشعر بعقدة نقص أو تجد أن هناك ضرورة للتعلم، بل إنها كانت تسخر من العلم ومن التعليم وتقول: "لزومته أيه التعليم ما هو في الآخر برضة البنت راح تسيب المدرسة وتتزوج وتقعد في البيت".

ولكن الحق يقال كانت أمي ست بيت ممتازة وتتفانى في خدمة زوجها وأولادها، كما كانت ماهرة في التفصيل والخياطة وتصنع لنا فساتين جميلة تحسدنا عليها كل البنات من معارفنا وكذلك تصنع لنا بلوفرات تريكو في منتهى الروعة والجمال. أما تربية الكتاكيت والأرانب والحمام فكانت غيّة عند أمي. تشتري الكتاكيت من بائع متجول يحضر إلى العمارة ويبيع الكتاكيت للسكان وتشتري أمي دستة كتاكيت وتضعهم في البداية في صندوق كرتون كان فيما مضى صندوق حذاء أبي، وتضع فيه قطنًا لتدفئة الكتاكيت، وتعد لهم خلطة من الذرة المدشوشة مخلوطة باللبن، وتضع كمية منها في فمها دون أن تبلعها وتمسك كتكوتًا كتكوتًا

لتطعمه من فمها لفمه، حيث تقذف خلطة الذرة باللبن في منقارة الذي تفتحه بأصابعها و"تزغّط" الكتكوت.

كنت أحب منظر أمي وهي تقذف الأكل من فمها لمنقار الكتكوت الصغير، ولا يزال هذا المنظر الرائع في مخيلتي، وما زلت أذكره وأسترجعه وأتعجب من صبر أمي الشديد على إطعام الكتاكيت ورعايتها حتى تكبر و"تربْعن" أي يصبح عمرها أربعين يوما. بعد ذلك تصعد بالكتاكيت التي أصبحت فراخا إلى غرفة السطوح وتضعها في الغرفة وكل يوم تصعد إليها وتضع لها الذرة والماء، أو فضلات طعامنا، وكثيرا من كنت أصعد بدلا منها لأضع الأكل للفراخ وألعب مع فتحية ابنة البواب.

أما الأرانب والحمام فإن أمي تربيها في سندرة شقتنا، والسندرة عبارة عن مساحة فوق "عفشة المية" أى فوق المطبخ والحمام. تمتد السندرة من سطح الحمام المنخفض إلى سطح الشقة المرتفع ويبلغ ارتفاع السندرة أقل من متر وكنا نصعد إلى السندرة بسلم خشبي صغير ولا نستطيع أن نفرد قامتنا فيها، وكنا نضع في السندرة كل ما نستغنى عنه من "كراكيب" أي أشياء قديمة مهملة. ولكن أمي كانت تستغل السندرة في تربية الزغاليل والأرانب، والغريب أنها كانت تتعايش في سلام الزغاليل في ناحية والأرانب في الناحية الأخرى.

الأرانب تتوالد بسرعة رهيبة دون أن نعرف حتى عددها، ومن وقت لآخر كانت أمي تصحبني معها ونصعد للسندرة وأجري وراء الأرانب أو الزغاليل وأمسك بها وأسلمها لها، ثم أجرى أمسك بأخرى وهكذا حتى

تجمع العدد المطلوب من الأرانب لذبحها وعمل ملوخية عليها أو عدد من الزغاليل لذبحها وحشوها بالفريك وهو كسر القمح.

وبهذه الطريقة نجحت أمي في تحقيق نوع من الاقتصاد المنزلي والاكتفاء الذاتي من الدواجن والبيض والأرانب وتربيها تربية نطلق عليها حاليا مصطلح "أورجانيك"، كان ذلك قبل أن يعرف العالم معنى هذا التعبير الذي يطلق الآن على كل المأكولات النباتية والحيوانية الطبيعية التي لا تدخل فيها هرمونات أو أسمدة ومواد صناعية. كانت أمي "شاطرة وشملولة" كما تقول عنها خالتي رتيبة، ولكنها لم تكن تحب الكتب ولا تشجعني على القراءة، بل كلما رأت في يدي كتابا تقول لي: "بدلا من القراية طول الوقت ادخلي معايا المطبخ اتعلمي حاجة تنفعكِ". وملاحظتها هذه تدل على أنها لم تكن تعتبر العلم والقراءة حاجة تنفعني.

أذكر أنني حاولت مرة أن أعلِّمها بعض الكلمات الفرنسية مثل الكلمات البسيطة: بونجور، أوريفوار، بنونسوار وتانت وأونكل ولكنها سخرت مني عندما قلت لها إن كلمتي تانت وأونكل بالفرنسية تعنيان الخالة والخال أو العمة والعم، فقالت لي بتحد وسخرية: "لا يا فالحة تانت يعني خالتي وأونكل يعني خالي" أجبتها. "لا يا ماما في الفرنساوي مافيش فرق بين الخالة والعمة والخال والعم وبنسميهم بنفس الكلمة تانت وأونكل. ولكنها لم تقتنع و" قاوحتني" قائلة: "مافيش فرق إزاي يا بنت؟ إنت عبيطة والّا إيه؟ إيه الكلام الفارغ دا لازم تروحي للراهبة وتفهميها إنها غلطانة وإن فيه فرق كبير بين الخالة والعمة والخال والعم... إنت خالتك رتيبة زي عمتك سكينة برضة؟

كانت أمي رحمها الله امرأة جادة ومتزنة وصبورة "حمّالة آسية" ولا تشتكي ولا تعبر عن مشاعرها، لم أسمعها أبدا تغني أو تضحك من قلبها، بل كانت تبكي كثيرا وتميل للصمت وتحب زيارة القبور خاصة قبر أمها التي ماتت في ريعان شبابها. معظم الوقت كانت أمي تبدو حزينة وتجد أن "الضحك من غير سبب قلة أدب"، وعلمتنا ألّا نضحك بصوت عال وألّا ننطق كلمات بذيئة وأن يكون دائما "لساننا حلوًا".

لا أذكر أبدا مشاركة من أبي لها في إدارة البيت أو الأعمال المنزلية أو الإشراف على تربيتنا، كانت هي التي تتولى كل شئون البيت والأولاد وتساعدها في الأعمال المنزلية "أم السيد" الغسالة التي تأتي مرتين في الأسبوع لغسل ملابسنا. تجلس أم السيد على كرسي خشبي منخفض جدا في موازاة طشت الغسيل، بينما وابور الغاز عليه صفيحة مياه تضع فيها الصابون المبشور، ثم تغمس فيها قطع الغسيل بعد أن تفركها جيدا في الطشت، وتتركها في الصفيحة حتى تغلي المياه وبها الصابون و"الشبة" التي تحل محل الكلور لتبييض الغسيل. تظل أم السيد تغسل بيديها من السابعة صباحا وحتى الواحدة ظهرا، كل هذا مقابل خمسة وعشرين قرشا وتأخذ طبقًا به وجبة غداء لا تكاد أياديها "البايشة" تتحمل حمله. ظلت "أم السيد" لسنوات طوال تتولى غسيل ملابسنا حتي أحيلت للمعاش بعد شراء أول غسالة كهربائية للملابس، وقد أطلقنا على الغسالة الكهربائية اسم "أم السيد".

أما تنظيف البيت المكون من أربع غرف كبيرة فهو مهمة "يوسف العبيط"، وهو عامل نظافة يعمل في فندق أحد أخوالي الذي يرسله لأمي

مرة في الأسبوع لتنظيف شقتنا. وكان يوسف هذا مجذوبا كما يقولون لذا يسمونه "العبيط" لأنه طول الوقت يكلم نفسه أو يكلم أخرين لا أحد يراهم إلا هو، وأحيانا ما كان يتشاجر معهم أو يضحك معهم. وأعتقد أنه كان مصابا بنوع من "الشيزوفرانيا" وهو مرض انفصام الشخصية والمصابون به يعانون من مثل هذه الأعراض.

كما كانت أمي ماهرة في صناعة المربات المختلفة وخاصة مربي البلح السماني الذي تنزع منه النواة وتضع بدلا منها لوزة، وكذلك مربى اللارنج ومربى الحلبة السوداء بالسمسم والعسل الأسود، حتى الطماطم كانت تشتريها وهي رخيصة وتصنع منها مربى رائعة ذات مزاق حلو وحاذق محبب. وأغرب ما كانت أمي تتفنن في صناعته هو الصابون تعمل عجينة من زيت بطاقة التموين -الذي كان لا يصلح لأكل البني آدمين كما تقول- وتضيف إليه زيت الزيتون وقليلاً من الصودا والشبة وبعض الدقيق وروح الورد وتضعه في قوالب صغيرة وتتركه أياما يجف في الشمس فيصبح صابونا طبيعيا حلو الرائحة وملينًا للجلد.

من نوادر السبع بنات أتذكر أنه في السنة السادسة الابتدائية وأثناء حصة المطالعة الفرنسية وموضوعها حديقة الحيوان، كانت الراهبة تعيد وتزيد في الشرح في وصف خصائص كل حيوان وتكتبها على السبورة، وشعرت أنا بالملل من التكرار فحاولت أن أسلي نفسي فكتبت على الصورة الملونة في كتاب المطالعة وفوق رأس كل حيوان اسم إحدى راهبات المدرسة المعروفات واللواتي يتولين التدريس لنا والإشراف علينا.

وضعت اسم رئيسة الراهبات فوق رأس الأسد واسم مدرسة الفصل الراهبة "برناديت" فوق رأسٍ حية رقطاء، أما الراهبة الواقفة أمامي وظهرها لنا وهي تكتب على السبورة، فقد وضعت أسمها فوق رأس الحمار. وحتى أشرك صاحباتي في التسلية فقد مرّرت كتابي للصف الذي أمامي حتى تشاهد التلميذات ما كتبته. كنا نحن التلميذات نجلس في الفصل، اثنتين اثنتين متجاورتين على نفس التختة ذات المكانين. ما أن رأت التلميذتان الجالستان أمامي ما كتبته فوق رؤوس الحيوانات حتى انفجرتا في الضحك، فاندفعت الراهبة نحوهما ونزعت الكتاب من أيديهما. أخذت التلميذة التي كان الكتاب في يدها تبكي ظنا منها أن الراهبة ستعتقد أنها هي التي كتبت أسماء الراهبات فوق رؤوس الحيوانات، ولكن الراهبة قلّبت الكتاب فقرأت اسمي المكتوب على غلاف الكتاب بصوت عال ونظرت إلى متسائلة بدهشة "أنت التي كتبت ذلك؟". لم أستطع الإنكار بالطبع فأجبتها بالإيجاب. اصطحبتني الراهبة إلى مكتب رئيسة الراهبات والكتاب في يدها مفتوح على الرسم المشين، دليل إدانتي. فما كان من رئيسة الراهبات إلا توقيع عقاب رادع لي: صفر في مادة الأخلاق ونزع نيشان التفوق من فوق صدري.

تأثرت تأثرا شديدا بهذا العقاب القاسي، كيف تنزع رئيسة الراهبات نيشان التفوق من فوق صدري؟ شعرت بأن ظلما شديدا قد وقع عليّ وقررت ألا أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي.

وبالفعل لم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، ولكن الذي لم يخطر

على بالي أبدا و لم أتوقعه أن المدرسة تغلق أبوابها في اليوم التالي وأن كل التلميذات يعدن إلى بيوتهن في إجازة إجبارية لمدة شهرين!

كان تاريخ ذلك اليوم هو 28 أكتوبر 1956، تاريخًا لن ينمحي من الذاكرة أبدا، بدأ العدوان الثلاثي على مصر. مكثنا شهرين في البيت وكانت الغارات الكثيفة على المدينة تجعلنا نختبئ في مخبأ أسفل عمارتنا حيث نجلس رجالا ونساء وأطفالا خائفين مزعورين من صوت القنابل والأعيرة النارية، ويحاول الكبار التخفيف عن الصغار بحكايات عن أبطال بورسعيد. وأذكر ليلة لم يسعفنا الوقت للنزول إلى المخبأ حيث فوجئنا بأنوار ساطعة تنير سماء البلد وكأننا في عز الظهر وهرعنا جميعا إلى الشرفات لنرى ما يحدث وكنا نصرخ من الفزع والرعب واعتقدنا أن الإسكندرية تحترق، ولكننا عرفنا بعد ذلك أن تلك الأنوار الكاشفة تأتي من قذائف جديدة استخدمها الإنجليز والفرنسيون لأول مرة لكشف أماكن الدفاع في المدينة. وكنا طوال النهار نستمع إلى الأناشيد الوطنية التي تلهب مشاعرنا الوطنية وكنا جميعا نردد تلك الأناشيد الحماسية التي تذيعها جميع المحطات ليلاً ونهارًا بلا انقطاع وخاصة نشيد "الله وأكبر فوق كيد المعتدي". تلحين محمود الشريف، وقد أصبح هذا النشيد فيما بعد السلام الوطني لمصر وذلك قبل أن يقع الاختيار على نشيد "بلادي بلادي لك حبي وفؤادي". تلحين سيد درويش، ابن الإسكندرية، بدلا من نشيد الله أكبر، ليكون السلام الجمهوري الذي يردده التلاميذ في جميع المدارس المصرية حتى يومنا هذا. ثم بعد ذلك أخذ العقيد معمر

القذافي نشيد الله أكبر وجعله السلام الوطني للجماهيرية الشعبية الديمقراطية الليبية.

عدنا إلى المدرسة في شهر ديسمبر بعد انسحاب القوات الفرنسية والإنجليزية والإسرائيلية من بورسعيد وانتهاء العدوان الثلاثي الغاشم على مصر "وانتصارنا الباهرعلى الدول الثلاث" واعتماد يوم 22 ديسمبر من كل عام عيدا للنصر. كتبت في موضوع الإنشاء أعبر عن مشاعري بعد ذلك العدوان الثلاثي على مصر: "اليوم اعتدت دولتان كبيرتان على دولة صغيرة لأن رئيسها العظيم، بطل الثورة المجيدة، الرئيس جمال عبد الناصر، قام باستعادة جزء من أرض مصر الحبيبة وهو قناة السويس التي أممها الرئيس في 26 يوليو 1956، فأعاد لمصر كرامتها بهذا التأميم. هذه القناة حفرها أجدادنا بسواعدهم القوية وسقط منهم آلاف الشهداء فداء لمصر، بينما يّدعي الفرنسيون والإنجليز أنهم هم الذين شقوا قناة السويس ولذلك هي من حقهم.

لقد جاءوا بجيوشهم ودباباتهم وطائراتهم وبمساعدة إسرائيل، عدو العرب، للاعتداء علينا لاستعادة القناة منا. ولكن هيهات هيهات فقد نصرنا الله نصرا عظيما. لقد انتصر الحق على الباطل، انتصر رئيسنا البطل وانتصرنا على الأعداء بفضل الله وشجاعة وبسالة جنود وضباط جيشنا المسلح العظيم. "ملأت هذه المشاعر الوطنية الجياشة صدور جميع المصريين، مسلمين وأقباطًا، وبدأوا يشعرون بالكراهية والحقد ضد الإنجليز والفرنسيين بل وضد الأجانب جميعا. ولأول مرة بدأنا نحن التلميذات

الصغيرات في مدرسة السبع بنات ننظر للراهبات الفرنسيات نظرة مختلفة وبدأنا نتحاشى التلميذات اليهوديات اللواتي كن يتغيَّبن عن المدرسة الواحدة تلو الأخرى حتى انقطعن جميعا عن الحضور إلى المدرسة، وعرفنا فيما بعد أن معظم اليهود خرجوا من مصر ومعظمهم هاجروا إلى إسرائيل. بعد العدوان الثلاثي تغير كل شيء في مدرسة السبع بنات وساد جو من القلق والتوتر وعدم الاطمئنان خاصة من جانب الراهبات.

أما التلميذات فقد انقسمن إلى قسمين: قسم متعاطف مع الراهبات ويضم معظم التلميذات الأجنبيات من إيطاليات ويونانيات ولبنانيات، ومعسكر ثان أكثر عددا وضغينة ضد الراهبات، ويضم كل المصريات خاصة المسلمات. في السنوات التالية تم إدخال مواد جديدة في الدراسة بالمدرسة وهي تاريخ وجغرافية مصر إلى جانب المواد الاجتماعية القومية والدين. فلم نكن ندرس قبل العدوان الثلاثي على مصر هذه المواد وكانت الجغرافيا والتاريخ مادتين باللغة الفرنسية وتتمحور حول تاريخ وجغرافيا فرنسا وأوروبا فقط. أما تدريس الدين الإسلامي أو التربية الدينية فلم تكن موجودة بالمرة في المناهج الدراسية بالمدارس الأجنبية بالنسبة للمسلمات حيث كان تدريس الدين المسيحي للمسيحيات فقط، أما المسلمات واليهوديات فكانت لنا حصة يطلقون عليها دروس الأخلاقيات (Leçons de Morale) ندرس فيها المبادئ الأخلاقية والقيم المشتركة بين جميع الأديان.

وكانت خالتي رتيبة تتولى تربيتي الدينية في البيت حينما تأتي لزيارتنا وإليها يعود الفضل في تحفيظي بعض قصار السور، ثم فيما بعد أكمل زوج

شقيقتي الكبرى تربيتي الدينية، حيث أهداني أول مصحف في حياتي وقرأته كاملا وأنا في نحو السادسة عشر من عمري. و لم أترك بعد ذلك المصحف وأصبح منذ ذلك العهد كتابي المفضل وخير رفيق في جميع مراحل العمر.

* * *

أمواج المراهقة

في المرحلة الإعدادية كنت متفوقة وفي نهاية السنة الأولى الإعدادية حصلت على الدرجات النهائية في معظم المواد الدراسية، فاقترحت رئيسة الراهبات على أبي أن تنقلني إلى السنة الثالثة الإعدادية مباشرة على أن أستذكر مقررات السنة الثانية الإعدادية في الاجازة الصيفية وأؤدي امتحانًا فيها قبل بدء الدراسة في العام التالي وإذا نجحت ألتحق بالسنة الثالثة الإعدادية. وتم ذلك بالفعل وقضيت شهري الإجازة الصيفية في استذكار مواد الثانية الإعدادية وأديت الامتحانات ونجحت، ومن ثم التحقت بالصف الثالث الإعدادي. ولكني لم أكن سعيدة بذلك لأنني حرمت من الوجود في نفس الفصلُ مع شلة صاحباتي من دفعتي واللواتي اشتركت معهن في نفس الفصل لمدة سبع سنوات. ولكني سرعان ما اندمجت مع

شلة أخرى وكنت بالطبع ألتقي شلتي القديمة يوميا في الفسحة.

في سنة الشهادة الإعدادية كانت معظم البنات في الشلة الجديدة متيمات بالمطرب الجديد عبد الحليم حافظ، الذي بدأ سهمه يصعد في سماء الفن والنجومية منذ بداية الستينيات، بينما كنت أنا مغرمة بفريد الأطرش وأرى أن عبد الحليم مجرد مغنٍ يردد ألحان غيره من الموسيقيين، صحيح أن صوته جميل ومعبر ولكن فريد الأطرش يمتاز عنه لأنه إلى جانب صوته الجميل العذب يلحن أغانيه، وألحانه شرقية بديعة فيها سحر الشرق وجماله. لم تكن البنات تشاركنني في إعجابي بفريد الأطرش ويحاولن بشتى الطرق أن يضممنني إلى جمعية محبي عبد الحليم حافظ. في تلك السنة كانت مدرِّسة الفصل راهبة تدعى ماري جوزيف، في نحو الخمسين من عمرها، يقال إنها من أسرة فرنسية عريقة. اتسمت هذه الراهبة بالقسوة على التلميذات ومعاملتهن بعنجهية، خاصة المصريات المسلمات، فكانت تراقب كل تصرفاتهن وتفتش حقائبهن بحثا عن أي "ممنوعات" أي مجلات خارجية أو صور لممثلين مما كانت التلميذات يتبادلنها فيما بينهن أحيانا.

وذات مرة أجرت الراهبة تفتيشا مفاجئا على حقائب التلميذات واستخرجت من حقيبة إحداهن " أشياء خطيرة ومشينة"، كما أعلنت لهن أنها سوف تتخذ إجراءات صارمة ضد التلميذة المذنبة. في اليوم التالي جاءت سكرتيرة المدرسة إلى فصلنا لتستدعيني لمقابلة رئيسة الراهبات في مكتبها. أخذتني الدهشة بسبب هذا الاستدعاء المباغت، وحين ذهبت لمقابلة الرئيسة فوجئت بها تطلب مني الانصراف من المدرسة على الفور

وألا أحضر في اليوم التالي إلا ومعي والدي. في اليوم التالي دخلت مكتب رئيسة الراهبات ومعي والدي وأنا في حيرة شديدة، ولا أجد سببا لهذا الاستدعاء الغريب. ما إن رأتنا رئيسة الراهبات حتى طلبت مني الخروج من المكتب لأنها تريد أن تتحدث مع والدي على انفراد. خرجت من المكتب وأنا أكاد أجن لأني لا أفهم ما يجري لي فقد كنت واثقة ومتأكدة أنه لم تكن في حقيبتي أي ممنوعات تستوجب هذا الإجراء التعسفي.

وأخذت أراقب أبي والرئيسة من وراء زجاج نافذة المكتب، ورأيت الراهبة وهي تخرج من درج مكتبها ورقة مطوية على أربع وبداخلها صورة، وما إن فتحها أبي وقرأها ونظر في الصورة حتى انفجر ضاحكًا، بينما الراهبة تحملق فيه باستغراب وتتلفّظ بكلمات لم أسمعها ولكن واضح من تعبيرات وجهها أن فيها استنكارًا. والدي يكلمها ويبدو وكأنه يشرح لها موضوعا ما وهو يبتسم. الراهبة تهز رأسها عدة مرات وكأنها فهمت شيئا كان غامضا ومبهما ثم تبتسم أخيرا وتنهض من وراء مكتبها وتقترب من أبي وتنظر من جديد في الصورة وفي الورقة المطوية وتبتسم مرة أخرى وهي تهز رأسها عدة مرات، ثم تمد يدها لتصافح أبي الذي نهض بدوره ليصافحها وأخذا يتبادلان بعض الكلمات وهي تشد على يده وكأنها تعتذر له. فتحت الراهبة باب مكتبها ونادتني فدخلت المكتب وأنا فاغرة فاهي من الدهشة، لأني لم أفهم ولم أستوعب ما دار بينهما. وابتسمت الراهبة في وجهي وهي تمد يدها بالورقة المطوية والصورة وتقول لي:

- هذه هي الممنوعات التي وجدتها الراهبة ماري جوزيف في

حقيبتك، والتي استدعيت والدك ليراها بنفسه، وكنت على وشك طردك من المدرسة بسببها لأننا اعتقدنا أنه "خطاب غرامي" أرسله لك حبيبك صاحب الصورة المرفقة بالخطاب! لكن والدك شرح لي كل حاجة، ارجعي الفصل الآن فالموضوع انتهى على خير...

وقبل أن أنبس بحرف أكمل والدي كلامها بقوله:

– أنا شرحت للست الراهبة الرئيسة أن المكتوب في الورقة كلمات أغنية جديدة للمطرب عبد الحليم حافظ صاحب الصورة.

لم أعرف أبدا من التي دسّت لي في حقيبتي هذه الورقة المكتوب فيها كلمات أغنية عبد الحليم حافظ الجديدة "جواب غرامي" ومعها صورته. ربما كانت واحدة من التلميذات البليدات اللواتي يحقدن عليّ لا لشيء إلا لأني متفوقة ومحبوبة من جميع المدرسات والمدرسين.

على ذكر المدرسين، ففي هذه السنة ولأول مرة سمحت الراهبات، تحت ضغط وزارة التربية والتعليم، بدخول أول مدرس رجل ليدرس للبنات في الفصل اللغة العربية والدين الإسلامي، ولكن الراهبات اشترطن أن يكون سن المدرس فوق الخمسين. وقع الاختيارعلى رجل وقور في نهاية العقد الخامس من العمر هو الأستاذ عبد العزيز منسي. كانت فرحتنا به لا توصف لأننا أصبحنا على قدم المساواة مع التلميذات المسيحيات اللواتي كان القسيس "بيير" يدرس لهن الدين المسيحي، على الرغم من أننا جنّنا الأستاذ منسي بشقاوتنا ومقالبنا مستغلين طيبته الزائدة وأخلاقه الدمثة. كان الرجل رؤوفا حنونا وفي نفس الوقت يسعى لترغيب البنات

في دراسة الدين الإسلامي، ويدرك تماما صعوبة مهمته حيث أنها المرة الأولى التي تسمع فيها معظم تلميذات مدرسة السبع بنات الآيات القرآنية وتفسيرها وكذلك الأحاديث النبوية ومعانيها والمبادئ الإسلامية الجديدة عليهن. فكان لزاما عليه أن يتوخى الحكمة واللين والحذر حتى لا تكون النتيجة عكسية، وتكره البنات حصة الدين فيخسرهن ويخسر وظيفته في المدرسة أيضا.

كنت أنا بالذات أتفنن في توجيه الأسئلة المحرجة للشيخ الخجول، خاصة في الموضوعات الحساسة المتعلقة بالمرأة والعلاقة مع الرجل وبعض الألفاظ والتعبيرات التي قرأتها في الكتب الخارجية باللغة الفرنسية، والتي كنت أرددها كالببغاء دون أن أفهم معناها، والتي لم أجرؤ على سؤال الراهبات عنها لأتحاشى عقابهن وتبويخهن. سألته مرة بمكر:

– لماذا يتزوج الرجل بالمرأة؟

أجابني الرجل ببساطة ولطف: "لتكوين أسرة وإنجاب أطفال".

فعدت أسأله: "وبعد تكوين الأسرة وإنجاب الأطفال لماذا يستمر الزوجان في العلاقة الزوجية؟ لزم الرجل الصمت و لم يحر جوابا فاعتقدت أنا أنه لم يفهم سؤالي فعاجلته بسؤال أكثر جرأة:

– لماذا يستمر الزوج في معاشرة زوجته بعد إنجاب الأطفال"!

نظر إليّ الرجل الوقور وقال لي بهدوء: "يا ابنتي، أنت تقولين كلاما وتسألين أسئلة غريبة أكبر من سنك وإدراكك، وأعتقد أنك تقرئين ذلك

في الكتب الفرنسية، ولا أحد يراقب ما تقرئين وأنت ترددين تعبيرات لا تفهمين معناها الآن ولا أستطيع أن أشرحها لك، عندما تصبحين عروسًا وتتزوجين ستفهمين كل هذه الأشياء".

كان الرجل على حق فقد كنت بالفعل أقرأ كتبا أكبر من سني بكثير خاصة كتب سيمون دي بوفوار، قائدة الحركة النسائية لتحرير المرأة في فرنسا في الخمسينيات. قرأت كتابها المشهور "الجنس الثاني" وأنا في سن الرابعة عشر من عمري، دون مراقبة من أحد، فلم يكن أبي يجيد الفرنسية ولا أمي تستطيع أن تعرف ما أقرأ ولا أحد من إخوتي يهتم بما أقرأ أو يفهم ما أقرأ، وكنت أستعير هذه الكتب من مكتبة المركز الثقافي الفرنسي في الإسكندرية المفتوحة للجميع.

و لم أكتف بالكتب التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة، فقد كانت كلها كتب أطفال من سلسلة "المكتبة الوردية"، وكلها قصص عن فتيات صغيرات ومغامراتهن مع قطة صغيرة أو كلب مخلص أو حصان أصيل. وكنت أجد هذه القصص "عيالي" ولا تتناسب مع عقليتي، لذا كنت أذهب إلى المركز الثقافي الفرنسي وأستعير القصص والروايات المخصصة للكبار البالغين، وكنت أكذب على أمينة المكتبة وأقول لها إني أستعير الكتب لشقيقتي الكبرى التي لا تستطيع الحضور بنفسها لأنها مريضة وطريحة الفراش وتقضي كل وقتها في القراءة. كانت أمينة المكتبة تصدقني وتعطيني أحدث القصص والروايات التي تصل من باريس لمكتبة المركز الثقافي الفرنسي بالإسكندرية. أقرأ كتابا كاملا في اليوم

وأحيانا أكثر من كتاب في يوم الإجازة لأنني غالبا ما أقضي عطلة نهاية الأسبوع في البيت ولا أخرج إلا نادرا. أحيانا نخرج يوم الأحد، أنا وأبي، لأنه هو أيضا إجازته يوم الأحد، حيث يغلق محله ويأخذ سيارته الفرنسية ماركة "السيتروين"، ويطوف على زبائنه لتحصيل ثمن البضاعة التي استلموها ويماطلون في تسديد ثمنها فيضطر للذهاب بنفسه إليهم يوم عطلته الأسبوعية لتحصيل ثمن البضاعة. في بعض الأحيان يأخذني معه ليخرجني من البيت و"لأشم هوا" كما يقول. آخذ معي كتابا أقرأه وأنا جالسة أنتظره في السيارة وهو يحاسب أحد الزبائن المتأخرين في السداد. والغريب أنه لم يسألني أبدا عما أقرأ، وأعتقد أنه لم يخطر بباله أنني أقرأ روايات وقصصًا غرامية، بل ربما اعتقد أبي أن الكتاب الذي أقرأ فيه هو كتاب مدرسي وأنني "أذاكر" فيه.

القراءة هي هوايتي الوحيدة أثناء سنوات المراهقة، قرأت خلال تلك المرحلة من عمري كثيرًا من المؤلفات الأدبية الكلاسيكية الفرنسية وكنت مغرمة بقراءة الكتب التي تكتبها النساء، فقد قرأت وأنا في هذه السن الصغيرة معظم مؤلفات الأديبات الفرنسيات ابتداء من "مدام دو سيفنييه"، وكتابها الوحيد الذي صدر في القرن السابع عشر، ويتضمن رسائلها المشهورة إلى ابنتها في وصف مغامرات النبلاء في بلاط الملك لويس الرابع عشر في قصر اللوفر في باريس، مرورا بروايات ومؤلفات جورج صاند، الأديبة المسترجلة في القرن التاسع عشر والتي اختارت لنفسها اسم رجل "جورج" لتثبت أنه لا يوجد فرق بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بالفكر والأدب والذكاء والكتابة الأدبية. أما الكاتبة التي كنت متيّمة بقراءة

مؤلفاتها فهي سيمون دي بوفوار التي تشبَّعت بأفكارها الثورية وإيمانها بحق المرأة في المساواة الكاملة مع الرجل في جميع المجالات.

* * *

كان مدرسي الشيخ عبد العزيز منسي محقا، فقد كنت أقرأ بلا رقيب كتبا ومؤلفات لا تتناسب مع سني الصغيرة. حاول الشيخ الرزين بدماثة خلقه أن يبعدني عن هذه القراءة الغربية، ويحببني في قراءة الكتب العربية سواء الأدبية أو الدينية، فوثقت فيه واقتربت منه أكثر وطلبت منه أن يختار لي الكتب التي يجب أن أقرأها ووعدته ألا أقرأ بعد ذلك كتب الكبار.

بعد عدة أشهر، تعلم الشيخ كيف يمسك أعصابه ويجيب عن أسئلتنا بصبر وبهدوء، ويختار التعبيرات السهلة والشرح المختصر المهذب حتى لا يخدش حياء المراهقات في هذه السن الحرجة. ونجح الشيخ بأسلوبه الراقي المتمكن في استقطابنا جميعا وفي غرس مبادئ الدين الإسلامي في نفوسنا الطاهرة. تعلقت أكثر وأكثر بدروس الدين الإسلامي، ونجح الشيخ بكلامه اللين وباهتمامه الشديد بي في أن يجعلني لأول مرة أقرأ المصحف بأكمله.

وقد أهداني زوج شقيقتي الكبرى مصحفا، فقد كان الأكثر تدينًا في أسرتنا، ولا يحبذ دراستي في مدرسة الراهبات ويخشى عليّ من تأثيرهن المسيحي، ويسخر مني لأني متأثرة بالثقافة الفرنسية "الأجنبية" على حد تعبيره ويسميني "الخواجة" ولا يكف عن تذكيري بأنني مسلمة ويحثني

على التمسك بالدين الإسلامي وحفظ القرآن الكريم. و لم أكن قد حفظت إلا بعض قصار السور التي تكفي للصلاة، و لم يسبق لي أن قرأت المصحف بأكمله، فلا أذكر أنني رأيت في بيتنا مصحفا ولا أذكر أبدا أني رأيت أبي يقرأ في المصحف، وبالطبع لم تكن أمي تقرأ في المصحف نظرا لأنها لم تكن تجيد القراءة والكتابة، وربما لم تقرأ مصحفا طوال حياتها، على الرغم من أنها كانت تحج كل عام حتى أصابها المرض وأقعدها طريحة الفراش حتى وفاتها.

بدأتُ وأنا في المرحلة الإعدادية أحفظ الآيات القرآنية المقررة علينا عن ظهر قلب، بل وأزيد عليها حفظ الآيات التي أختارها من المصحف بنفسي. وقد أيقن الشيخ عبد العزيزبحدسه المفرط أنني متعطشة للعلم والفهم وكان يقول لي بحنان: "ربنا يحفظك ويرعاكي يا بنتي ويجعل القرآن قرينا لك في دنياك"، ولقد استجاب الله لدعائه فقد تعلقت بالكتاب الكريم وأصبح لا يفارقني منذ ذلك العهد واجتهدت طوال مراحل العمر أن أقرأ جزءا كاملا من القرآن الكريم يوميا.

* * *

ومن أجمل ذكريات مدرسة السبع بنات في المرحلة الإعدادية، ذكريات الرحلات الخارجية الدورية التي كانت المدرسة تنظمها لنا باستمرار لمدة يوم واحد ونعود مع الغروب. ذكريات لا تزال محفورة في الذاكرة حية ونابضة مثل قلوبنا البريئة المتفتحة للبهجة والهواء النقي والشمس المشرقة والسماء الصافية.

ضحكاتنا تملأ الجو وصرخاتنا تنطلق في الفضاء وكأننا طيور برية طليقة على الرغم من النظام الصارم الذي تفرضه الراهبات على التلميذات المشتركات في هذه الرحلات الخارجية المحددة الوجهة دائما، صيفا وشتاء كأنما تحركها بوصلة دقيقة.

في الشتاء الاتجاه نحو استراحة الراهبات المسماه "قصر تيتو"، ذي الأسوار العالية المطل على بحيرة ماريوت. في ذلك العهد كانت منطقة "إكنج مريوت" لا تزال قرية صغيرة ليس بها إلا شاليهات محاطة بحدائق صغيرة ولكل منها طاحونة مياه عالية تستخرج المياه الجوفية من بئر، فلم تكن المياه الجارية في مواسير الحكومة قد دخلت بعد في هذه المنطقة، ولم تكن زجاجات المياه المعدنية قد ظهرت بعد في ذلك العهد، فكنا نشرب من هذه المياه الجوفية المستخرجة من بئر قصر تيتو، مثلما يفعل بقية ساكني المنطقة. ومعظم مالكي تلك الشاليهات من الأجانب المقيمين في الإسكندرية، ونادرا ما يأتي السكندريون لهذه المنطقة، ولم يكن فيها سوى فندق واحد محاط بحيقة كبيرة نوعا ما وبها كافتيريا تعتبر الملتقى الشتوي للجالية الأوروبية الموجودة في الإسكندرية.

نقضي النهار في حديقة القصر ولا نخرج منها تقريبا، نلعب بالكرة أو الإستغماية أو نط الحبل، وفي حالة المطر نظل داخل القصر ونلعب ألعابا اجتماعية، كما يطلقون عليها وهي عبارة عن مسابقات في المعلومات إلى جانب لعبة الكوتشينة والدومينو.

أما في الصيف فالاتجاه نحو برج العرب في الساحل الشمالي أيام أن

كان هذا الساحل الشمالي بكرا لم تطأه أقدام المستثمرين بعد، ولا يرتاد شواطئه إلا بعض الأجانب. لم يكن يوجد به سوى بعض البيوت الصغيرة المتناثرة البعيدة عن بعضها ومثلما الحال في منطقة "إيكنج مريوت" لكل بيت منها بئر ومروحة عالية ضخمة لإستخراج المياه الجوفية، فلم تكن المياه ولا الكهرباء قد وصلتا بعد إلى الساحل الشمالي، والذي كان شبه مهجور وليست فيه قرية واحدة من كل هذه القرى السياحية المنتشرة حاليا.

دار الراهبات في الساحل الشمالي في منطقة برج العرب عبارة عن قصر ضخم من ثلاثة طوابق ومحاط بحديقة كبيرة جدا ذات أسوار مرتفعة يشبه قصور العصور الوسطى في فرنسا. القصر لا يبعد كثيرا عن شاطئ البحر. منظر البحر من سطح القصر يأخذ اللب، آية في الروعة والجمال بلونه الزمردي ومياهه الصافية الرقراقة، أما الرمال فهي ناعمة ملساء حبيباتها رقيقة جدا تنساب من بين الأصابع بسرعة رهيبة.

تتركنا الراهبات ننزل البحر لنتعلم السباحة تحت إشراف مدرسة التربية البدنية. لعبتنا المفضلة هي إلقاء قطع النقود في البحر الهادئ الساكن كالحصيرة أمامنا، ونلعب اللعبة الشهيرة "ملك والّا كتابة" من شدة شفافية المياه ونقاوة الرمال في البحر.

أحيانا نذهب في الصيف إلى مرسى مطروح وننزل ضيوفا عند دار راهبات سان جوزيف بالقرب من فندق "بوسيت" المشهور. في مطروح الرحلة تستمر أسبوعا كاملا، نذهب بالأتوبيس المدرسي وتتقاسم كل

ثلاث تلميذات في غرفة. نتمتع بحرية أكثر في مرسى مطروح ونستطيع أن "نزوغ" من المراقبة الصارمة نهارا ونسبح في البحر المخصص لرواد فندق بوسيت، ونترك رواد الفندق من الشبان يعاكسوننا ونتبادل مع بعضهم بعضًا الأحاديث والهزار الخفيف والضحك.

أما في الليل فالراهبات يغلقن علينا أبواب الغرف بالمفتاح من الخارج حتى ننام ولا نخرج، وعلى الرغم من حبستنا في الغرف كنا نسهر حتى الفجر نرقص ونغني ونحكي حكايات ومغامرات عاطفية نخترعها ونحكيها لبعضنا وكل واحدة منا تعرف أنها كلها حكايات من نسج الخيال.

كنت أفضّل برج العرب على مرسى مطروح، لأن البحر أجمل بكثير في برج العرب، ولأننا نستأذن من الراهبات للذهاب إلى سوق البلد التي لا تبعد كثيرا عن القصر بحجة شراء البلحَ السماني الأصفر اللذيذ. والحقيقة أننا لم نكن نذهب إلى السوق ولكن إلى مزارع البلح الواسعة القريبة من القصر والتي يملكها البدو. نتسلق النخلة برشاقة حتى نصل إلى سباطة البلح ونهزها بشدة فيتساقط البلح وننزل بسرعة وبخفة، نلم البلح من تحت النخلة ونعود إلى القصر وندعي أننا اشترينا البلح بسعر رخيص جدا.

ذات مرة ذهبت أنا وزميلتي الشقراء الإيطالية الجميلة سيلفانا "لشراء البلح"، وتسلقت كل واحدة منا نخلة وأخذنا نهز السباطة بقوة ليتساقط البلح، ولكن فجأة أحسست بجذع النخلة يهتز بشدة تحتي فنظرت إلى أسفل، وإذا بشاب بدوي نحيل وطويل القامة يهز جذع النخلة بكل قواه

ليسقطني أنا وليس البلح من فوق النخلة وهو يصرخ بأعلى صوته:

– انزلي يابنت الحرامية إنت وهي... والله العظيم لنكسر عضامكم بالنابوت دا...

أخذنا نتوسل إليه أن يتركنا ننزل بهدوء ولن نعود أبدا لنسرق البلح من مزرعته. وتظاهر الشاب بأنه سيسامحنا المرة دي وتركنا ننزل من أعلى النخلة. ولكن ما إن لمست أقدامنا الأرض حتى انهال عليّ أنا أولا بالنبوت ثم استدار ليضرب سيلفانا، وفوجئ الشاب بهذه البنت الخوجاية الرائعة الجمال وهي تهبط عليه من السماء، شهق في وجهها قائلا: "يا بوي دي جنية دي والا إيه... دي بدر مصور يا بوي".

هجم عليها متظاهرا بأنه يريد أن يضربها ولكنه في الحقيقة احتضنها وأخذ يقبلها بعنف وشراهة ثم طرحها أرضا وقفز فوقها، وخيل إليّ أنه تحول فجأة إلى مارد متوحش ذي قوة فولاذية.

حاولت سيلفانا أن تتخلص منه وحاولت أنا بكل قوتي أن أزيحه عنها ولكنه وكزني في جنبي ففقدت توازني ووقعت على الأرض. أدركت خطورة الموقف فنهضت مسرعة وجريت في كل اتجاه أبحث عن أي شيء أنقذ به صاحبتي المسكينة، فرأيت "سباطة" بلح ضخمة فارغة تحت جذع نخلة أمسكتها من طرفها ورفعتها بكل قوتي ورجعت بها نحو الجسد المتصلب فوق الفتاة وأخذت أضربه بها بعنف حتى أوقعته على الأرض منكفئا على وجهه.

نهضت سيلفانا بسرعة وألقيت أنا فوق الشاب المقلوب السباطة الثقيلة وأسلمنا سيقاننا للريح بأقصى استطاعتنا حتى وصلنا إلى قصر الراهبات بسلام. بعد هذه الواقعة لم نعد أبدا إلى المزرعة لسرقة البلح بل كنا نذهب بالفعل إلى السوق ونشتري البلح السماني بثمن بخس. وفي إحدى المرات أثناء عودتنا من السوق قابلتنا غجرية وعرضت علينا أن تشوف لنا البخت وتضرب الودع على أن نعطيها قرش صاغ عن كل واحدة فينا. ووافقنا وبدأت تقول لكل واحدة فينا عن العريس المرتقب الذي سيأتي بعد "ثلاث نقط". وأخذت أنا أضحك وأسخر من كلامها فنظرت إلي نظرة مطوّلة وقالت لي وكأنها تقرأ من صك مكتوب:

"إنت يا حبة عيني حاتقاسي وتبكي عينيكي
العيون عليكي والحسّاد حواليكي
السهم حايصيب قلبك يا حسرة عليكي
حبيبك حا يغدر بيكي بعد ما يهنّيكي
حاتشوفي معاه نعيم ما تحلمش بيه عينيكي
حاتلفّي معاه الدنيا والأنوار حواليكي
حا يلبّسك الحرير الهندي والدهب واللولي في إيديكي
حا تطلعي سلم عالي وماحد حا يقدر عليكي
وبعد الهنا والعز الدنيا حا تلف بيكي
لكن حا تعيشي كتير وتشوفي أولاد أولادك حواليكي"

تعجبت من تلقائية الغجرية والسجع في كلامها و لم أصدق أنها تقرأ الودع وأردت أن أختبرها فقلت لها: "عيدي اللي قلتيه من تاني"، نظرت لي بتحدٍ واستنكار ورددت ما قالته بسرعة رهيبة وأنا فاغرة فاهي من الدهشة!

بعد عودتي من هذه الرحلة استرجعت كلام الغجرية ودوَّنته في مفكرة صغيرة اعتدت أن أكتب فيها خواطري وأنا مراهقة. بعد أكثر من أربعين سنة، وقعت في يدي هذه المفكرة وتعجبت من نبوءة الغجرية التي تحققت بكل حذافيرها!

* * *

في سنوات المراهقة كنا محرومين من الاختلاط بالشبان رغم أننا في مدرسة أجنبية، ولكنها مخصصة للبنات فقط، وكل المدرسات من الراهبات. أما في الأسرة فقد كنت محاطة أيضا بالبنات شقيقاتي وبنات الجيران وبنات خالاتي وأخوالي وبنات أعمامي وعماتي، معظم الأسر حولنا خلفتها بنات، إلا اثنين من أعمامي حباهما الله بخلفة الصبيان حتى إن كل منهما رزق بعشرة صبيان وبنتين فقط. أما عمي الثالث فقد كانت خلفته كلها بنات، مثل أبي، فيما عدا ولد وحيد.

لم أكن أرى هؤلاء الصبيان، أولاد أعمامي، إلا في الصيف فقط لأننا كنا نقضي شهري الصيف معا في مصيف المندرة، القريب من قصر الملك في المنتزة، حيث اشترى عمي أبو البنات كابينة ضخمة بالقرب من شريط السكة الحديد في المندرة القبلية لقضاء الصيف فيها. أما أعمامي الاثنان وكذلك أبي فقد كانوا يستأجرون كل صيف بيتًا للمصيف في المندرة البحرية، ويختارون بيوتا متجاورة حتى نكون قريبين من بعضنا وغير بعيدين عن كابينة عمنا أبو البنات ويلعب الأولاد معا. عدد الأولاد والبنات يفوق الثلاثين، أكبرهم سنا في السادسة عشر وأصغرهم رضيعا في اللفّة، عدد البنات أكثر من عدد الصبيان إلا أن معظم الصبيان أكبر من البنات، مما جعل جدتي لأبي تفرض عدم الاختلاط.

لم أعبأ بتحذيرات جدتي، وعلى الرغم من أن البنات كن يفضلن الجلوس في حلقة واسعة حول جدتنا لسماع حكاياتها الساذجة فإنني كنت أفضل الانضمام لشلة الصبيان رغم تفاوت أعمارنا وألعب معهم.

معظم الألعاب مع الصبيان فيها حركة وأحيانا عنف مثل التسابق في تسلق النخل أو التسابق في التدحرج من فوق تلال الرمال الناعمة أمام الكابينة أو لعب الكرة. وكان لعبي المستمر مع الصبيان يثير حفيظة البنات ضدي، بنات عمي وشقيقاتي، فكُن يعايرونني بقولهن "يابتاعة الصبيان". بالفعل كنت أفضل اللعب والحديث والتعامل مع الصبيان على البنات، بل لم أكن أحب كلام البنات في الأمور التي أجدها تافهة مثل اللعب بالعرائس والفساتين والموضة وتسريح الشعر وتقليم الأظافر والعرايس والعرسان والزواج والأفراح. كنت وما زلت حتى الآن لا أميل لهذا النوع من الكلام والاهتمامات الهايفة وأفضل المجالس المختلطة بين البنات والصبيان، وفيما بعد بين الرجال والنساء حتى لا ينزلق الحديث إلى مثل هذه الأمور النسوية البحتة.

لم تستمر الحال في الاختلاط بأولاد عمي في المصيف إلا بضع سنوات ربما سبع سنوات على الأكثر وسرعان ما وقع خلاف بين أبي وأحد أعمامي فانقسمت العائلة الكبيرة، وتفرقت فلم نعد نقضي الإجازات مع بعضنا، خاصة أنه في صيف السنة الأخيرة من المصيف انتشر وباء الكوليرا فخشي أعمامي علينا من العدوى فيما بيننا في تجمعنا هذا، خاصة أننا كنا نأكل التوت والبلح والتين المهيتر رأسا من الشجر دون غسيل، وفضّلوا العودة إلى بيوتنا في الإسكندرية.

انقطعت الزيارات بيننا وبين أعمامنا، إلا فيما ندر وفي المناسبات والأعياد فقط، لأن أمي كانت تفضل زيارة أهلها على زيارة أهل زوجها

ولم يكن أبي لديه الوقت للاهتمام بهذه الأمور والحفاظ على صلة الرحم مع إخوته. وبقيت جدتي لأبي التي عاشت حتى قاربت المائة عام، هي همزة الوصل بيننا وبين أعمامنا وأولادهم.

ظلت سنوات المراهقة إذن مؤنثة إلى أبعد مدى فيما عدا إعجابي الشديد وتعلقي المبالغ فيه بالمطرب فريد الأطرش، والذي كنت أعتبره فتى أحلامي. حب بلا أمل، كما كنت أقول لنفسي وكنت أغني معه بدموع عينية:

باحب من غيـر أمل   وقلبي راضي وسعيد
وإن طال عليّ الأمد   أنت الحبيب الوحيـد

استحوذ هـذا الوهـم علي عقلي ووجداني، وكنت أقضي الساعات الطوال أستمع إلى أغانيـة وأضيِّع كل وقتي في البحث عن صوته في المحطات الإذاعية. كنت أضيِّع كل مصروفي في شراء صور فريد الأطرش والمجلات التي تنشر صوره وأحاديثه وتتبع أخباره مثل مجلات الفن والكواكب والموعد. قضيت الساعات الطوال أكتب كلمات أغانيه وسيناريوهات أفلامه في كشاكيل ألصق فيها صوره التي أقطعها من الجرائد والمجلات. وما زلت أحتفظ بهذه الكراسات حتى الآن. كنت أشتري من مصروفي تذاكر السينما لي ولشقيقاتي أو لأخي ليصاحبوني إلى السينما لمشاهدة كل أفلامه السينمائية على حسابي، فقد كان من المستحيل في ذلك العهد أن تذهب فتاة وحدها إلى السينما.

لذا كنت أتحايل على أخي الأصغر ليذهب معي إلى دور السينما في بعض الأحياء الشعبية التي تعرض أفلام فريد الأطرش عرضا ثانيا وثالثا، وبالطبع يستغل أخي الموقف ويشترط أن أشتري له سندوتشات ومشروبًا ولبًا وسوداني ليتسلى أثناء العرض.بما أنه يشاهد معي هذه الأفلام عشرات المرات.

صدمت صدمة شديدة في غرامي بفريد الأطرش عندما جاء إلى الإسكندرية مع مجموعة كبيرة من الفنانين لإحياء حفل خيري كبير في سينما "الهمبرا" تخصص إيراداته لإعادة تسليح الجيش المصري، في الحملة التي كانت تقودها كوكب الشرق أم كلثوم، بعد العدوان الثلاثي على مصر ولإعادة إعمار بورسعيد ومدن القنال وللاستعداد لمحاربة العدو الصهيوني.

بالطبع قضيت أيامًا وليالي أحلم برؤية فريد الأطرش وأتحايل على أبي حتى يوافق على أن أذهب إلى الحفلة وأسهر خارج البيت لأول مرة في حياتي، رغم أنني كنت أقترب من السادسة عشر من عمري. وأخيرا وافق أبي على أن أذهب مع جيراننا في سيارتهم وأعود معهم، (أسرة مهندس كهربائي مكونة من زوجته وابنتيه).

كان الحفل طويلا واشترك فيه عدد كبير من الفنانين والفنانات، ولكنني لم أهتم بأن أسمع أو أرى أحدا منهم، كل اهتمامي مركز على حضور فريد الأطرش الذي لم يحضر إلا بعد منتصف الليل، وكنت أنتظر حضوره

بفارغ الصبر عند مدخل الفنانين وراء المسرح بعد أن أعطيت للحارس المختص جنيها كاملا من مصروفي ليتركني أقف في هذا المكان. ورأيت فريد الأطرش لأول ولآخر مرة في حياتي وليتني لم أره.

لقد دخل كواليس المسرح وهو يكاد يترنح، وأخذ يراجع مع الموسيقيين الوصلة التي كان سيؤديها وحين لمحني واقفة "مسنَّحة على الآخر وأبكي من التأثر والانفعال" قال بصوت عال: "وبعدين في الغم دا الليلة دي؟! ابعدوا العيِّلة دي من هنا".

غرس خنجرًا في قلبي، أصابني في مقتل. ابتعدت وأنا أشهق من الانفعال والألم. أول جرح لقلبي البض.

انهار الصرح الذي بنيته لحبي الأول.

ظللت أبكي أياما متواصلة على ضياع أملي. ولكني أدركت أنني كنت أعيش في وهم كبير وأفقت منه بعد طول معاناة. وهكذا شفيت من الحب من غير أمل. وإن كنت استمريت في إعجابي الشديد بألحان فريد الأطرش وموسيقاه حتى بعد زواجي، لدرجة أن زوجي كان يغار أحيانا منه. بكيت على فريد الأطرش بحرقه مرة ثانية عندما قرأت خبر وفاته وهو يعالج في باريس، كان الخبرمكتوبا بالبنط الأحمر العريض في جريدة "النهار اللبنانية" في أحد أيام ديسمبر 1973، وكنت أيامها أعمل مترجمة في المكتب الثقافي للسفارة السعودية في جنيف، وما إن وقعت عيناي على الخبر حتى صرخت وانفجرت باكية.

هرع الدبلوماسي السعودي، مدير المكتب، يستطلع سبب صراخي وبكائي فقال له ساعي المكتب: "فريد الأطرش مات". تأثر الرجل ببكائي وسألني بجدية: "هو كان قريبك؟"، أجبته وسط دموعي: "كان أكتر من قريبي..." ربت على كتفي بطيبة قلب قائلا: "خذي إجازة يومين واستريّحي في البيت".

وبالفعل غادرت المكتب وأنا في غاية الانفعال والتأثر، وبقيت يومين حزينة في البيت، وكاد زوجي يجن من الغيظ وهو يضرب كفا بكف ويقول: "أنا مش مصدق عينيه... بتبكي عليه ليه... أنا مش عارف كنتي بتحبي فيه إيه؟ دا شعره ملزق بالبرياتين وبقه تدخل فيه صينية بطاطس وبنطلونه واصل لنصف صدره!".

عودة لذكريات سنوات الطفولة والمراهقة، أجمل سنوات العمر على الرغم من عدم تمتعي بالحرية التي تتمتع بها البنات حاليا، على الرغم من أن بنات الأيام دي محجبات وكنا نحن غير محجبات، ولكننا كنا ملتزمات بأخلاقيات ومبادئ ومفاهيم عن الحياء والأدب واللياقة والذوق غير موجودة حاليا عند بنات الموبايل والفيس بوك. كذلك لم نكن نمارس أي نوع من أنواع الرياضة، فلم تكن النوادي الرياضية معروفة أو منتشرة فيما عدا نادي سبورتنج وكان معظم أعضائه من الأجانب أو من الباشوات والبهوات وعلية القوم.

وفيما عدا السباحة في البحر صيفا لم أمارس أي نوع من أنواع الرياضة في طفولتي أو مراهقتي، فقد كانت ممارسة الرياضة حكرا على الصبيان.

كل أوقات فراغي أقضيها في القراءة سواء الروايات الفرنسية أو العربية، التي أستعيرها من مكتبة المدرسة أو من المركز الثقافي الفرنسي أو القصص والروايات التي يشتريها أخي من مصروفه. قرأت معظم مؤلفات فريد أبو حديد ومحمد سعيد العريان وجورجي زيدان. وجدت نفسي في بطلات رواياتهم التاريخية مثل "ابنة المملوك" لسعيد العريان و"فتاة غسان" و"غادة كربلاء" لجورجي زيدان. كما وجدت نفسي أيضا في بطلات الروايات الفرنسية خاصة روايات فيكتور هيجو "أحدب نوتردام" و"البؤساء" و"التأملات" وورويات إسكندر ديما الأب والابن.

حياتي كانت خاوية من أي مغامرات عاطفية مثلي مثل معظم البنات في سني في ذلك العهد. وجدت متنفسا في المراسلة عبر صفحة التعارف في إحدى المجلات، وكانت أيامها المراسلة "مودة" شائعة بين الشباب والشابات، قرأت إعلانا من شاب من جبهة التحرير الجزائرية "يرغب في مراسلة فتاة مصرية تجيد الفرنسية ليتبادل معها رسائل صداقة ربما تخفف عنه قسوة ظروف الحرب والمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي".

أعجبني هذا الإعلان ووجد هوى في نفسي خاصة أنني، مثل بقية أبناء جيلي في ذلك الوقت، كنا متحمسين لقضية المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد قرأت عدة مقالات لكبار المفكرين الفرنسيين الذين كتبوا بالفرنسية عن ضرورة منح الجزائريين استقلالهم وضرورة انسحاب فرنسا من الجزائر. كانت أخبار المقاومة الجزائرية تملأ الصحف والمجلات، وقضية المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد على كل

لسان، وقد جسدت الممثلة ماجدة الصباحي شخصيتها في فيلم سينمائي ناجح.

في ظل تلك الأجواء المؤيدة لكل ما هو جزائري، بدأت أراسل هذا الشاب الذي كتب لي خطابات رقيقة بالفرنسية على ورق يحمل شعار جبهة المقاومة الجزائرية. وأرسل لي هذا الشاب عدة صور له وهوفي مخابئ في الجبال مع زملائه من أعضاء المقاومة. واستمرت المراسلات بيننا سنة كاملة وتطورت خطاباته إلى خطابات غرامية بعد أن أرسلت له صورتي وطلب مني الزواج، وأن أنتظره ليأتي لخطبتي بعد انتهاء حرب التحرير في الجزائر. ولكن فجأة انقطعت خطاباته ولا أدري إن كان قد استشهد أو ضاق ذرعا بهذا الحب الأفلاطوني عبر الخطابات المطولة.

حزنت عليه بعض الوقت ولكني سرعان ما انشغلت بامتحاناتي، لأننا كنا نستعد لدخول امتحانات البكالوريا الفرنسية وفي نفس الوقت الثانوية العامة المصرية.

ووفقني الله وتكللت جهودي بالنجاح الباهر، حيث نجحت في الثانوية العامة على النظام المصري وكذلك في البكالوريا الفرنسية، حيث جاء ترتيبي الأولى على جميع المدارس الفرنسية في جمهورية مصر.

* * *

أمواج الشباب

بدأت أستعد للالتحاق بالجامعة رغم معارضة أمي الشديدة لهذا القرار لأنها كانت تريد تزويجي بأسرع ما يمكن حيث صبرت عليّ، حسب قولها، أكثر من اللازم بعد أن ضيعت على نفسي فرصًا كثيرة برفضي العرسان الذين تقدموا لخطبتي ورفضتهم جميعا لحين الحصول على البكالوريا. وقد اقتربت من سن العشرين وجميع بنات الأسرة تزوجن إلا أنا فأصبحت في نظر أمي "بايرة".

لم ألق اهتماما كبيرا لمعارضة أمي، فقد كان أبي دائما في صفي ووافق على التحاقي بالجامعة وأعطاني مصروفات التسجيل ستة عشر جنيها كاملة. التحقت بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية قسم اللغة الفرنسية وبما أني كنت الأولى في البكالوريا الفرنسية على الجمهورية فقد استرديت

المصروفات التي سددتها بل وحصلت أيضا على منحة تفوق، واستمرت تلك المنحة حتى تخرجي في الجامعة. كنت أحصل على منحة تفوق تبلغ اثنى عشر جنيها شهريا، استفدت منها خلال السنوات الأربع لدراستي الجامعية إلى جانب دخلي من التدريس في مدرسة سان جوزيف بمحرم بك، اثناء السنوات الأربع لدراستي الجامعية، وكذلك دخلي من بعض الدروس الخصوصية في مجموعات تقوية بنفس المدرسة. ووصل إجمالي دخلي إلى أربعين جنيها شهريا.

وكان هذا المبلغ ضخما بالنسبة للأسعار في ذلك الوقت، أدخر نصفه تقريبا وأصرف النصف الآخر في شراء كل لوازمي من ملابس وكتب خارجية فرنسية أقرأها بشغف مما ساعد في تفوقي الجامعي، وأثار دهشة أساتذتي، فقد كانت معلوماتي أحدث وأدق من المعلومات العتيقة التي كانوا يملونها علينا والتي ترجع إلى كتب ومراجع قديمة.

وفي الجامعة، التقيت بزميل من نفس القسم بالكلية ونشأت بيننا صداقة قوية. حين التقيت به كان في السنة الثانية بالقسم، بعد أن رسب في سنة أولى وأعاد السنة قبل انتقاله إلى السنة الثانية بثلاث مواد، أي أنه مخضرم في القسم وعنده خبرة به، ويعرف كل الأساتذة والمعيدين والطلبة والطالبات. قال لي إنه يعرفني لأنه سمع عني وقرأ اسمي في كشف الطلبة الجدد ويعرف أني أول الدفعة الجديدة.

كان ماهرا في تقليد الأساتذة والطالبات خاصة خريجات مدرسة "نوتردام دي سيون"، ومعظمهن من عائلات ثرية ومرفهات ويرتدين

أحدث الأزياء والموضات من باريس، وينطقن الراء غينا ويتعالين على الطلبة خاصة الشبان خريجي المدارس الحكومية المصرية.

طلبة قسم اللغة الفرنسية منقسمون إلى قسمين قسم خريجي المدارس الأجنبية الفرنسية ومعظمهم من البنات المتفوقات، وقسم من خريجي المدارس الحكومية ومعظمهم من الطلبة الشبان. الطلبة من خريجي المدارس الحكومية يعانون من مشكلة نطق اللغة الفرنسية والحديث بها، على الرغم من أنهم درسوها كلغة أولى في المدارس الحكومية لمدة ست سنوات أو أكثر ولكنهم لم يتحدثوا بها أبدا، وهذه هي المشكلة الحقيقية في تعليم اللغات في المدارس الحكومية في مصر. أما الطامة الكبرى بالنسبة لهم فكانت محاضرات اللغة اللاتينية.

يشكو زميلي هذا باستمرار من صعوبة استيعاب قواعد اللغة اللاتينية وصعوبة تصاريف الأفعال ويقلد مدرس اللاتيني الذي يتساءل في دهشة لماذا لا يفهم الطلبة هذه اللغة الجميلة!

صعب عليّ، وعرضت عليه أن أساعده في استيعاب قواعد اللغة اللاتينية، خاصة أنني نجحت في امتحان اللاتيني بتفوق وحصلت على تقدير امتياز. فرح زميلي باقتراحي و لم يصدق أنني على استعداد لإعطائه دروسا مجانية، فلم نكن ماديين مثل شباب الجيل الحالي. وتواعدنا على أن نلتقي في مكتبة الكلية لأعطيه دروسًا لاتيني.

وكانت البداية!

ولو كنت أعرف النهاية ما كنت بدأت!

* * *

في منتصف السنة الأولى لالتحاقي بالجامعة رقد أبي مريضا بالتهاب في البروستاتا، ثم أجريت له عملية في مستشفى حكومي ولم تنجح العملية وظل يعاني من آثارها الفاشلة عدة سنوات. لم يعد باستطاعته أن يدير أعماله مثلما كان يفعل من قبل. ترك أخي المدرسة ونزل للشغل في مصنع أبي وليتولى الصرف على البيت والأسرة بدلا من أبي.

كنت متعلقة بأبي تعلقا شديدا وأكن له حبا واحتراما فوق الحد، لأنه كان يخصني بحبه ورعايته ويعاملني معاملة خاصة دون إخوتي، ويفخر بي وبتفوقي الدراسي في مجالس الأسرة والأهل، وكان يأخذني معه في سيارته "الستروين" الفرنسية الصنع كل يوم أحد، يوم إجازته الذي يصادف أيضا يوم إجازتي من المدرسة الأجنبية، ونقوم كل مرة بنزهة بمفردنا إلى حديقة السيوف أو حديقة مسجد سيدي بشر وأحيانا كان يأخذني ونذهب بالسيارة حتى قرية "الحمام" في طريق مرسى مطروح، حيث له عدة زبائن يزورهم من حين لآخر لتحصيل ثمن البضاعة التي اشتروها منه. ومعظم هؤلاء الزبائن من البدو العرب الذين يقطنون غرب الإسكندرية يرحبون بنا أيما ترحيب، ويذبحون لنا غزالاً صغيرًا ويشوونه على الفحم في الخلاء، ونحن جلوس في دائرة حول النار ورائحة اللحم المشوي تزكم أنوفنا، ثم نأكل لحم الغزال المشوي بأيدينا... لم أذق في حياتي لحما ألذ وأطيب من لحم الغزال المشوي.

تأثرت جدا بمرض أبي ورقدته في سريره، هو الذي كان كله نشاطًا وحيوية. أردت أن أساعد الأسرة وأتحمل بعض مصاريفها حتى يعود أخي لإكمال دراسته.

ذهبت إلى الراهبات أسألهن النصيحة فوعدتني رئيسة الراهبات أن تجد لي عملا بسيطا يدر عليّ بعض المال لمساعدة أسرتي. وبالفعل كانت مدرسة سان جوزيف بمحرم بك، والتي كنت تلميذة بها لمدة سنتين بعد الإعدادية وحصلت منها على الجزء الأول من البكالوريا الفرنسية، كانت هذه المدرسة في حاجة إلى مدرسة للغة الفرنسية لتلميذات السنة السادسة الابتدائية، فاقترحت عليّ رئيسة الراهبات أن ألتحق بهذه الوظيفة فوافقت على الفور. فرحتُ جدا بالوظيفة وحصلت على أول مرتب من عرق جبيني، ستة جنيهات مصرية.

أول شيء أشتريته من مرتبي كان قطعة قماش لأمي دفعت فيها جنيهين كاملين أي ثلث مرتبي، وكانت فرحة أمي بهديتي كبيرة وكانت فرحتي أنا أكبر لشعوري بأهميتي وبمقدرتي على إسعاد أمي.

بذلت مجهودا جبارا للتوفيق بين دراستي الجامعية ووظيفتي كمدرسة ابتدائي. خمسة أيام في الإسبوع أستيقظ في السابعة صباحا أذهب إلى مدرسة سان جوزيف في محرم بك من الثامنة صباحا حتى العاشرة والنصف، ثم أجري وأستقل الأتوبيس إلى الكلية في الشاطبي لألحق المحاضرة التي تبدأ في الحادية عشرة والربع حتى الواحدة ظهرا، ثم أعود بالأتوبيس مرة أخرى لمدرسة سان جوزيف في محرم بك من الواحدة والنصف حتى الثالثة، ثم أعطي دروس تقوية لمجموعة من التلميذات المتعثرات في الدراسة. وفي الرابعة والنصف، أرجع إلى موقف الأتوبيس وأستقله إلى الكلية وأحضر المحاضرات حتى الثامنة مساء.

في السنة التالية ارتفع مرتبي إلى إثني عشر جنيها، إضافة إلى نفس المبلغ عن مجموعة التقوية، إلى جانب منحة التفوق من الكلية. واعتقدت أنه أصبح بمقدوري أن أفي بمصاريف أسرتنا، ولكن أمي قالت لي باستهزاء:

"خلى لك فلوسك يا فالحة، على الأقل ينفعوكي تجهزي بيهم نفسك، أبوكي خلاص ما يقدرشي يتحمل مصاريف جوازك. لو كنتي سمعتي كلامي واتجوزت كان جّهزك وهو في عزّه زي ما جّهز إخواتك الاثنين. خلي العناد والتعليم ينفعوكي!".

ورفض أخي ترك العمل في مصنع أبي والعودة للدراسة.

* * *

في الحقيقة لم أستفد كثيرا من الدراسة في قسم اللغة الفرنسية بجامعة الإسكندرية فقد كان مستوى المحاضرات ضحلاً جدا بالنسبة لما درسناه، نحن خريجات المدارس الأجنبية الفرنسية في البكالوريا، بل إن مستوانا كان يفوق مستوى مدرسينا من المصريين.

في السنة الثانية، وبعد تأميم الرئيس جمال عبد الناصر قناة السويس، ثم إعلانه مجانية التعليم الجامعي في عام 1961، غادر كل المدرسين الفرنسيين مصر بعد أن استقالوا من الجامعة. وبعد سفر المدرسين الأجانب تم استبدالهم بمدرسين مصريين. وبعض هؤلاء المدرسين المصريين يأتون من القاهرة للتدريس لنا في جامعة الإسكندرية نظرا للعجز في مدرسي اللغة الفرنسية أو ربما لأسباب أخرى لم نكن ندركها في ذلك الوقت، ولكنها في الغالب أسباب ترجع لما يطلق عليه: "الوساطة والمحسوبية". ولكن المهم في الأمر أن هؤلاء المدرسين المصريين الذين كنا نطلق عليهم "بروفيسور تاكسي"، لأنهم يأتون مسرعين ويعطوننا المحاضرة على عجل ويرجعون للقاهرة في نفس اليوم سريعا للتدريس صباح اليوم التالي في جامعاتهم بالقاهرة، فكانوا مثل التاكسي "رايح جاي" بأقصى سرعة ليجمع مكسبًا أكبر، ولكن المهم في الموضوع أنهم لم يكونوا متمكنين لا من اللغة الفرنسية ولا من آدابها، ومحاضراتهم مجرد حصة إملاء يقوم المدرس بقراءة محاضرته من كراسة معه، ويتوقف عن الإلقاء بعد كل جملة ليعطينا فرصة لنكتب حرفيا ما يقوله، ولا يترك لنا مجالاً للمناقشة أو النقد أو التعبير عن الرأي، على غير ما تعودنا في مدارسنا الأجنبية، حيث كانت المناقشة مفتوحة وكنا ننتقد النص الأدبي ونقارنه بغيره من الكتابات

ونحلل أسلوب الكاتب ونفند أسانيده ونحدد ما يميز أسلوب كل أديب ونقارن أسلوبه بأسلوب غيره من الأدباء.

أما في كلية آداب إسكندرية فقد كان التعليم تقليديا وعتيقا، فالطالب لا يفتح فمه والأستاذ يملي ولا يسمع؛ على الرغم من أن عددنا ليس كبيرا فلم يتجاوز خمسين طالبا وطالبة في المدرج. ولم يكن في برامج التدريس ما يطلق عليه "سمينار" أي تطبيق لما ندرس ولا معمل للغات حتى نتحدث اللغة التي ندرسها.

* * *

أمواج الحب

عرفت الحب لأول مرة في الجامعة! الحب الأول!

الحب من أول سنة جامعية، أول نظرة وأول لفتة، وأول تبادل لكراسة المحاضرات، وأول فنجان شاي في كافتيريا الكلية، وأول ميعاد خارج الكلية وأول همسة وأول لمسة إيد وأول قبلة على الأيدي!

رأيته لأول مرة في أول رحلة للكلية بعد شهرين من بداية العام الجامعي، رحلة بحرية على ظهر سفينة في جولة حتى "الرملة البيضا". شاب أسمر خفيف الدم، نحيف جدا ومتوسط الطول، ضحكت من قلبي على قفشاته وخاصة عندما بدأ يقلد أساتذه القسم تقليدا دقيقا في جميع حركاتهم ولزماتهم في الشرح والكلام وكأنه شارلي شابلن.

جذبني إليه منذ اللقاء الأول بيننا، أثناء الرحلة الأولى الخارجية لي مع الكلية، وبعد ذلك لم يتركني داخل الكلية. عرف كيف يشدني إليه بلفتاته المهذبة واهتمامه بي وعدم مغادرته أي مكان أتواجد فيه، وانتظاره لخروجي من قاعة المحاضرات ليتقدم لتحيتي وسؤالي إن كنت أحتاج لأي خدمة يقدمها لي. يقف باستمرار بالقرب من المجموعة التي أقف فيها ويلاحقني بنظراته الهائمة وإيماءاته بالتحية من بعيد. ثم بدأ يتشجع أكثر ويقترب مني عندما أكون بمفردي ويبادلني بعض الجمل القصيرة ويثني دائما على مظهري المحتشم وذوقي الرقيق في اختيار ملابسي.

أثار إعجابي ببساطته وحيويته وثقافته الإسلامية، فهو ابن شيخ أزهري، إمام لمسجد بسيدي بشر. بدأت أنا أيضا أهتم به وأسأله عن أحواله وعرفت أنه يرسب باستمرار في مادة اللاتيني، لأنه لا يستوعب قواعدها فعرضت عليه أن أساعده في "فك طلاسمها" كما يقول عنها. وبالفعل بدأت أعطيه دروسا في اللغة اللاتينية وقواعدها. نجلس متجاورين في مكتبة الكلية وأشرح له بهدوء وصبر ما صعب عليه فهمه، ونجحت فيما لم ينجح فيه مدرسو اللاتيني بالكلية، فقد بدأ زميلي يفهم تركيبات الجمل ويحفظ تصريفات الأفعال ويترجم النصوص اللاتينية إلى الفرنسية والعكس وهو ما كنا نفعله في محاضرات اللاتيني.

توطدت أواصر الصداقة بيني وبين زميل اللاتيني فعرض عليَّ أن يقوم بنقل المحاضرات، التي تفوتني أثناء عملي في مدرسة سان جوزيف، من كراسة زميلتي في الكلية، ماري لويز، في نظير إعطائي له دروس اللاتيني. وافقت على اقتراحه على الفور ليريحني من نقل المحاضرات.

وصديقتي ماري لويز هذه هي زميلتي من أيام الدراسة الابتدائية في مدرسة السبع بنات، وقد رافقتني في جميع المراحل الدراسية بعد ذلك حتى الجامعة. وكانت نشيطة جدا وتحضر جميع المحاضرات في الكلية وتدوِّنها في كراسة محاضراتها وتعطيني الكراسة في نهاية اليوم فأخذها معي إلى البيت وأسهر لنقل المحاضرات بخط يدي حتى منتصف الليل، فلم نكن نعرف بعد ماكينات تصوير المستندات لتصوير كراسة المحاضرات، وذلك قبل أن يتولى زميل اللاتيني القيام بهذه المهمة في نقل المحاضرات من كراسة ماري لويز لكراستي.

و لم أجد صعوبة كبيرة في استيعاب ما تكتبه زميلتي ماري لويز وينقله لي زميل اللاتيني في كراسة محاضراتي. كل صباح، يعيد زميل اللاتيني لماري لويز كراسة محاضراتها ويحتفظ بكراستي ليسلمها لي في يدي حين حضوري للكلية ظهرا، وينتهز الفرصة ويضغط على يدي وهو يسلمني كراسة محاضراتي التي يضع بداخلها مظروفًا صغيرًا يكتب فيه كلمات أغنية مشهورة من أغاني أم كلثوم أو عبد الحليم حافظ يختارها بإمعان وذكاء للتعبير عما يشعر به نحوي مثل "حيَّرت قلبي معاك وأنا باداري وأخبي" أو "أول مرة تحب يا قلبي" أو: قولوا له... قولو له الحقيقة... باحبه باحبه من أول دقيقة".

تعلقت بزميل اللاتيني كما تعلق هو أيضا بي، وأصبحنا نقضي كل أوقات فراغنا معا داخل الكلية في الكافتيريا والردهات وخاصة في البارجولا في حديقة الكلية، وهي عبارة عن تكعيبات خشبية ذات فتوحات متشابكة وأسقف مغطاة بالنباتات الزاحفة الملتوية على بعضها

في تجمعات كثيفة، وبداخل التكعيبات توجد دكك خشبية كنا نجلس عليها للمذاكرة والاطلاع والدردشة.

أصبح منظرنا معا مألوفا في الكلية وتعرضنا لمعاكسات من بعض الزملاء وحتى الأساتذة المدرسين لاحظوا وجودنا المستمر معا، وأذكر مرة أن الدكتور لطفي فام، الذي كان رئيس قسم اللغة الفرنسية حينذاك، دخل مرة قاعة المحاضرات بعد امتحانات نصف العام وكنا جميعا ننتظر أن يبلغنا نتيجة الامتحانات. وسألنا بصوت عال: "مين الطالبة فوزية العشماوي؟" واندهشت من سؤاله المفاجئ، لماذا يسأل عني أنا بالذات؟ هل لأني لا أواظب على حضور محاضراته الصباحية التي لم أكن أستطيع حضورها بسبب عملي الصباحي في مدرسة سان جوزيف؟ وقفت لأعرِّفه بنفسي وأنا أرتجف، فنظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة ماكرة قائلا: "آه، هو إنت؟ أنا باشوفك دايما واقفة مع زميلك خارج المحاضرة، وأول مرة أشوفك داخل المحاضرة... لكن والله برافو عليكي لأنك حصلت على تقدير ممتاز في كل مواد التيرم الأول".

بالطبع تضايقت من ملاحظة رئيس القسم على الرغم من ثنائه على تفوقي، وقررت أن أتجنب الوقوف المستمر مع زميل اللاتيني في الردهات والمكتبة داخل الكلية. وانتهز زميلي الفرصة ونجح في إقناعني بضرورة أن نتقابل خارج الكلية حفاظا على سمعتي. وبالفعل بدأنا أسلوبًا جديدًا للقاءاتنا، فيخرج هو من الكلية قبل بخمس أو عشر دقائق ويسير حتى الكورنيش القريب جدا من الكلية، ثم أتبعه أنا وألحق به عند شاطئ السلسلة، فنجلس على دكة من الدكك المتناثرة على جانبي السلسلة أمام البحر.

هذه السلسلة عبارة عن لسان أرضي داخل البحر تحيط به الأشجار على الجانبين، وتوجد على الصفين دكك خشبية يجلس عليها المشاة لتأمل منظر البحر من الجانبين. كانت هذه المنطقة من أجمل مناطق الإسكندرية قبل أن تستولي عليها القوات المسلحة وتغلقها وتجعلها منطقة عسكرية ممنوع الدخول فيها. نجلس بالساعات أمام البحر في السلسلة، أحيانا نذاكر وأحيانا أشرح له درس لاتيني، وأحيانا نقرأ معا كتابًا أو مقالاً أعجبنا وأحيانا نسرح ونلزم الصمت ونسرح في جمال وسحر الطبيعة وغموض البحر أمامنا.

ومرت سنوات الدراسة بسرعة رهيبة وكنا نفترق في الإجازة الصيفية، ولم يكن لديه تليفون في بيتهم فكان يرسل لي خطابات يحدد فيها مواعيد للقاء حسب ظروف عمله، لأنه كان يقوم ببعض الأعمال المهنية الخفيفة لادخار بعض النقود لاستكمال دراسته. وكنا نلتقي في نفس المكان في السلسلة، ولكن المكان في إجازة الصيف كان أكثر ازدحاما من أيام الدراسة وعدد الفضوليين متزايد ومعاكساتهم ومضايقاتهم لنا جعلتنا نبتعد عن السلسلة فأخذنا نرتاد "الكافتيريات" المنتشرة في الإسكندرية وخاصة كافتيريا "بدرو" في شارع سعد زغلول بالقرب من المنشية. ولقد وقع اختيارنا عليها لأنها كانت عبارة عن محل حلويات خارجي ولكن به ملحق غير ظاهر به حديقة جميلة بها أشجار وورود وموائد مصفوفة تحت الأشجار يجلس فيها العشاق بعيدا عن عيون الفضوليين.

واستمرت علاقتنا بريئة وطاهرة على الرغم من شعوري بالذنب لأنني في كل مرة أذهب للقاء زميل اللاتيني خلال الإجازة الصيفية أضطر

للكذب على أمي وأقول لها إنني ذاهبة للقاء صديقتي "عزة"، وهو الاسم الكودي الذي اخترته لزميلي اختصارا لاسمه "عبد العزيز" وكنا نستخدم هذا الاسم أنا وصديقاتي عندما نتحدث في التليفون أو أمام والدتي. والغريب أنني لم تكن لي صديقة اسمها عزة ولم تسألني أمي أبدا عن هذه الصديقة التي لم تزرني أبدا في البيت مثلما كانت تفعل بقية صديقاتي.

تخرج زميل اللاتيني وحصل على الليسانس بتقدير "جيد" وبدأ يبحث عن عمل في انتظار وصول خطاب التعيين أو التوزيع من إدارة القوى العاملة، وهو جهاز حكومي مختص بتوظيف جميع خريجي الجامعات المصرية وتوزيعهم على الوزارات والهيئات الحكومية وشركات القطاع العام. ووجد زميلي وظيفة مؤقتة كمدرس لغة فرنسية في مدرسة "الليسيه فرنسيه" بالشاطبي. أما أنا فكنت لا أزال طالبة في السنة الرابعة بالكلية. وبعد انتهاء عمله، يأتي زميل اللاتيني ينتظرني عند محطة الترام أمام كلية الآداب، فنستقل معا الترام الإسكندراني ذا الطابقين على غرار أتوبيسات لندن الشهيرة. نصعد إلى الطابق الأعلى ونجلس في مقدمة العربة ونعطي ظهرنا للجميع وأمامنا زجاج العربة الواسع المطل على أحياء الإسكندرية الجميلة من الشاطبي وحتى محطة الرمل ومنها إلى كافتيريا "بدرو".

استمريت في الدراسة بالكلية وفي العمل بالتدريس في مدرسة سان جوزيف بمحرم بك، على نفس الوتيرة طوال أربع سنوات ورغم تغيبي عن كثير من المحاضرات فإنني كنت أحصل على تقدير "جيد جدا" في بعض المواد و"ممتاز" في أكثر المواد، لذا احتفظت بمنحة التفوق طوال

أربع سنوات. والغريب أنني كنت أنجح في معظم المواد المنقولة مادتها من كراسة زميلتي ماري لويز بتقدير ممتاز بينما لا تحصل هي إلا على تقدير "جيد". وكانت تضحك بسذاجة ومودة وتقول "معلهش، المهم ننجح وبس".

أما زميل اللاتيني فلم يستمر طويلا في العمل بمدرسة الليسيه فرنسيه، لأن عقد العمل مؤقت وبدون ضمانات أو تأمينات اجتماعية، فقدم استقالته بمجرد استلام خطاب القوى العاملة بتعيينه في الوظيفة "الميري" كمدرس لغة فرنسية في المعهد الديني بدمنهور. وكان لزاما عليه تأدية الخدمة العسكرية قبل الانخراط في العمل في الوظيفه الحكومية، ولكن لحسن حظه تم إعفاؤه بقدرة قادرمن تأدية الخدمة العسكرية هو وجميع الشبان من مواليد عام 1941، وعرفنا فيما بعد أن هذا الإجراء إنما كان إكراما لـ "أشرف مروان"، المولود في نفس العام، والذي خطب منى، ابنة الرئيس جمال عبد الناصر، ويقال إن المشير عبد الحكيم عامر أصدر قرارا بإعفاء جميع مواليد عام 1941 من أداء الخدمة العسكرية حتى لا يؤدي أشرف مروان الخدمة العسكرية ويتم إعفاؤه منها. وجاء ذلك في مصلحتنا، أنا وزميل اللاتيني، فقد تشجع وتقدم يخطبني من أبي، قبل استلام وظيفته الحكومية، على الرغم من أنه لم يكن قد أعد نفسه ماديا للزواج، ولكنه خاف أن يوافق أبي على عريس تقدم لخطبتي وأنا في سنة الليسانس.

وحين سألني أبي أي العريسين أفضّل، لم أتردد في اختيار زميلي في

الجامعة رغم أنه غير مؤهل ماديا لتحمل متطلبات الزواج، ولكنه نجح في إقناع أبي بأن نكتفي بلبس "دبل" فقط لحين ميسرة، فوافق أبي رغم اعتراض أمي الشديد خاصة أن العريس الآخر كان ابن خالتها وعنده وظيفة وشقة وجاهزًا من كله حسب قولها.

تمت خطوبتنا في حفل صغير في شقتنا في شارع البحرية، واكتفينا بإخوتنا و لم ندع سوى بعض الأصدقاء المقربين، ولبسنا "الدبل" وعليها اسمي واسمه بحروف من ذهب، وكانت فرحتي بإتمام خطوبتي على من أحببته واخترته لاتقدر. وأعتقد أنه كان نوعا من التحدي.

تحدّيت أمي والمجتمع والتقاليد التي كانت تفرض على الفتاة الزواج من عريس يختاره لها والدها أو والدتها أو أحد من إخوتها الذكور و لم يكن شائعا أن تتزوج الفتاة ممن تختاره هي. وأذكر أن أحد أخوالي اندهش عندما علم بأن عريسي كان زميلي في الجامعة، وأنني كنت أعرفه قبل أن يتقدم لخطبتي من أبي، بل إن خالي هذا عاتب أبي لأنه وافق على ذلك و لم يجبرني على الزواج من العريس الآخر قريب أمي.

بعد الخطوبة بأشهر قليلة مرض أبي ولزم الفراش. وأخذ المرض يشتد ويزداد على أبي الذي لم يعد يستطيع الذهاب إلى عمله، فتراكمت عليه الديون وحين ضاقت به الدنيا و لم يجد أحدا يقرضه بعض المال لتسديد ديونه طلب مني أن أعطيه مدخراتي ليسدد بها ديونه. وكنت قد ادخرت نحو ثمانمائة جنيه وضعتها في صندوق التوفير لأقوم بتجهيز نفسي للزواج تطبيقا لنصيحة أمي.

وحين استشرت خطيبي في موضوع إقراض أبي مدخراتي لتسديد ديونه أقنعني خطيبي بأن هذه المدخرات ستساعدنا على إتمام زواجنا وإذا أعطيتها لأبي فلن نستطيع الزواج قبل خمس سنوات على الأقل حتى ندخر مبلغا مماثلا. اقتنعت بوجهة نظر خطيبي فقد كانت عنده مقدرة فائقة على الإقناع والتأثير عليّ. صدقت خطيبي وبمنتهى الأنانية واجهت أبي وأعلنت له قراري برفضي إقراضه مدخراتي وقلت له بقسوة: " دي فلوس جهازي وأنت لم تفكر في تخصيص مبلغ لي لجهازي كما جهزت إخوتي".

أجابني أبي في ذلة وانكسار: "أنا صرفت على تعليمك في المدرسة الفرنساوي أكثر ما صرفت على تجهيز إخواتك الاثنين!".

ولكن رده المنطقي لم يقنعني وأصريت على موقفي الرافض لمساعدته ولا أدري كيف هان عليّ أبي وهو الذي حباني على جميع إخوتي بحبه ورعايته.

كيف فعلت ذلك؟!

لم يتحمل أبي كل هذا العذاب: المرض، الديون ورفض أقرب الناس إليه مساعدته!

أصيب أبي بأزمة قلبية وغيبوبة سكرية قضت عليه.

مات أبي بحسرته وبقيت طول العمر أبكي ندما على رفضي مساعدته. مات أبي وتركني للندم وتعذيب الضمير! لم أغفر لنفسي أبدا موقفي من

أبي، و لم أغفر لخطيبي أنانيته فهو الذي أوعز لي برفض مساعدة أبي بحجة أن مدخراتي من حقي حتى نؤثث بها بيت الزوجية الذي سنعيش فيه وبدونها لن نستطيع أن نتزوج إلا بعد سنوات طويلة!

مات أبي وأنا أؤدي امتحانات الليسانس، فكرت في الانسحاب من بقية الامتحانات ولكن لم يكن باقيًا سوى مادتين فقط الإنجليزي واللاتيني، فدخلت الامتحانين وأنا منهارة نفسيا. وبسبب تأثري البالغ وحزني الشديد على أبي حصلت على تقدير مقبول في المادتين مما حجب عني تقدير ممتاز أو جيد جدا.

وعندما أفقت من الصدمة وفكرت في إلغاء الامتحانين الأخيرين وإعادتهما خاصة أنني حصلت على تقدير "ممتاز" في معظم المواد الأخرى، رفضت إدارة الكلية ذلك وحصلت على الليسانس بتقدير "جيد" فقط، أنا التي كنت أنجح كل عام بتقدير "ممتاز" وكنت أعد نفسي للتعيين معيدة في القسم!

انهارت أحلامي وتدهورت حالتي النفسية بسبب وفاة أبي وشعوري بالذنب، وبأنني جاحدة وآثمة في حقه وإحساسي بأن خطيبي حرَّضني ضد أبي مما أدى إلى وفاة أبي، إلى جانب ضياع أملي في التعيين كمعيدة وإكمال دراستي للحصول على الدكتوراه.

نقمت على نفسي وعلى خطيبي واعتبرت عدم حصولي على الليسانس بتقدير ممتاز هو انتقام إلهي مني، لأني خذلت أبي وفضّلت خطيبي وإتمام زواجي على فك ضيقة أبي.

فما كان مني إلا أن نزعت دبلة الخطوبة من إصبعي وقاطعت خطيبي وقررت عدم إتمام الزواج!

فرحت أمي بقراري لأنها لم تكن موافقة من الأساس على هذه الخطوبة، خاصة أنها تشاءمت من خطيبي هذا منذ أن أهداها شرابًا أسود في "عيد الأم" ليتقرب إليها، ولكنها تشاءمت من "الهدية السوداء" التي ارتدتها بعد ثلاثة أشهر في مأتم زوجها. ولكن يبدو أن النصيب غلّاب كما يقولون، فقد عادت المياه إلى مجاريها بيني وبين خطيبي. فبعد ستة أشهر من وفاة أبي وفسخ الخطوبة، عاد خطيبي ولجأ إلى عمي وإلى خالي وأقنعهم جميعا كما أقنعني بأن الأعمار بيد الله وليس بذنب أحد كما أتوهم وأعذب نفسي بلا ذنب جنيته.

* * *

طلب مني خطيبي أن أتقدم للعمل في شركة قطاع عام جديدة لإنتاج السجاد الآلي تم إنشا ؤها في دمنهور مقر عمله. أرسلت طلبا للعمل بهذه الشركة فوافقوا على الفور، وتم تعييني مؤقتا في وظيفة "رئيسة السكرتارية العامة"، لحين موافقة القوى العاملة التي توزع خريجي الجامعات الجدد على الوظائف الحكومية وفي شركات القطاع العام. التحقت بالعمل إذن في " شركة دمنهور للسجاد والمفروشات" لأكون في نفس المدينة التي كان خطيبي يعمل بها كمدرس لغة فرنسية في المعهد الديني بدمنهور.

ولأول مرة بدأت العمل في القطاع العام واختلطت بالزملاء من الرجال، فقد كنت حتى ذلك العهد لم أختلط أبدا بزملاء من الرجال، فقد تربيت في مدرسة خاصة بالبنات و لم يكن فيها سوى الراهبات والمدرسات ومدرس واحد للغة العربية. وفي الجامعة لم أختلط كثيرا بزملاء من الشبان فلم يكن في قسم اللغة الفرنسية سوى خمسة من الشبان وباقي الدفعة من البنات، كنا أكثر من خمسين من الطالبات.

أما في الشركة القطاع العام فقد كان معظم الموظفين والعمال من الرجال، وقليل من الفتيات في الإدارة ومعظمهن من حاملات المؤهلات المتوسطة ويعملن بأعمال السكرتارية. ومعظم العاملين في هده الشركة من دمنهور أو من القرى المجاورة ومعظمهم أيضا من حاملي المؤهلات المتوسطة، و لم يكن بالشركة سوى قليل من حملة المؤهلات العليا ومعظمهم منقولون من شركات قطاع عام من القاهرة أو الإسكندرية ويتولون رئاسة الأقسام والوظائف الرئيسية في الشركة. كنت نشازًا في هذا الوسط

"الريفي" نوعا ما وأنا مختلفة تماما عنهم فأنا إسكندرانية خريجة المدارس الأجنبية الفرنسية، فكان الكل ينظرون إليّ بإعجاب شديد ويعاملونني معاملة خاصة ويعتبرونني "خوجاية"، وكنت أشعر بأن كل الأنظار نحوي والكل في دهشة من أمري لأني لست في مكاني، كما يقولون، وأنني يجب أن أكون مقدمة برامج في التليفزيون أو في الإذاعة أو في مجال عمل فيه لغات ومظهر حسن، بينما أنا أعمل في أرشيف شركة قطاع عام في " قرية" والوظيفة دون مستواي بكثير. ولكن الغريب أنني لم أكن أشعر بهذه الفوارق وكنت سعيدة بوجودي في هذا المكان، والجميع يعاملونني باحترام شديد وكأنني "أميرة" وسط الرعية. كل ما كان يهمني هو أنني أعمل في نفس البلدة التي فيها "خطيبي" وأنني أراه يوميا في الحضور من الإسكندرية لدمنهور والعودة من دمنهور للإسكندرية، فقد كنا نستقل القطار معا ذهابا وعودة... وكله في حبه يهون!

وبدأنا نبحث عن شقة صغيرة لتصبح عش الزوجية ولكن واجهتنا أزمة المساكن في الإسكندرية واستغلال أصحاب العمارات هذه الأزمة لطلب "خلو رجل" من المستأجرين الجدد والمبالغة في تحديد هذا الخلو، رغم أن الشقق غالبا ما تكون في عمارات جديدة و لم يسكنها أحد، أي لم تدخلها أي "رجل حتى تخليها" بعد ذلك، وطالما لا يوجد إخلاء فليس هناك مبرر لطلب دفع خلو رجل لسكانها، حيث لا يوجد أصلا سكان، ولكن غاب المنطق في ظل أزمة المساكن.

وبما أننا لم نكن نملك مالا ولا نستطيع أن ندفع خلو رجل قد يصل أحيانا إلى عدة مئات من الجنيهات، فقد قررنا البحث عن شقة في دمنهور.

* * *

وبالفعل عثرنا على شقة في عمارة جديدة في وسط دمنهور، دفعنا فيها خمسين جنيها خلو رجل، رغم أنها جديدة و لم تدخلها رجل ساكن من السكان!

جن جنون أختي الكبرى وزوجها الضابط البحري الذي كان يرعاني كأخته الصغرى، وحاولا إثنائي عن هذا القرار وكيف أنه سيكون من الصعب جدا على فتاة مثلي خريجة سانت جان أنتيد، وقارئة لمؤلفات سيمون دي بوفوار التحررية أنْ تعيش مع "الفلاحين في دمنهور". فقد كانت دمنهور في بداية الستينيات لا تزال مدينة صغيرة بل إن أهل الإسكندرية كانوا يعتبرونها قرية كبيرة، خاصة أن معظم سكانها من المزارعين. وبررت شقيقتي اعتراضها هي وزوجها بأن الوظيفة نفسها ومقر العمل لا يناسباني، فكيف أقبل العمل في وظيفة سكرتيرة لا تتناسب مع دراستي ولا ثقافتي الفرنسية ولا مؤهلي العالي، وكيف أقبل الانتقال من الإسكندرية للعيش في قرية؟

ولكني لم أعر اهتماما لكل هذه العقبات خاصة أن توزيع القوى العاملة جاء مؤيدا لقرار تعييني في هذه الوظيفة في شركة دمنهور للسجاد والمفروشات في دمنهور.

واعتقدت أننا انتصرنا، أنا وخطيبي، وأن حبنا تخطى كل العقبات حتى عقبة الموت، موت أبي.

كنا نذهب يوميا خطيبي وأنا إلى دمنهور مستقلين قطار "السبنسة" في السابعة صباحا والذي يقف في محطات أكثر من خمس قرى صغيرة

قبل أن يصل إلى دمنهور، ونعود معا أيضا في قطار الرابعة بعد الظهر إلى الإسكندرية. وكنا نقف ننتظر قطار الأقاليم هذا، على محطة دمنهور، ويمر من أمامنا "الديزل السريع" الذي لا يتوقف من القاهرة للإسكندرية، ولا يقف حتى في محطة دمنهور، ونتحسر على الوقت الضائع في انتظار القطار البطيء، وكل ذلك لندخر ثلاثة جنيهات، ثمن الاشتراك في الديزل السريع.

لم تستمر الحال سوى خمسة أشهر فقط، فقد نجح خطيبي باتصالاته في أن يحصل على وظيفة معيد في جامعة الأزهر بالقاهرة، في كلية اللغات والترجمة، بعد تطوير جامعة الأزهر وإدخال تدريس اللغات الأجنبية فيها. وبعد تعيين خطيبي في القاهرة طلب عقد قراننا حتى أستطيع أن أطلب نقلي للعمل بالقاهرة ونتزوج ونعيش في القاهرة. رفضت أمي مبدأ أن أتركها وأسافر للإقامة والزواج في القاهرة. وبدأت سلسلة جديدة من المشاكل بين أمي وخطيبي وأنا حائرة بينهما. ولكن وعلى الرغم كل هذه المشاكل والأمواج العاصفة ومعارضة أمي الشديدة فإن الله شاء أن يتم زواجنا.

بعد عقد قراننا قدمت عقد الزواج للجنة شئون العاملين بالشركة بدمنهور، وطلبت نقلي للعمل بالقاهرة، وبالفعل وجدت وظيفة خالية مماثلة لوظيفتي بشركة ملبوسات قطاع عام تابعة لوزارة الصناعة في القاهرة.

ألغينا عقد ايجار شقة دمنهور واستردينا "خلو الرجل" وبدأنا نستعد للزفاف والانتقال إلى القاهرة.

تم زفافنا في حفل بسيط جدا بمنزلنا بالإسكندرية بدون احتفال ولا فرح ولا موسيقى ولا راقصة ولا زفة عروس. لقد رفضت أمي كل مظاهر الفرح المعتادة لأنه لم يمر عام على وفاة أبي، بل إنها لم تخلع السواد حدادا على أبي وحضرت "فرحي" بفستانها الأسود! لم أهتم بمعارضة أمي أو بالأحرى لم أنزعج أو أحتج بل كنت أبرر تصرفاتها بحزنها الشديد على وفاة أبي.

وأذكر أنها يوم زفافي قالت لي: "أنا مش عارفة إزاي الجدع دا لحس مخك... وإزاي تتجوزيه وهو اللى قتل أبوكي". لم أنس أبدا جملتها هذه، حتى إنني بعد الزواج كنت أحيانا أتهم زوجي بأنه المسئول عن وفاة أبي وأقول له على طريقه الممثلة الكوميدية شويكار:

"إنت اللّي قتلت بابايا".

أصر زوجي على أن نسافر إلى القاهرة في ليلة الزفاف بعد الحفل مباشرة، حتى لا نقضى ليلة زفافنا في بيت أمي. وبالفعل سافرنا في سيارة شقيق زوجي، الدبلوماسي العائد لتوه من إسبانيا، حيث كان قنصل مصر في مدريد. وكان شقيق زوجي هذا قد عرض علينا أن نقيم معه في شقته في منيل الروضة بالقاهرة حتى يفرجها ربنا ونجد شقة مناسبة بعد أن نكون قد ادخرنا بعض المال. و لم نتردد في القبول بالطبع نظرا لظروف زواجنا الصعبة وعلى الرغم من معارضة أمي الشديدة لهذا العرض لأن شقيق زوجي كان أعزب.

لم تستمر الحال سوى شهرين فقط بعد زواجنا وسرعان ما بدأت

الخلافات تدب بين زوجي وشقيقه الذي بدأ يتضايق من وجودنا معه، فقد كان زوجي يعارض بشدة حضور أصدقاء شقيقه لزيارته في شقته وأنا موجودة. كان لابد من إيجاد حل سريع و لم أتردد كثيرا في بيع جميع مصوغاتي الذهبية لتسديد مقدم شقة تمليك في مشروع جديد في مدينة جديدة غرب القاهرة، وسط صحراء جرداء بعيدا عن وسط البلد، في الجبل الأحمر كما كانوا يقولون عنه. في هذا الحي البعيد المهجور تم بناء عمارات شاهقة، بلغة العصر، مع أنها لم تتعد الطوابق العشر، بنيت خصيصا لسكن الخبراء الروس، الذين إستقدمهم الرئيس جمال عبد الناصر للمساعدة في تشييد السد العالي إلى جانب تطوير البنية التحتية للقوات المسلحة المصرية. وتم بيع بعض الوحدات السكنية في هذه العمارات بالتقسيط المريح على عشرين سنة للشباب حديثي الزواج. كان هذا الحي المنعزل هو حي "مدينة نصر"!

عندما سكنا في مدينة نصر في منتصف الستينيات كان هذا الحي بعيدا جدا عن القاهرة، أو هكذا خيل إليّ بسبب عدم وجود مواصلات ميسرة من وسط البلد إلى مدينة نصر. كانت تحيط به أراض صحراء فضاء شاسعة تمتد حتى شارع العروبة ثم حي العباسية، وبينهما لم يكن هناك سوى ثكنات الجيش ومستشفى الأمراض العقلية المحاطة بسورمرتفع جدا. وظل حي مدينة نصر منعزلا ومعزولا لسنوات طويلة قبل أن يمتد إليه العمران ويصبح من أكثف أحياء القاهرة سكانا وامتد شمالا وجنوبا وشرقا وغربا.

حين سكنا في مدينة نصر شعرت بالغربة لأول مرة في حياتي، أحسست وكأنني سمكة أخرجت من البحر وألقيت في صحراء جرداء. وجدت نفسي فجأة بعيدة عن أمي وإخوتي وأهلي وصديقاتي وبيئتي البحرية الإسكندرانية التي عشت فيها عمري كله. وجدت نفسي وحيدة لا أعرف أحدا من أهل هذه المدينة الغريبة عليّ. وعلى الرغم من أن زوجي غمرني بحبه واهتمامه ليخفف من غربتي فإنني أصبت بخيبة أمل كبيرة وأدركت أنني تسرعت في زواجي ولم أسمع كلام أمي ولاشقيقتي الكبرى رغم تحذيرهما لي بأنني لن أستطيع تحمل عيشة الكفاف مع زوج حديث التخرج لا يملك سوى مرتبه الضئيل، وأن الحب وحدة لا يكفي لبناء أسرة ومواجهة تكاليف الحياة في القاهرة الكبرى.

أخذتنا دوامة الحياة والعمل الجاد المضني لمواجهة مصاريفنا وحدنا بمرتبينا الضئيلين: كان مرتب أول التعيين بالليسانس عشرين جنيها وبعد الاستقطاعات ينكمش إلى سبعة عشر جنيها ونصف الجنيه. إجمالي دخلنا معا خمسة وثلاثون جنيها لا غير وعلينا ديون بعد تجهيز البيت تبلغ عشرين جنيها شهريا، ولا يتبقى لنا سوى خمسة عشر جنيها نعيش بها طوال الشهر للأكل والمواصلات، ومصروف جيبَ كل منا في المكتب لشراء سندوتش أو كوب شاي. ظروفنا صعبة جدا ولا نستطيع أن نطلب مساعدة من أهلينا فقد كان الأهل يعارضون زواجنا من الجانبين لأن زوجي خريج جديد، ولم يكوّن نفسه بعد وليست لديه مدخرات ولا يستطيع أن يتحمل "فتح بيت" على حد قول والدته، ولأن والدتي تمانع بشدة من زواجي من شاب بسيط لا يملك من الدنيا سوى مرتبه الضئيل،

ولكننا تحدينا الجميع وتزوجنا. و لم يكن من السهل علينا أن نعترف بأننا تسرعنا "و لم نسمع كلامهم"، فكان لزاما علينا أن نتحمل نتيجة "عنادنا" ونحل مشاكلنا بأنفسنا دون اللجوء إليهم.

وأذكر أن حماتي قالتِ لي قبل زواجنا: "الواحدة لما بتربِّي فرخة بتلم منها البيض... سيبيني ألِمّ شوية بيض من ابني"، فقلت لها: "بس ابنك ديك مش فرخة... والديك لا يطرح بيضا!".

حماتي سيدة ريفية بسيطة وطيبة جدا، مغلوبة على أمرها وخاضعة لزوج حاكم ناهٍ وآمر وأشد قسوة وعنفًا من "سي السيد" بطل نجيب محفوظ المشهور في "الثلاثية". وظلت حماتي على طاعتها العمياء لزوجها طوال حياتها تماما مثل "أمينة" في الثلاثية. أما حماي، والد زوجي، فقد كان شيخا أزهريا حاصلاً على عالمية الأزهر الشريف ويعتبر نفسه عالمًا علامة وحجة في الإسلام، خاصة لأنه كان زميلا للشيخ محمد حسن الباقوري، الذي شغل منصب وزير الأوقاف في عهد عبد الناصر. حماي رجل قوي الشكيمة متشددا وعنيفا يقسو على نفسه وعلى زوجته والتي تعتبره من سلالة الأنبياء، خاصة أنه لا يفتأ يردد على مسمعها "العلماء ورثة الأنبياء". وكان الشيخ يعامل أولاده بحزم وشدة اعتقادا منه أن الشدة والقسوة من سيمات الرجولة، ومن مكونات وضرورات التربية السليمة حتى يصبح الأولاد رجالا أقوياء يستطيعون مواجهة المشاكل والأزمات بصلابة ويتحملون قسوة الحياة.

لم يكن أحد يجرؤ أو يستطيع مخالفة أمر أو رغبة من أوامر ورغبات هذا

الوالد المتعصب القوي الشخصية. وظلت زوجته خاضعة له خضوعا تاما وتهابه وتخشاه ولا تستطيع أن تعصي له أمرا. ولقد حزنت حماتي لوفاة زوجها هذا حزنا شديدا رغم قسوته عليها وشدته معها وكانت تبكي عليه بالدمع الثخين وتقول: "كان الشيخ مخلّيني أحس إني ملكة ولما مات استفردوا بي العيال"، رغم إن "العيال" كانوا رجالا محترمين ويكرمونها ويرعونها حق رعاية. ولكنهم جميعا كالأطفال الصغارأمام والدهم ولا رأي لهم ولا إرادة، ويطيعونه طاعة عمياء ويوافقون على كل آرائه مهما كانت قاسية أو عنيفة ويعتبرونها فتاوى دينية واجبة النفاذ.

تأثر زوجي بهذه التربية القاسية تأثرا شديدا وظهر لي ذلك واضحا من خلال تصرفاته وطباعه ومواقفه طوال مراحل حياتنا الزوجية، فقد بدا لي أحيانا في منتهى القسوة والشدة، وأحيانا أخرى في منتهى الحنان والاهتمام واللين، حتى إنني كنت أتهمه أحيانا بأنه يعاني من ازدواج في الشخصية وأقول له "أنت مصاب بمرض السكيزوفرانيا".

بمرور الشهور أخذت مشاكلنا المادية تتزايد وكنا نواجه كل هذه الصعوبات بشجاعة وصبر ويزداد تمسكنا ببعضنا. كنا أحيانا نضطر لأخذ سلفة أو قرض على مرتب الشهر القادم لمواجهة مصروفاتنا التي لا تستطيع مرتباتنا الشهرية تحملها.

ولكن نجح زوجي في أن يثبت لي أنه يستطيع أن يفتح بيتا ويتحمل مسئوليته، فهو لم يكتف بالوظيفة الميري في جامعة الأزهر بل استطاع أن يجد عملا إضافيا بعد الظهر لمدة ثلاث ساعات في مكتب "الفرع" في

مدينة نصر. وهذا الفرع هو "فرع المخابرات المصرية في مدينة نصر" وكانت مهمته ترجمة أهم المقالات التي تنشر عن مصر وعن الشرق الأوسط في الصحف والمجلات الفرنسية الأجنبية، لتعرض الترجمة على مكتب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر. وسرعان ما وجد زوجي عملا إضافيا ثانيا كمترجم في وكالة أنباء الشرق الأوسط عبارة عن ثلاث ساعات أيضا في وردية الليل من الساعة التا سعة مساء وحتى منتصف الليل.

أما أنا فلم أكن أستطيع الخروج وحدي، بعد عودتي من عملي، في هذا الحي الخالي تقريبا من السكان وكأنه مهجور، لأنه بعيد عن القاهرة الكبيرة، أو هكذا خيِّل لي وقتها، فكنت أمكث أنتظر عودة زوجي إلى البيت وأقوم بإعداد وجبة الطعام لليوم التالي حتى نجد الأكل جاهزا عند عودتنا من العمل.

ونادرا ما كنا نخرج معا من بيتنا بعد عودتنا من العمل، خاصة بعد انشغال زوجي في وظيفتين إضافيتين. وفي الواقع لم يكن لدينا الوقت للخروج، فقد كان زوجي يعود من عمله في وكالة الأخبار الفرنسية بعد منتصف الليل، كما أننا لم نكن نملك الموارد المالية اللازمة لمواجهة مصاريف الخروج والذهاب إلى الأندية أو المطاعم أو السينما والمسرح أو التنزه لنتعرف على القاهرة ونشاهد شوارعها وميادينها وأحياءها الشعبية ونيلها العظيم وأهراماتها الخالدة.

كانت نزهتنا الوحيدة يوم الجمعة حيث نذهب إلى حديقة المريلاند في مصر الجديدة، وهو أقرب الأحياء لمدينة نصر، نتناول الغداء في المطعم

الموجود وسط الحديقة وأحيانا نستأجر مركبًا صغيرًا "بيدالو" ونقوم بجولة في البحيرة الصناعية الصغيرة داخل الحديقة.

وسرعان ما حملت في ابني الأول وانشغلت بإعداد ملابس "النونو" من تطريز وتريكو خاصة أنني كنت تعلمت كل هذه الفنون في مدرسة السبع بنات للراهبات. كنت أتمنى أن يرزقني الله ببنت حتى إنني في كل التطريزات للنونو كنت أكتب حرف (H) لأني اخترت لابنتي المنتظرة اسم "حنان"، بل إنني كتبت في استمارة صندوق الزمالة الذي يخصص اشتراكاته لمساعدة العاملين في الشركة التي كنت أعمل بها، في حالات الزواج والولادة والوفاة، كتبت أمام خانة اسم الورثة الشرعيين اسم أمي وزوجي وابنتي حنان، التي لم توجد بعد.

وتشاءون ويشاء الله!

رزقت بولد وليس بنتا فاخترت له اسما يبدأ بنفس الحرف. كانت فرحتي بابني البكر لا توصف وارتبطت به ارتباطا وثيقا، فقد كنت وحيدة تماما في القاهرة، بعيدا عن أمي وإخوتي وصديقاتي في الإسكندرية، بينما زوجي يعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم ولا يعود إلى البيت خلال النهار سوى ساعة واحدة فقط من الثانية للثالثة بعد الظهر.

عدت إلى عملي بعد انقضاء إجازة الوضع، ثلاثون يوما فقط، حسب قانون العاملين في القطاع العام في ذلك العهد، ولكني كنت أخرج ساعة مبكرة بسبب حصولي على ساعة رضاعة فأخرج في الثانية بعد الظهر بدلا من الثالثة مثل بقية الموظفين.

أهرع إلى بيتنا وأسخن الوجبة التي أعددتها مساء الأمس، يأكل زوجي على عجل في نصف ساعة ويأخذ "تعسيلة" سريعة في النصف ساعة المتبقية قبل أن يغادر مسرعا إلى الوظيفتين الإضافيتين، ولا يعود قبل الواحدة صباحا.

تعلقت بالمولود الجديد تعلقا شديدا، فلم أكن أفارقه ليل نهار. أصطحبه معي كل صباح لحضانة الشركة التي أعمل بها وأرجع به إلى البيت في الثانية. كنت حريصة على إرضاعة رضاعة طبيعية من صدري، فكنت أتسلل من مكتبي وأنزل مسرعة إلى الحضانة وأقوم بنفسي بتغيير اللفة، فلم تكن الحفاضات الورقية قد وصلت لنا بعد، وأرضعه رضعة مشبعة وأعود بعدها إلى مكتبي دون أن يشعر بي أحد من الرؤساء، ولو صادف الأمر وسأل عني أحدهم فإن ساعي مكتبي –وهو الوحيد الذي يعرف مكاني– يجري مسرعا يناديني لأعود إلى مكتبي.

قضيت سنتين على نفس المنوال من انشغالي التام بالعمل صباحا وبرعاية ابني وإعداد الوجبات وتنظيف البيت وغسيل لفف المولود. كنت أغسل ملابس المولود يوميا على يدي في "طشت الغسيل" وأغلي الغسيل في صفيحة سمن بلدي ضخمة، بعد تنظيفها بالطبع، وأضعها فوق وابور الغاز الكبير، ثم أشطف الغسيل في "كروانة" ضخمة مليئة بالماء البارد فلم يكن عندما سخان بعد، كما لم يكن في الحمام بانيو أضع فيه الغسيل وأشطفه فيه. كنت أتحمل كل هذا الجهد وحدي بدون مساعدة من أحد، فلم تكن مواردنا تسمح باستخدام شغالة ولو لمرة في الأسبوع لمساعدتي في شغل البيت.

تحسنت أحوالنا المعيشية والمادية بعض الشيء في السنتين التاليتين خاصة بعد أن سافر زوجي إلى الخارج للعمل كمترجم تحريري لغة فرنسية في عدة مؤتمرات دولية، بواسطة من شقيقه الدبلوماسي في وزارة الخارجية. وأحضر لنا معه لأول مرة بطانية صوف إسباني ومنبهًا كهربائيًا وجهاز تسجيل ومروحة كهربائية. ثم اشترينا على التوالي بوتاجاز بأربع عيون وفرنًا من إنتاج المصانع الحربية، فقد كان الاستيراد لا يزال ممنوعا، ثم اشترينا أول ثلاجة كهربائية إيديال 8 اقدام، ثم سخان غاز أيضا من المصانع الحربية وجاءت بعده الغسالة وأخيرا التليفزيون 16 بوصة أبيض وأسود، فلم تكن التليفزيونات الألوان قد ظهرت بعد، على الأقل في وسطنا الاجتماعي.

أما الحدث الأعظم فقد كان شراء سيارة فيات 500 مستعملة، حمراء اللون، عالية الصوت، ذات باب واحد أطلقنا عليها اسم "عزيزة"، أراحتنا كثيرا من استخدام المواصلات العامة والجري وراء الأتوبيسات المزدحمة، خاصة ومعنا الطفلين الصغيرين، وذلك بعد أن رزقنا الله بطفل ثان، ولكنها كانت تكلفنا الكثير في التصليحات لأنها كثيرا ما تتعطل بنا في وسط الطريق ونضطر نزقّها، أنا والطفلان وبعض المارة الذي يشفقون علينا فيساعدوننا في الزق.

بدأت الأعباء المنزلية تخف بفضل الأجهزة الكهربائية وبعد أن كبر الطفلان قليلا وانتهت فترة رضاعة الصغير وقلّت كمية غياراته وغسيلها. بدأت أشعر بفراغ، فراغ ذهني وفكري، واشتقت للقراءة والعلم لأنني

لم أعد أقرأ سوى الجرائد مثل كل الموظفين في المكاتب! لم تكن الوظيفة الإدارية التي أعمل بها بالشركة مناسبة لي ولا لثقافتي الفرنسية وإجادتي اللغات الأجنبية، ولقد حاولت عشرات المرات أن ألتحق بالعمل في وزارة الثقافة أو في التليفزيون أو في مصلحة الاستعلامات أو حتى في التدريس في المدارس الأجنبية ولكنني لم أوفق أبدا لأنني لم تكن عندي "واسطة"، فلم أكن أعرف أحدا من المسئولين أو حتى الموظفين، فأنا من عائلة كلها تعمل بالتجارة وليس لها صلة بالدواوين الحكومية والمسئولين في الحكومة والقطاع العام، وكنت ساذجة جدا واعتقدت أنه يكفي إرسال طلب مرفق به صورة من المؤهلات والشهادات للحصول على وظيفة من الوظائف التي يعلن عنها في الصحف، وقد أرسلت عشرات بل ربما مئات الطلبات ردا على هذه الإعلانات في الصحف، وكنت أتلقى فقط خطابًا باستلام الطلب ولا شيء بعد ذلك.

وفهمت بعد فوات الأوان أن هذه الإعلانات في الصحف ليست إلا إجراء روتينيًا، تطبيقا للقانون الذي يجبر الهيئات الحكومية والوزارات والشركات وأصحاب الأعمال على الإعلان في الصحف عن الوظائف الخالية، ولكن كل هذه الهيئات تقوم بتعيين المحاسيب وأصحاب الواسطة في الوظائف الخالية ولا يتدخل القانون في التعيين لأنه يشترط فقط الإعلان عن الوظائف الخالية ليس إلّا... وبعد أن أصابني اليأس وأيقنت أنه من المستحيل في ظل الظروف السائدة في مصر في ذلك العهد أن أعثر على وظيفة مناسبة لمؤهلاتي وثقافتي، قررت أن أملأ هذا الفراغ الفكري والذهني باستكمال دراستي العليا للحصول على الدكتوراه. اندهش

زوجي من إصراري على تقديم أوراقي للالتحاق بجامعة القاهرة قسم الدراسات العليا للحصول على دبلوم ثم ماجستير. حاول إقناعي بأن المشوار من مدينة نصر إلى الجيزة سيهلكني، لأني سأستقل ثلاثة أتوبيسات، ثم هناك مشكلة أصعب وأهم وهي لمن سأعهد برعاية ابننا حين ذهابي للجامعة؟ ولكني سريعا ما وجدت الحل.

لقد اتفقت مع زوجة البواب بعمارتنا في مدينة نصر على أن أترك لها ابني مرتين في الأسبوع لأذهب إلى جامعة القاهرة لحضور محاضرات الماجستير التي كانت لحسن حظي مسائية من السادسة إلى الثامنة مساء.

بعد تأدية اختبارات القبول والنجاح فيها بدأت أواظب على الذهاب إلى جامعة القاهرة، رغم صعوبة المواصلات وبعد المسافة التي تستغرق مني أكثر من ساعة ونصف الساعة في كل من الذهاب والعودة. ولكن عزيمتي كانت أقوى من معاناتي. استمريت عاما كاملا في هذه الدراسات بجامعة القاهرة كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية. كان المدرسون أجانب وعلى مستوى أرفع بكثير من مستوى مدرسينا في جامعة الإسكندرية. كنا سبعة دارسين فقط ثلاث طالبات وأربعة طلاب، الطالبتان اللتان كانتا معي في هذه الدراسات العليا كانتا غاية في الجمال والأناقة، وكل واحدة منهما تأتي إلى الكلية في سيارة مرسيدس فاخرة ذات لوحات دبلوماسية.

وعرفت أن كلاً منهما زوجة دبلوماسي. وقد التقيت باحداهما بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات في جنيف حيث أصبح زوجها، الدكتور

عبد الله العريان، سفير مصر لدى الأمم المتحدة. أما الثانية وكانت أكثر جمالا وبهاء وحتى اسمها كان جميلا "رفاهية"، فقد أصبح زوجها، فؤاد محيي الدين، رئيس وزراء مصر في عصر السادات، ولكنه توفي فجأة وهو في منصبه. أما زوجي فقد سعى للالتحاق بوزارة الخارجية ليصبح دبلوماسيا مثل شقيقه الأكبر. أمضى زوجي شهورا طويلة يستذكر مواد جديدة عليه، مواد سياسية واقتصادية وقانونية ليدخل مسا بقة امتحان الخارجية. وبالفعل دخل المسابقة ونجح في الامتحان التحريري. وبقى له النجاح في الامتحان الشفهي.

وكانت وزارة الخارجية ترسل مندوبا إلى منزل الناجحين في الامتحان التحريري لإجراء مقابلة مع زوجة المرشح الناجح لمعرفة إذا كانت تصلح لأن تكون زوجة دبلوماسي أم لا. وفي عصر أحد الأيام كنت وحدي أقوم بتنظيف البيت وأرتدى ثوبا قديما وألف شعري بإيشارب مثل الشغالات، دق جرس الباب ففتحته وأنا على هذه الهيئة ورأيت أمامي أفنديًا آخر أناقة يسألني إن كان هذا بيت فلان وأجبته بالإيجاب فقال لي: "اندهي علي الست الهانم". وفي فورة غيظ واندفاع قلت له: إنت فاكرني الشغالة والا إيه؟ أنا الست هانم هنا...

رد عليّ بإختصار وهو يستدير منصرفا: أخبري زوجك بأني مندوب وزارة الخارجية جئت للتعرف عليكما...

وقفت متصلّبة في مكاني لم أقو على الجري وراءه لأعتذر له وأشرح له... وحين أفقت من انفعالي كان قد اختفى.

لم أخبر زوجي ولا شقيقه الدبلوماسي بما حدث وبعد أسبوعين جاء خطاب وزارة الخارجية برسوب زوجي في الامتحان الشفهي على الرغم من أنه أجاب جيدا على جميع الأسئلة، وعلى الرغم من أنني تتوافر فيّ كل الشروط المطلوبة في زوجة الدبلوماسي.

ولكن الله شاء وما شاء فعل! بعد نجاحي في دبلوم الدراسات العليا للإعداد للماجستير اكتشفت أني حامل للمرة الثانية، حاولت أن أتخلص من الجنين فقد وجدت أنه من المستحيل أن أكمل دراساتي العليا وأنا أم لطفلين. ولكن شاء الله أن يكتمل الحمل رغم كل محاولاتي الفاشلة للإجهاض، وخرج ابني الثاني إلى الدنيا. ولدته في بيتنا بمدينة نصر في يوم جمعة مشرق أثناء صلاة الجمعة. وما إن رأيته، بعد الولادة، حتى تلاشت من ذهني كل طموحاتي الدراسية واحتضنته بسعادة وفخر وكأنني عثرت على كنز كان مختبئا بداخلي.

استمر زوجي في عمله المضني لمواجهة مصروفات المعيشة المتزايدة وحاولت أنا أن أساعده فكنت أعطي دروسا في اللغة الفرنسية لبنتين من بنات الجيران في مدينة نصر، تأتيان عندي في البيت بعد الظهر، مرتين في الأسبوع. وذات مرة وأنا أعطيهما الدرس اشتد صراخ ابني الرضيع فذهبت وأحضرته ولكن صراخه اشتد لأنه كان جائعا ومصرًا على أخذ حقه في الرضاعة، فجلست أرضعه وأنا أراقب التلميذتين وهما تكتبان ما شرحته لهما. ولكنهما بالطبع أخبرتا أمهما التي منعتهما فيما بعد من الحضور عندي لأخذ الدرس.

انقطعت عن محاضرات الدراسات العليا وتفرغت للعمل في الشركة ولرعاية الولدين، وكان زوجي يحضر لي بعض البحوث المقدمة من أساتذه جامعة الأزهر إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لترجمتها من العربية إلى الفرنسية، كما كنت أساعده في اعداد المادة العلمية باللغة الفرنسية لكتاب اسمه "مجدي" وهو كتاب من الكتب المساعدة الخارجية الإضافية التي يشتريها طلبة المدارس الثانوية الحكومية لتساعدهم على فهم منهج اللغة الفرنسية كلغة أولى. وبالطبع كان المؤلف يضع اسمه هو على الكتاب ونحن نعاونه من الباطن.

ولكن زوجي لم يتحمل طويلا هذا العمل المضني بدون إجازة أو راحة ولو حتى أسبوع واحد في السنة، فجأة انهارت مقاومته وسقط مريضا. أصيب بمرض الروماتويد وهو التهاب حاد في المفاصل بسبب ارتفاع نسبة الأسيد يوريك في الدم. رقد زوجي في الفراش ستة أشهر كاملة.

كان لا يقوى على تحريك ساقية أو ذراعيه أو حتى أصابع يديه. كنت أسنده للنهوض من الفراش ويستند على كتفي ليسير بعض الخطوات حتى الحمام ولا يستطيع أن يقف وحده تحت الدش أو أن يمسك بالفرشاه ويغسل أسنانه، فقد كانت أصابعه لا تقوى على حمل فرشاه الأسنان أصبحت مسئولة عن خدمة طفلين أحدهما رضيع والآخر عمره ثلاث سنوات وزوج طريح الفراش ولا يقوى على الوقوف بمفرده على قدميه، وأنا وحدي في القاهرة بدون مساعدة من أم أو أخت أو صديقة. كل صباح، أترك زوجي المريض وحده في البيت وأذهب بالطفلين إلى عملي

بالشركة وأعود في الثانية بعد الظهر، أجهز الطعام وأغسل الغسيل وأقوم على خدمة زوجي والولدين وأساعد زوجي في أخذ حمام قبل أن ينام. شعرت بأنني سأنهار من التعب والإرهاق والضغط النفسي فأرسلت خطابا لوالد زوجي في الإسكندرية أطلب منه حضور والدة زوجي للقاهرة لمساعدتي في رعاية ابنها المريض. ولكن والد زوجي، سامحه الله، رفض طلبي!

واستغثت بوالدتي لتأتي للإقامة معنا في القاهرة لمساعدتي في العناية بأولادي وزوجي المريض طريح الفراش، ولكنها اعتذرت ورفضت الحضور أيضا بحجة أنها لا تستطيع أن تبقى وحدها في الشقة مع رجل غريب (زوجي) أثناء ذهابي إلى عملي.

كان يجب عليّ أن أعتمد على نفسي وأصبر على ما أصابنا حتى يمن الله علينا بشفاء زوجي. وشاء العلي القدير أن يعفو عن زوجي ويعافيه وبدأ يتماثل للشفاء، بل لقد كافأنا الله على صبرنا وتحملنا لهذه الغمة بأن أنعم علينا ببعثة دراسية إلى سويسرا.

كان زوجي، قبل مرضه، قد تقدم بطلب لإدارة البعثات للحصول على بعثة لدراسة الترجمة في كلية الترجمة العليا بجامعة جنيف بسويسرا، وجاءه الرد بالموافقة وهو لا يزال راقدا في إجازة مرضية، ولكنه أصر على السفر وكأنه وجد في السفر الخلاص من رقدته ومرضه، ووجدها فرصة ليعرض نفسه على الأطباء هناك لاستكمال علاجه.

أنهى زوجي إجراءات سفره على عجل بمساعده زملائه في العمل،

وسافر وحده في منتصف شهر يناير ليلحق العام الدراسي بعد إجازة الجامعة السنوية في أعياد رأس السنة في كل أوروبا . وطلب مني زوجي أن ألحق به بعد أن أرتب أموري وأحصل على إجازة من عملي لمرافقة الزوج.

ولكنني في أعماقي لم أكن أرغب في مغادرة البلد مثلما فعل هو ومعظم شباب ذلك الوقت، على الرغم من ظروف البلد الصعبة والشعور المؤلم بالهزيمة، وازدياد حزننا بعد وفاة الزعيم والقائد جمال عبد الناصر، كنا كاليتامى "مكسوري الخاطر"، نحس بالمهانة خاصة أن الألسنة بدأت تنحل عقدتها وتحكي حكايات مخزية عما حدث في واقع الأمر وأدى إلى "النكسة". بدأنا نسمع حكايات الجنود العائدين من سيناء، وكيف أنهم كانوا يرون زملاءهم وهم يحصدون كالأرانب بنيران وقاذفات الطائرات الإسرائيلية وهم يهرولون كالحيوانات الضالة في صحراء سيناء. ساد بين الناس الإحساس بالخديعة... شعور مؤلم بفقد الثقة في أولي الأمر الذين خدعونا وكذبوا علينا... ازداد هذا الإحساس بالخزي وفقدان الثقة في القائمين على البلد بين الشباب، خاصة بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

حزنت على جمال عبد الناصر حزنا شديدا يقارب حزني على وفاة والدي، كنت أحب عبد الناصر ومازلت وأؤمن به وبوطنيته ونزاهته، وحتى بعد النكسة لم أصدق أبدا أنه هو المسئول عنها، بل كنت مثل معظم المصريين أرجع أسباب النكسة إلى رئيس الجيش حينذاك، عبد الحكيم عامر، وإلى مجموعة القادة العسكريين المحيطين به.

وبعد وفاة عبد الناصر تحول الحزن عليه إلى حالة من الإحباط وفقدان الثقة في كل شيء وخاصة فيمن تولى السلطة بعده، وبسبب التخبط الذي عاشت فيه مصر أثناء سنوات "حرب الاستنزاف" مما جعل كثيرًا من شباب البلد يديرون ظهرهم للبلد ويسافرون إلى الخارج، وكان زوجي من بينهم، لقد فضّل زوجي السفر وترك البلد والزوجة والأولاد وسافر وحده بحثا عن مستقبل أفضل.

بعد سفر زوجي إلى جنيف، تقدمت بطلب لإدارة الشركة التي أعمل بها لنقلي من القاهرة إلى الإسكندرية، فلم يكن من المعقول، في ذلك الوقت، أن أعيش وحدي في القاهرة مع طفلين صغيرين وليس لي أي معارف أو أصدقاء في هذه المدينة الضخمة. وافقت الشركة على نقلي وانتقلت بالفعل للعمل في شركة نسيج أخرى قطاع عام بالإسكندرية. عدت إلى بيتنا في شارع البحرية مع الطفلين. وكان أخي قد تزوج ويعيش مع أمي وأخي الأصغر في نفس البيت الكبير. فضّلت البقاء في الإسكندرية معهم على السفر مع زوجي الذي فرح فرحا شديدا بالسفر للخارج حتى يستريح من العمل المضني لأكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميا، والذي أرهقه وأقعدة ستة أشهر في فراش المرض، وجعله يبدو في الأربعين بينما هو لم يكمل بعد الثلاثين من عمره.

لكن بدأ شوقي لزوجي، الذي فارقني منذ أشهر وسافر بمفرده، يزداد يوما بعد يوم خاصة أنها كانت أول مرة نفترق فيها لمدة أشهر طويلة منذ زواجنا. تبادلنا كثيرا من الرسائل خلال هذه الفترة فلم تكن موارده المالية

تسمح له بالمكالمات التليفونية سوى مرة في الأسبوع، فكنا نكتب لبعضنا خطابات مطولة نحكي فيها كل ما يصادفنا خلال الأسبوع. خطاباته كانت طويلة جدا أحيانا عشر صفحات يبثني فيها أشواقه وحبه ويستعيد ذكرياتنا الحلوة في الإسكندرية وفي القاهرة، ويصف لي جنيف المدينة الجميلة التي انبهر بها وخاصة بمظاهر الثراء فيها وعدد الأثرياء المليونيرات فيها، حتى إنه كان يقول إن معظم أهالي جنيف من المليونيرات وكل شيء في جنيف يجعلك تشعر بأنها مدينة للأثرياء فقط ابتداء من فخامة المباني وكثرة عدد البنوك ومحلات المجوهرات والساعات السويسرية الغالية، وصولا إلى المحلات التجارية الفخمة التي يوجد بها كل البضائع وجميع الماركات العالمية التي كنا محرومين منها في مصر بسبب منع الاستيراد وبسبب ظروف مصر الاقتصادية الصعبة بعد النكسة.

ولكن زوجي عرف كيف يحطم مقاومتي ورفضي للسفر، فبمجرد وصوله إلى جنيف سارع بتقديم أوراقي وشهاداتي إلى كلية الآداب جامعة جنيف لإلحاقي بالدراسات العليا. كان يعرف أن هذه الخطوة ستشجعني على اللحاق به، وستذيب مقاومتي ورفضي لمبدأ الهجرة من مصر والسفر للخارج. و لم أهنأ بالعيش في الإسكندرية سوى ستة أشهر، فقد ألح زوجي في طلبه لألحق به في سويسرا لنجمع شمل الأسرة، و لم أصمد طويلا أمام إغراءاته بالسفر، خاصة بعد أن قبلت جامعة جنيف أوراقي للالتحاق بها وحددوا لي تاريخا لإجراء اختبارات تحريرية وشفهية.

وما إن أرسل لي زوجي خطاب جامعة جنيف الذي يحدد تاريخ

وميعاد الامتحان حتى انهارت كل مقاومتي، وأنهيت إجراءات السفر وأخذت الولدين وسافرت للقاهرة ومنها أخذت الطائرة لأول مرة في حياتي لألحق بزوجي في جنيف.

وبمغادرتي مصر لأول مرة في حياتي، ودَّعت مرحلة من أصعب مراحل العمر، ولكن بعد مرور السنين أشعر الآن بأنها كانت ألذ مرحلة في حياتي. وأشعر بالزهو والفخر حين أستعيد هذه الذكريات وهذا الكفاح، لأني أثبت لنفسي أن الحب الصادق الحقيقي هو المشاركة والكفاح وأن النجاح هو ثمرة هذه الرحلة الطويلة.

ولقد سردت هنا هذه الوقائع والذكريات لعلها تكون عبرة لفتيات اليوم ليعرفن كيف كنا، نحن بنات جيل الستينيات، وكيف تحملنا وصبرنا وكافحنا لتحقيق آمالنا وأحلامنا، فلم يكن يخطر ببالنا أن نتزوج من "رجل جاهز" يوفر لنا الشقة والكماليات والسيارة والملابس الجاهزة الفاخرة، حتى وإن كان أكبر منا سنا وحتى إن كان متزوجا مثلما تفعل الفتيات الآن. إن طعم النجاح حلو المذاق ولكن رحلة الوصول للنجاح، رغم صعوبتها ومرارتها، ألذ وأحلى من النجاح نفسه.

* * *

الجزء الثاني

أمواج بحيرة جنيف

أمواج الغربة

غادرت مصر لأول مرة في حياتي، ولأول مرة أيضا استقليت الطائرة وحدي ومعي طفلان الأول في الرابعة والثاني في الثانية من العمر، وأنا شابة في الثلاثين، وزوجي سبقني إلى البلد الغريب وسيكون في انتظارنا في المطار.

وأنا أنظر من خلف زجاج نافدة الطائرة على المناظر الطبيعية الخلابة كنت أشعر بالخوف والرهبة والتأثر من فراق أمي وأخوتي. وظلت صورتهم ماثلة في خاطري وهم يودعونني والدموع تغطي وجوههم ثم أخذت صورهم تتلاشى شيئا فشيئا، خاصة حين اقتربت الطائرة من مطار جنيف الدولي. صورة زوجي طغت على صورهم وبدأت أستعيد لحظات وداعنا، وأتخيل كيف سيكون لقاؤنا بعد أشهر الفراق الستة الماضية.

لم يخطر على بالي وأنا أستقل الطائرة لأول مرة إلى سويسرا أنني سأقضي في هذا البلد الأوروبي عمرا أطول من العمر الذي قضيته في مصر، فقد عشت في سويسرا أكثر مما عشت في مصر، وعلى الرغم من حصولي على الجنسية السويسرية بعد خمسة عشر عاما من الإقامة المتواصلة في جنيف، فإنني لم أشعر أبدا نحو وطني الثاني سويسرا بنفس الانتماء الذي أشعر به نحو مصر الحبيبة.

كان ذلك في بداية صيف عام 1972، و لم نكن نعرف قبل مجيئنا إليها أن سويسرا ليست لها لغة قومية بل لها ثلاث لغات رسمية هي اللغة الألمانية في المقاطعات المتاخمة لألمانيا، ثم اللغة الفرنسية في المقاطعات المتاخمة لفرنسا، واللغة الإيطالية في المقاطعات المتاخمة لإيطاليا. وقبل أن نأتي إلى جنيف لم نكن نعرف أي شيء عن سويسرا فلا أذكر أننا درسنا شيئا في مصر سواء في كتب التاريخ أو الجغرافيا عن سويسرا. لذا أخذت أعد نفسي للذهاب إلى هذا البلد الذي لم أكن أعرف عنه شيئا و لم أجد كتبا أو نشرات ترشدني. فذهبت إلى معهد جوته لدراسة اللغة الألمانية، اعتقادا مني بأن اللغة الرسمية في جنيف هي الألمانية، ولكن بعد وصول زوجي إلى جنيف اكتشف أن اللغة الرسمية في جنيف هي الفرنسية وليست الألمانية كما كنا نعتقد. كذلك فوجئنا بأن كلية الترجمة العليا في جنيف لا تمنح درجة الدكتوراه في الترجمة ولكن كلية الآداب هي التي تمنح درجة الدكتوراه في إحدى اللغات الأوروبية. وبما أننا كنا خريجي كلية الآداب جامعة الإسكندرية قسم اللغة الفرنسية، فقد كنا

نجيد الفرنسية، وخاصة أنني كنت في مدارس الراهبات الفرنسيات منذ أولى ابتدائي وحتى البكالوريا.

ولكننا حين بدأنا نعيش في جنيف وبدأنا نتعامل مع أهلها ونتحدث معهم بالفرنسية تبين لنا أن اللغة الفرنسية التي تعلمناها في مصر لغة قديمة، لغة القرن التاسع عشر، وهي لغة الكتابة الأدبية، أما لغة الكلام بالفرنسية فهي تختلف شيئا ما، وبها كثير من المصطلحات الجديدة علينا والتي لم نكن نستعملها إطلاقا في مصر ولم نسمع بها، فلم نكن نتحدث الفرنسية أثناء المحاضرات، بل كنا ندرس الفرنسية كتابة ونتحدث العربية فيما بيننا وبين الأساتذة.

واللغة أي لغة –كما هو معروف– كائن حي وهي في تطور مستمر ولكن المدرسين والأساتذة الذين كانوا يعلّمونا في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، كانوا منعزلين عن الثقافة الفرنسية المتطورة منذ عدة عقود، ونقلوا لنا وعلمونا لغة غير متطورة من كتب قديمة وطبعات قديمة وحتى الشعر والروايات التي كنا ندرسها كانت كلها عن الروائع الأدبية في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، ووقفنا عند سارتر وكامي في بداية القرن العشرين ولم نتقدم بعد ذلك قيد أنملة. وبالطبع لم يكن لدينا في جامعة الإسكندرية في بداية السبعينيات أية دوريات أدبية حديثة أو أية إمكانات تكنولوجية حديثة، فلم تكن أجهزة الكمبيوتر معروفة ولم يكن هناك إنترنت بعد.

وحين قدّمنا شهادة الليسانس التي حصلنا عليها من جامعة الإسكندرية

في الآداب الفرنسية، وجد المسئولون في جامعة جنيف أننا لم ندرس أية دراسات نقدية، ولم نتعلم فن النقد والقراءة النقدية الحديثة للنصوص الأدبية. رفضوا اعتماد شهادة الليسانس المصرية ومعادلتها بدرجة الليسانس السويسرية وسجلونا للدراسة في سنة ثالثة جامعة، أي أنهم اعتبروا الليسانس المصري "نصف ليسانس"، فكان يجب علينا قبل التسجيل للدراسات العليا أن نعيد سنة ثالثة وسنة رابعة جامعة، وندرس المواد التي لم ندرسها في مصر ونحصل على درجة الليسانس من جديد من جامعة جنيف. بالطبع كانت الصدمة شديدة علينا ولكننا لم نستطع التراجع ولم يكن هناك حل آخر سوى قبول الأمر الواقع.

* * *

في جنيف عرفت طعم الغربة الحقيقية والبعد عن الوطن والأهل والأصدقاء والمعارف والجيران، الغربة تنتزع الإنسان من جذوره وكأنه شجرة وارفة يتم نزعها من تربتها الأصلية لزرعها في تربة أرضية جديدة وفي مناخ مختلف، وتروى بماء جديد، تحتفظ الشجرة بجذورها وتنمو وتترعرع في الأرض الجديدة وتتغذى من هذه التربة الجديدة فيزداد رونقها وبهاؤها.

وعلى الرغم من شعوري بالغربة وخوفي من المجهول، وإحساسي بأنني دخلت عالما جديدا مختلفا عن عالمي الذي عشت فيه حتى الآن فإنني كنت سعيدة بهذا التغيير وهذا التجديد في حياتي لأنني طول عمري لا أحب الجمود ولا أحب الرتابة والعيش على نفس الوتيرة وأؤمن بأن دوام

الحال من المحال وإن الإنسان يجب ألا يعيش مثل "تنابلة السلطان يأكل ويشرب وينام".

ولعل ما شجعني أكثر، وجعلني أندمج بسرعة في المجتمع الجديد الذي انتقلت للعيش فيه هو أنني أحببت جنيف منذ الوهلة الأولى. لقد أخذني جمال الطبيعة وسحر المدينة الهادئة النائمة في أحضان الجبال.

فما إن وصلت إلى جنيف حتى انبهرت بها وبكل شيء فيها، فهي مدينة جميلة كثيفة الخضرة بها حدائق ضخمة في كل حي من أحيائها وتطل على بحيرة ليمان. أجمل منظر للمدينة من فوق الجسر الذي يقسمها شطرين وهو جسر مون بلان، الذي يرتفع فوق البحيرة الضخمة كأنها بحر لأنها ممتدة حتى الأفق البعيد، ولا يتصور الناظر إليها أنها مستديرة. في وسط البحيرة لسان صخري طويل وفي نهايته ترتفع نافورة جنيف الشهيرة، وهي رمز جنيف مثلما برج إيفل، رمز باريس وساعة بيج بان رمز لندن وتمثال الحرية رمز نيويورك.

تقذف النافورة الضخمة الماء بارتفاع خمسين مترا في تدفق بديع، وبعد أن يصل الماء إلى هذا الارتفاع الشاهق يتساقط من عل ويضيع في البحيرة. الجسر العريض به ست حارات لسير العربات في الاتجاهين وهو حيوي ومزدحم دائما لأنه يصل بين الضفة اليمنى والضفة اليسرى للمدينة.

وعلى ضفاف البحيرة الربوة المشهورة "كولوني" ترتمي في أحضانها قصور الأثرياء من جميع أنحاء العالم الذين اختاروا العيش في هدوء في

مدينة السلام. القصور البيضاء تتدرج في تدرجات متسقة ومنتظمة وتحيط بكل قصر حديقة بها أشجار باسقة عتيقة شديدة الخضرة صيفا وشتاء.

وتكتمل اللوحة البديعة التي رسمها الخالق بإتقان بوجود جبل ضخم في خلفية اللوحة وهو جبل " السااليف" الأسود بسبب الأشجار الضخمة التي تغطيه، وهي أشجار "السابان" شبيهة بشجرة عيد الميلاد، ولون هذه الأشجار أخضر داكن يبدو من بعيد وكأنه أسود. وهذا الجبل موجود على أرض فرنسا المتاخمة لمدينة جنيف ويغطيه الجليد شتاء فيصبح الجبل الأبيض.

وقد انبهرت بالأشجار الباسقة في أنحاء المدينة وخاصة بتعدد ألوان أوراقها ولأول مرة في حياتي أرى أشجارًا بها أوراق خضراء متدرجة الألوانِ من الأخضر الفاتح في لون الفستق إلى الأخضر الغامق في لون البترول الخام، كما رأيت لأول مرة في حياتي أشجارًا مزدهرة أي عليها زهور فوق الأغصان العالية، فهناك إلى جانب الأوراق الخضراء المألوفة أوراق شجر حمراء داكنة وأوراق بيضاء وأوراق وردية. وأجمل ما رأيت من أشجار، تلك التي تزدهر في شهر مايو فقط (وقد وصلت إلى جنيف لأول مرة في شهر مايو) وهي أشجار "الليلاك" بها أوراق أو زهور بلون البنفسج الفاتح على هيئة عناقيد عنب تتدلى من هذه الاشجار في تموُّجات بديعة الشكل.

ولفتت نظري أيضا الورود والزهور المتعددة الألوان التي تزين الشوارع والميادين وعلى جانبي الجسر، وليس فقط في الحدائق، والعجيب

أنهم يبدّلون هذه الزهور ويغيّرون من أنواعها وألوانها وتكويناتها الجميلة كل شهر، وكذلك الحال بالنسبة لساعة الزهور الضخمة الموجودة في نهاية جسر مون بلان، والتي يغيرون منظرها والورود والزهور بداخلها في لوحات جديدة وبديعة تتغير كل شهر، ويقف أمامها السيّاح لأخذ صور تذكارية ومن خلفهم تبدو النافورة الشاهقة.

منظر طبيعي خلاب، الخضرة الكثيفة والمياه الصافية الزرقاء في البحيرة والربوة العالية والجبل الأسود والفيلات والقصور المتناثرة فوق الهضبة والنافورة التي تقذف بالمياه إلى ارتفاع شاهق، لوحة أبدعها الخالق وكأنها كارت بوستال في غاية الجمال والرونق.

المدينة يسودها هدوء تام ونظافة غير معقوله. شوارعها لامعة من النظافة وكأنها غسلت لتوّها، ولم أكن أعرف أنها بالفعل يتم غسلها يوميا في الرابعة والنصف صباحا بعربات الرش الصفراء الضخمة التي تشبه الدبابة، وترش مياهًا ممزوجة بالصابون والمطهرات حتى والمطر يتساقط. عرفت ذلك فيما بعد عندما سكنا في شقة تطل على البحيرة وعلى الشارع الرئيسي الموازي للبحيرة، "كيه جوستاف أدور"، فكان صوت أزيز عربات الرش يوقظني من عز نومي في الرابعة والنصف صباح كل يوم ولا أستطيع النوم بعد ذلك.

وعلى الرغم من أن جنيف مدينة صغيرة وهي ليست عاصمة سويسرا كما يظن البعض فإن موقعها الجغرافي المتميز جعلها أهم من العاصمة "بيرن" وجعل السياح يتوافدون عليها طوال العام.

وتقع جنيف في وسط عدة مقاطعات فرنسية، وهي تشبه الدائرة المحاطة بأراضٍ فرنسية من كل جانب ولا تفصل بينها وبين الأراضي الفرنسية حدودٌ بالمعنى المعروف، أي أسلاك شائكة وفواصل خرسانية أو ما شابه ذلك، بل مجرد "أكشاك" بها رجال حرس ورجال جمارك. وهناك أتوبيسات عامة تصل بين جنيف وفرنسا مثلما تصل الأتوبيسات العادية بين مختلف أحياء جنيف.

كنا ندخل فرنسا بسهولة لشراء المأكولات والمشروبات، لأن أسعار السلع وخاصة اللحوم والألبان ومنتجاتها أرخص بكثير من أسعار جنيف الغالية. فقد كان الفرنك السويسري يوازي خمسة فرنكات فرنسية، وذلك قبل قيام الاتحاد الأوروبي ودخول فرنسا في هذه الوحدة الأوروبية وفي العملة الأوروبية الموحدة "اليورو".

وربما يرجع سبب الغلاء الدائم في جنيف إلى وجود المنظمات الدولية على أراضيها فهي المقر الأوروبي للأمم المتحدة، كما توجد فيها معظم المنظمات الدولية الأخرى وأشهرها منظمة الصحة العالمية، ومنظمة العمل الدولية، والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية والمنظمة العالمية للاتصالات الدولية، ومنظمة الملكية الفكرية إلى جانب كثير من المنظمات الدولية الأخرى. وقد أرسلت كل دولة من الدول الأعضاء بعثة دائمة لتمثيلها في جنيف لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة والمنظمات الدولية.

بحيرة ليمان الضخمة التي تطل عليها مدينة جنيف تحيط بها مدن سويسرية ومدن فرنسية وتسير فيها البواخر السياحية تحمل علمين، من أحد جوانبها علم فرنسا ومن الجانب الآخر علم سويسرا. في الضفة

الجنوبية للبحيرة توجد مدن سويسرا الشهيرة وأهمها مدينة جنيف ثم مدينة لوزان الشهيرة، والتي يوجد بها مقر اللجنة الأولمبية الدولية وكذلك توجد مدينة مونترو التي تشتهر بمهرجان موسيقي الجاز السنوي.

أما في الضفة المواجهة فتوجد المدينة الفرنسية الشهيرة بمياهه المعدنية، مدينة إيفيان، والتي عقدت فيها مؤتمرات مهمة للسلام في العالم وتم توقيع اتفاقيات عالمية مثل اتفاقيات إيفيان التي وضعت حدا للحرب بين فرنسا والجزائر، وتم بموجبها إعلان استقلال الجزائر في مارس 1962.

وجنيف من أقدم المدن الأوروبية فهي مدينة عتيقة وتشهد على ذلك مبانيها القديمة وكنائسها الضخمة الموجودة في المدينة القديمة، خاصة كاتدرائية "سان بيير" التي تعود للقرن الثاني عشر، وكذلك الحواري والأزقة الضيقة جدا التي لا تمر فيها السيارات ولا تزال أرضيتها من البلاطات المربعة الرمادية.

أما مدينة جنيف الجديدة، والممتدة على الضفة اليمنى من جسر مون بلان فقد اكتسبت شهرتها في الوقت الراهن من وجود المنظمات الدولية فيها وخاصة قصر الأمم المتحدة العريق، وحديقته الشاسعة الممتدة على ضفاف البحيرة، والتي يعيش فيها طائر الطاووس الجميل ذو الألوان المزركشة البديعة طليقا، بناء على وصية "البارون إمبان" الذي تنازل عن هذا القصر البديع والحديقة الضخمة المحيطة به ليكون القصر والحديقة مقرا للأمم المتحدة في جنيف.

في بداية السبيعينيات كان الزائرون لقصر الأمم المتحدة سواء لحضور

أحد المؤتمرات أو لزيارة المبنى والحديقة فقط يقفون بجوار الطاووس لالتقاط الصور التذكارية معه، خاصة حين يفرش ريشه في نصف دائرة وكأنه مروحة كبيرة متنوعة الالوان. أما الآن وبسبب تزايد العمليات الإرهابية حول العالم فقد تم تكثيف الإجراءات الأمنية ولم يعد دخول قصر الأمم المتحدة مفتوحا للجمهور، بل للزوار الرسميين فقط، حيث أصبح دخول قصر الأمم المتحدة في جنيف مقصورا على العاملين فيه وعلى الدبلوماسيين، أعضاء الوفود الدائمة، أو مندوبي الدول الأعضاء والمنظمات غير الحكومية لحضور الاجتماعات والمؤتمرات التي تعقد في القصر.

كما يوجد بجنيف أيضا كثير من منظمات المجتمع المدني أو ما يطلق عليه المنظمات غير الحكومية العاملة في مجال البيئة والتنمية وحقوق الإنسان. وتعتبر جنيف المدينة الوحيدة في العالم التي تضم هذا العدد الهائل من المنظمات الدولية ومن المنظمات غير الحكومية. وهذا الوجود المكثف للمنظمات الدولية في هذه المدينة الصغيرة العائمة فوق بحيرة ليمان وتحيط بها الجبال من كل جانب، جبال الألب وجبال الجورا وجبال الساليف، أعطى جنيف طابعا خاصا مميزا عن بقية المدن السويسرية بل عن بقية المدن الأوروبية.

وجود هذا العدد الكبير من المنظمات الدولية في جنيف معناه وجود وفد دائم أو بعثة دائمة أو سفارة لكل دولة من دول العالم لدى هذه المنظمات الدولية، وفي الغالب ما يتكون هذا التمثيل الدبلوماسي من عشرات الموظفين مع عائلاتهم وعائلات العاملين في الخدمات الملحقة

بهم من سكرتارية ومترجمين وعلاقات عامة وسائقين وطباخين. لذا نجد في جنيف أكبر نسبة للأجانب ولا نجد جالية أجنبية واحدة تغلب على الأخرى في العدد مثلما الحال في ألمانيا، حيث أغلبية الأجانب من الأتراك أو في فرنسا حيث الأغلبية من المغاربة.

سكان جنيف الأصليون يقطنون في الضفة اليسرى من جسر مون بلان، حيث توجد المدينة القديمة والكاتدرائية وجامعة جنيف بمبانيها العتيقة وحدائقها الشاسعة، وكذلك يوجد مستشفى جنيف الجامعي العام ومعظم البنوك بل يوجد حي كامل في جنيف يطلق عليه حي البنوك . وقد لفت نظري منذ وصولي العدد الضخم من البنوك في جنيف حتى يقال إنه بجوار كل بنك في جنيف يوجد بنك آخر.

أما الضفة اليمنى حيث تتجمع جميع مباني المنظمات الدولية، فقد أصبحت أيضا مقرا لسكن الأجانب وإقامة العاملين في هذه المنظمات الدولية والذين يطلق عليهم "الدوليون" وإن كان بعضهم يفضل السكن في المقاطعات الفرنسية القريبة التي تحيط بجنيف بسبب انخفاض إيجارات المساكن فيها عن الإيجارات المرتفعة في جنيف.

الجاليات الأجنبية في المدينة متنوعة ومتعددة، جاليات من أكثر من مائة وتسعين دولة وبأعداد متقاربة. وإلى جانب الدوليين يوجد في جنيف كثير من المهاجرين الأجانب. في السبيعينيات كان معظم المهاجرين إلى جنيف من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والمانيا وتركيا. أما في الثمانينيات وبعد اندلاع الحرب الأهلية في يوغوسلافيا فقد توافد على جنيف

مهاجرون جدد من الجمهوريات المستقلة عن يوغوسلافيا مثل كوسوفا وصربيا والبوسنة والهرسك، وذلك بعد موجات المهاجرين المسلمين من تونس والمغرب والجزائر ولبنان.

وقد اشتهرت جنيف عبر التاريخ بأنها مرفأ للمهاجرين خاصة المضطهدين في بلادهم وطالبي اللجوء السياسي بسبب الاضهاد الديني أو السياسي. كل هذه العوامل جعلت من جنيف بلد المغتربين، أو بالأصح بلد التعددية الثقافية، حيث يوجد أكبر تجمع بشري من جنسيات وثقافات ولغات وحضارات متعددة ومتنوعة، مما أثرى المدينة وجعل شعارها "العيش معا في سلام" فأصبحت بحق مدينة السلام ومدينة التعددية الثقافية.

أحببت جنيف وأحببت العيش فيها، وكنت أجد نفسي وأنا واقفة أمام بحيرة ليمان وكأنني على شاطئ بحر إسكندرية وأنظر إلى الأفق البعيد وأتنسم الهواء المنعش، ولكن سرعان ما تلفحني البرودة فأفيق من خيالي وأرتجف من البرد وأتنهد شوقا إلى نسيم بحر إسكندرية اللطيف اللا بارد ولا حار الخفيف المنعش. اندمجت في مجتمع جنيف المتعدد الثقافات واللغات، وأحسست وكأنني أعيش من جديد في جو الإسكندرية الكوزموبوليتاني في الخمسينيات من القرن العشرين.

لفت نظري في جنيف كثرة عدد النساء، في كل مكان تجد عدد النساء يفوق عدد الرجال، في الأماكن العامة والشوارع والأسواق وخاصة في الحدائق، حيث تأتي النساء وعلى الأخص، المتقدمات في السن، وكل

واحدة تصطحب كلبا صغيرا، وتقف كل واحدة منهن ممسكة بحزام جلدي طويل مربوط فيه الكلب وتدردش مع سيدة أخرى ممسكة هي أيضا بحزام كلبها، بينما الكلبان يقتربان من بعضهما وكأنهما يتعارفان على بعضهما.

أدهشني هذا المنظر المتكرر في جميع حدائق جنيف وعرفت بعد ذلك أنهم يحبون الكلاب ويدللونها تدليلا يفوق الوصف، ويشترون لها علب أكل مخصوصة من السوبر ماركت ذات ماركات عالمية مشهورة بها لحوم أو أسماك مجهزة ومزودة بفيتامينات وتوابل لفتح شهية الكلاب وكذلك الحال بالنسبة للقطط أيضا. وكل من تمتلك كلبا أو قطة تخرج به يوميا للنزهة في الحديقة حتى يتمشّى الكلب يوميا ويلتقي بكلاب أخرى حتى لا يشعر بالغربة والاكتئاب.

لفتت نظري أيضا ظاهرة أخرى وهي أن كثيرًا من السيدات المتقدمات في السن اللواتي ليس لديهن كلب، يأتين أيضا إلى الحديقة يوميا وما إن أجلس على أحد المقاعد الخالية في الحديقة حتى تأتي مسرعة سيدة متقدمة في السن، وعندما أقول متقدمة في السن فمعنى ذلك أنها فوق السبعين، تأتي الواحدة منهن وتجلس بجواري على نفس الدكة، وتبدأ في الحديث بلا مقدمات، تتكلم في أي موضوع وتشتكي من الوحدة وأنها تأتي إلى الحديقة يوميا للحديث مع أي إنسان لأنها إن لم تخرج وتأتي إلى الحديقة فلن تجد من تتكلم معه، لأنها تعيش وحيدة، وإن لم تخرج من بيتها فيمكن أن تقضي أياما بل أسابيع لا تفتح فمها فلا يوجد أحد تتكلم

معه بعد أن توفي الزوج ورحل الأولاد وتزوجوا ولا يأتون لزيارتها إلا في الأعياد. هذه الظاهرة منتشرة جدا في جنيف، ظاهرة النساء المتقدمات في السن اللواتي يعشن بمفردهن ويجدن في مرتادي الحدائق العامة متنفسا للكلام معهم.

وهناك تقليد جميل في جنيف بالنسبة لهؤلاء النساء المتقدمات في السن واللواتي يعشن أحيانا حتى يبلغن المائة سنة، وحين تبلغ الواحدة منهن سن المائة يأتي عمدة مدينة جنيف لزيارتها في بيتها بمناسبة عيد ميلادها المئوي ويحضر لها باقة زهور وهدية من اختيارها ويصور التليفزيون المحلي اللقاء ويبثه في نشرة الأخبار المحلية ويتم التقاط الصور التذكارية وتنشر في الصحف المحلية للمدينة. والغريب أن عدد النساء اللواتي يعشن في جنيف وقد بلغن سن المائة يصل إلى العشرات ومعظمهن يتمتعن بصحة جيدة ويتحدثن بهذه المناسبة في التليفزيون المحلي بدون لجلجة أو رعشة وهن بكامل مقدرتهن العقلية.

* * *

عندما سافرت إلى جنيف لأول مرة عام 1972، دخلت سويسرا بتأشيرة لزيارة الزوج لمدة ثلاثة أشهر فقط، فلم تكن سويسرا في ذلك العهد تمنح الطلبة الأجانب الذين يدرسون في جامعاتها حق اصطحاب زوجاتهم وأولادهم معهم إلى سويسرا. وكان الطالب الأجنبي يحصل على تصريح إقامة كطالب يجدد سنويا بشرط أن يقدم شهادة تثبت أنه

مقيد بالفعل للدراسة بالجامعة، ويتم منح تأشيرة دخول لسويسرا لمدة ثلاثة أشهر فقط للزوجة والأولاد لزيارة الزوج، وهذه التأشيرة لا تعطي للزوجة الزائرة حق الإقامة أو العمل.

كان ذلك في بداية السبعينيات قبل أن يتم تعديل قوانين الأجانب في بداية الثمانينيات حين انضمت سويسرا ووقعت على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والذي يضمن حقوق العمال والموظفين والطلبة الأجانب، وينص على تجميع العائلة للعيش والإقامة في البلد الذي يقيم فيه الزوج. وبناء على ذلك قامت سويسرا في بداية الثمانينيات بتعديل قانون الأجانب لديها وتم السماح للأجانب من الطلبة والموظفين والعمال الأجانب باستقدام أسرتهم، أي الزوجة والأولاد ومنحهم بطاقات إقامة سنوية.

أما نحن فقد تم تطبيق القانون القديم على حالتنا والذي لا يسمح باستقدام الزوجة والأولاد إلى البلد الذي يقيم فيه الزوج، لذا فقد حصلت على تأشيرة دخول لسويسرا، أنا والأولاد، لزيارة زوجي، طالب الدراسات العليا، لمدة ثلاثة أشهر فقط، غير قابلة للتجديد. ولكن نظرا لأن زوجي قدم أوراقي لجامعة جنيف ليتم قيدي كطالبة للدراسات العليا أنا أيضا، وحددت لي الجامعة موعدا للاختبار وإجراء امتحان قبل قبولي بها، فقد جئت إلى جنيف لزيارة الزوج وفي نفس الوقت أدّيت الاختبار للقبول بالجامعة ونجحت فيه وتم قبولي وقيدي كطالبة جامعية.

أصبح من حقي الحصول على تصريح إقامة سنوية باسمي كطالبة.

ولكن لم يكن من حقي، في ظل هذا القانون القديم الساري، إبقاء أولادي معي.

ووجدنا أنفسنا في مشكلة عويصة، فهو طالب وعنده تصريح إقامة سنوية بمفرده وأنا طالبة وعندي تصريح إقامة سنوية بمفردي، ولكن لا أنا ولا هو من حقنا الاحتفاظ بأولادنا في سويسرا ليقيموا معنا. اقترح زوجي أن نعيد الأولاد إلى الإسكندرية ليعيشوا مع والدتي أو والدته طوال العام الدراسي ونذهب لزيارتهما سنويا في الإجازة الصيفية.

ورفضت أنا هذا الحل رفضا باتا فقد كنت متعلقة تعلقا شديدا بالولدين وكانا صغارًا في السن، أربع سنوات ونصف السنة وسنتين، وكان من المستحيل أن أحرمهما من حنان الأم وهما في هذه النسن الصغيرة. لجأنا إلى المستشار الثقافي، الدكتور عاطف صدقي، الذي كان يشغل منصب المستشار الثقافي المصري في سويسرا وفرنسا والمسئول عن المبعوثين، والذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء مصر في عصر الرئيس أنور السادات والرئيس حسني مبارك أيضا.

والحق يقال، كان الدكتور عاطف صدقي يشرف على كل كبيرة وصغيرة تتعلق بالمبعوثين المصريين في فرنسا وسويسرا ويقدم لهم النصيحة ويرعاهم ويدافع عن حقوقهم.

ولقد نصحنا، زوجي وأنا، بقبول شروط جامعة جنيف وبالانخراط في الدراسة في السنة الثالثة الجامعية، على أن نبذل قصارى جهدنا للحصول على الليسانس في أقل من سنتين، ثم التسجيل للدراسات العليا. كما

نصحنا باللجوء إلى أحد المحامين لرفع قضية والمطالبة بتجميع الأسرة، لأنه ليس من الإنسانية تفريق أم عن طفليها، خاصة أن الطفلين في سن صغيرة جدا. وبالفعل رفعنا قضية وعقدنا الأمل على موافقة السلطات السويسرية لهذه الحالة الإنسانية، واعتقدنا أن السلطات ستمنحنا استثناء من القانون. ولكن جاءنا الرد بالرفض القاطع فلا استثناءات في قانون الأجانب لأي سبب من الأسباب.

ذهلت من هذا الرفض التعسفي القاسي، ولكنني أدركت فيما بعد أن سياسة سويسرا مع الأجانب سياسة صارمة جدا والسويسريين يخافون من الأجانب ومن ازدياد عددهم، لذا يطبقون هذه السياسة التقييدية للحد من عدد الأجانب ولا توجد استثناءات ولا واسطة ولا محسوبية على الإطلاق. أسقط في يدي ووجدت نفسي بين نارين هل أعود مع الولدين إلى مصر وأترك الزوج والدراسة والأمل في استكمال الدراسات العليا وتحقيق طموحي وتطلعاتي العلمية والحصول على الدكتوراه، أم أحرم الولدين من حناني ورعايتي وأرسلهما للإقامة مع أمي في الإسكندرية وأبقى مع زوجي في جنيف وأحقق آمالي وطموحاتي العلمية؟

وعشت في هذه الدوامة شهرا كاملا وكنت أصلي وأطلب من الله أن يخرجني من هذه الغمة ويرشدني لما فيه الخير. وبعدما ضاقت حلقات الحيرة واليأس، انفرجت الأزمة فجأة.

كان زوجي يعطي دروسا في اللغة الفرنسية لمدير البنك العربي في جنيف، وقد حدثه زوجي عن مشكلتنا فأخبره مدير البنك العربي بأن

المستشار السعودي يبحث عن مترجمة عربية تجيد اللغات الفرنسية والإنجليزية للعمل في الوفد الدائم للمملكة العربية السعودية لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف. ووعد مدير البنك العربي زوجي بأن يتوسط لنا لدى المستشار السعودي على أن أتقدم بطلب للعمل كمترجمة في السفارة وأجتاز الاختبار للوظيفة، وإذا تم تعييني في السفارة فستنتهي مشكلتنا، لأنه سيصبح من حقي الحصول على بطاقة إقامة دبلوماسية لي ولأولادي في سويسرا.

ولقد شاء الله وما شاء فعل!

استجاب الله لدعائي وفرّج كربي وأخرجني من الصراع النفسي الذي كنت أعيش فيه، وتم تعييني في المكتب الثقافي السعودي التابع للسفارة السعودية في جنيف بمرتب ألف وخمسمائة فرنك سويسري شهريا. مرتب يفوق مرتب البعثة التي كان يحصل عليها زوجي من إدارة البعثات!

وهكذا استقرت أوضاعنا في جنيف وألحقت ابني الصغير بحضانة قريبة من مكان السكن، بينما ألحقت ابني الأكبر بالمدرسة الحكومية في نفس الحي. وانخرطت في العمل في المكتب الثقافي للسفارة السعودية في جنيف.

كان العمل في السفارة أو "الدوام" باللهجة السعودية على فترتين. فكنت أذهب إلى السفارة في الفترة الصباحية من التاسعة وحتى الثانية عشرة والنصف وأعود إلى البيت ظهرا وأعد وجبة الغذاء للاولاد الذين

يرجعون من الفترة الدراسية الصباحية لتناول الغداء، ثم يعودون للمدرسة لفترة بعد الظهر حتى الرابعة والنصف. وأرجع أنا أيضا إلى المكتب من الثانية والنصف وحتى الخامسة. ثم أذهب إلى الجامعة لحضور المحاضرات المسائية وأعود في السابعة مساء ونجتمع كلنا للعشاء وقضاء أمسياتنا في البيت.

وهكذا كنت أوزع وقتي بين العمل كمترجمة في المكتب الثقافي السعودي نهارا، وبين حضور المحاضرات المسائية في جامعة جنيف، بينما زوجي يحضر المحاضرات الصباحية وفي المساء آخذ منه كراسة محاضراته وأقرأ ما دوّنه فيها من معلومات وملاحظات.

وكأنما يعيد التاريخ نفسه، فمثلما كان يحدث أثناء دراستنا في جامعة الإسكندرية عندما كنت أستعير من زميلة الدراسة ماري لويز، كراسة محاضراتها وأنقل ما كتبته فيها لأني كنت أعمل مدرسة في مدرسة سان جوزيف بمحرم بك بالإسكندرية، وبالتالي لم أكن أحضر المحاضرات الصباحية بينما هي تحضرها وتعيرني كراسة محاضراتها، فآخذ ما فيها من معلومات وأستذكرها وأدخل الامتحان وأنجح بتقدير ممتاز، بينما تنجح ماري لويز بتقدير جيد. تكرر الأمر في جامعة جنيف وكنت أستعير كراسة محاضرات زوجي وأنقل ما فيها وأستذكره فأنجح بتقدير ممتاز وينجح هو بتقدير جيد.

* * *

في جامعة جنيف اكتشفنا أن دراسة الأدب الفرنسي ترتكز على النقد الأدبي، وتهتم بالمدارس النقدية الحديثة المتعددة والتي لم نسمع عنها في مصر ولم ندرسها إطلاقا. عرفنا لأول مرة أصول الدراسات النقدية ومكونات النص الأدبي وكيفية إختيار النقاط الأساسية في أي نص أدبي وكيفية تحليل أسلوب الكاتب واستخراج أهم خصائصه الفنية ومقارنته بأقرانه من الكتاب من نفس العصر. كما تعلمنا كيفية إعداد بحث وأصول الخطابة وفن الإلقاء وفن الاختصار والتقيد بالحجم والوقت. ولم تعد الدراسة مجرد تلقين وحفظ ولكن تقييم ونقد وإعداد بحث بأسلوب نقدي حديث لكل نص أدبي ندرسه.

لم يكن الأستاذ هو الذي يحلل النص ويملي علينا بحثه، بل أصبح كل طالب هو الذي يعد البحث والأستاذ هو الذي ينصت إلى الطالب وليس العكس.

ازداد عدد المبعوثين المصريين إلى جنيف وأصبح اثنين وعشرين مبعوثا من مختلف الجامعات المصرية ومختلف التخصصات، منهم من كان يجيد اللغة الفرنسية ومنهم من لا يجيدها على الإطلاق، وكان لزاما عليه أن يتعلم لغة الدراسة قبل الالتحاق بالدراسات العليا. وجد الكثير منهم صعوبة في التأقلم مع الثقافة الفرنسية وتعلم اللغة. فضّل بعضهم تحويل بعثته إلى إنجلترا حتى لا تضيع عليه سنة كاملة في الالتحاق بكلية اللغات والحضارة الفرنسية في جامعة جنيف لقضاء سنة دراسية تمهيدية لتعلم اللغة والحضارة الفرنسيتين. والبعض الآخر فضّل البقاء في جنيف خاصة بعد

أن يجد عملا بمرتب مغرٍ، حيث كان الطالب في الجامعة يحصل على تصريح إقامة سنوية ويصبح من حقة العمل لنصف وقت، أي عشرين ساعة في الأسبوع، فتحلو له الحياة في جنيف ويرفض العودة إلى مصر حتى بعد أن تنتهي مدة البعثة.

وبعد حرب أكتوبر 1973، التي ردت لنا اعتبارنا كمصريين وجعلتنا نفتخر بمصريتنا، قام المبعوثون بتكوين اتحاد للطلبة المصريين في جنيف وانتخبوا زوجي، رئيسا لهذا الاتحاد بصفته أقدم مبعوث جاء إلى جنيف في تلك الفترة، وعقدنا عدة ندوات بين الطلبة في الجامعة للتعريف بمصر وبانتصارنا في العبور والحرب، لأن الصحافة ووسائل الإعلام السويسرية، وكلها تقع تحت سيطرة اليهود المؤيدين لإسرائيل، كانت منحازة لإسرائيل وتشكك في انتصاراتنا في حرب أكتوبر.

انضممت أنا لاتحاد الطلبة المصريين، وكنت أقضي معهم بعض الوقت في المساء في حديقة الجامعة الفسيحة المفتوحة للجمهور، ونتناول بعض المشروبات في كافتيريا مطعم الجامعة المدعم من الحكومة السويسرية، وشعرت بأنني واحدة منهم. كانوا يحصلون على مرتب بعثة شهري بينما أنا وحدي أتحمل مصاريفي الدراسية وأنهك نفسي بين العمل على فترتين في السفارة السعودية وبين الدراسة بالجامعة، على الرغم من أنني لا أقل عن أي واحد من المبعوثين في شيء، بل ربما أزيد لأني أكثر إجادة للغة الفرنسية منهم جميعا، فأنا الوحيدة خريجة المدارس الأجنبية بينهم، وكنت أساعدهم جميعا في كتابة خطاباتهم لإدارة الجامعة وللسلطات

السويسرية. لذا تساءلت في نفسي لماذا لا أنضم رسميا لمجموعة المبعوثين؟

أرسلت طلبا للمستشار الثقافي في برن، الدكتور عاطف صدقي، أطلب منه ضمي للمبعوثين المصريين ومنحي بعثة دراسية خاصة أنني نجحت في اختبارات جامعة جنيف وانخرطت في الدراسات العليا استعدادا للحصول على الماجستير. وصلني رد الدكتور عاطف صدقي بعد شهرين، وكان أغرب بكثير مما توقعت، فقد تم رفض طلبي للأسباب التالية: "شروط الحصول على بعثة دراسية هو أن يكون المبعوث يعمل بالتدريس في إحدى الهيئات الدراسية المصرية أو أن يكون شقيق شهيد أو ابنة شهيد اوأرملة شهيد"!

وهكذا ضاع أملي في الحصول على بعثة من مصر لمواجهة مصاريفي الدراسية، لأن شروط البعثة لا تنطبق عليّ. وعلى الرغم من أنني كنت الدارسة المصرية الوحيدة بين مجموعة الطلبة المصريين في جامعة جنيف التي لا تتمتع بإشراف إدارة البعثات ولا المستشار الثقافي المصري، فإنني كنت أكثرهم جدية وتقدما في الدراسة. وبعد عام ونصف العام من الدراسة، وفقنا الله، زوجي وأنا، وحصلنا على الليسانس في الآداب الفرنسية من جامعة جنيف، وهكذا استطعنا أن نسجل أنفسنا للدراسات العليا.

انخرطنا بعد ذلك في الدراسات العليا وبدأ كل واحد منا يعد بحثا مطولا، وفي حالة قبول البحث هذا من الأستاذ المشرف على الدراسات العليا، يتم تطويره واستكماله في أطروحة يحصل بموجبها الطالب على

الدكتوراه. وانقضت سنوات البعثة الأربعة وعلى الرغم من حصول زوجي على سنة خامسة استثنائية لإكمال دراسته والحصول على الدكتوراه، وكذلك الحال بالنسبة لأغلب المبعوثين، فإن ثلاثة فقط من المبعوثين الـ 22 هم الذين حصلوا على الدكتوراه وعادوا إلى الوطن.

أما الباقون ومنهم زوجي فقد ضاقوا ذرعا بالصعوبات وبالمماطلة من قبل الأساتذة وإدارة الجامعة، وبعد انتهاء سنوات البعثة وانقطاع المرتب الشهري عنهم، فضّلوا ترك الدراسة والبحث عن عمل للبقاء في جنيف وعدم العودة إلى مصر، لأن العودة بدون الحصول على الدكتوراه تلزمهم بإعادة كل ما صرفته الدولة عليهم من أموال ومرتبات أثناء سنوات البعثة. نجح بعضهم في الحصول على وظيفة في إحدى السفارات العربية خاصة أن السفارات كانت تمنح موظفيها المحليين تصريح إقامة دبلوماسية في جنيف وبعض الامتيازات الأخرى.

والحقيقة أن معظم هؤلاء الشباب المبعوثين للحصول على الدكتوراه لم تكن لديهم طموحات علمية بل كل طموحاتهم كانت محصورة في الثراء السريع، كل ما كان يهمهم هو الحصول على المال ليعيشوا في يسر ورخاء. لم تكن الدراسات العليا والحصول على الدكتوراه بالنسبة لهم غاية في حد ذاتها بل وسيلة للوصول إلى مستوى معيشي محترم، بتوفر المال والثراء واقتناء كل ما يتمنونه في ذلك الوقت من شقة بها أثاث مودرن على أحدث طراز، وسيارة فارهة وملابس من أغلى الماركات العالمية ووظيفة محترمة تضمن لهم كل هذه الامتيازات وتمكنهم من زيادة رصيدهم في البنك،

فإذا توفرت للواحد منهم كل هذه الإمكانيات فإنه يسعد بها ويهمل الدراسات العليا ولا يهتم بالحصول على شهادة الدكتوراه، فما كان يتمناه من خلالها حصل عليه بدونها، فلماذا يجهد نفسه بالاستذكار وتحصيل العلم بعد ما جرى المال بين يديه بسهولة ويسر؟ وهكذا انقطع زوجي عن الدراسة والتحق بالعمل في سفارة الكويت كمترجم وتدرج في الوظائف حتى أصبح مستشارا إعلاميا للسفارة.

أما أنا فقد قطعت شوطا طويلا في إعداد بحث الماجستير وكنت قد اخترت موضوعا حساسا للغاية وهو "صورة الرسول محمد في الأدب الفرنسي" فقرأت عشرات المؤلفات لأدباء فرنسيين كتبوا عن الرسول وشخصيته وغزواته والدين الذي جاء به. وجدت افتراءات بشعة لا تعد ولا تحصى، كلها تنكر نبوة الرسول محمد (ﷺ) وتصفه بصفات ونعوت بعيدة كل البعد عن الحقيقة. ألصقوا به اتهامات بذيئة تقشعر منها أبدان أي إنسان مسلم أو حتى غير مسلم، وتعطي صورة مشوّهة عن الرسول الكريم وعن كتاب الله وعن المسلمين. كتبوا عن الرسول الكريم (ﷺ) في أدبياتهم أنه محتال وشاعر يصاب بنوبات صرع فيؤلف ما يسمى بالقرآن، وهو الكتاب الذي ألفه بعد قراءة التوراة والإنجيل خلال رحلاته التجارية إلى الشام فاقتبس من التوراة والإنجيل الكثير، وعلى الرغم من ذلك لا يزال المسلمون يقرأون هذا الكتاب ويؤمنون بأنه كتاب مقدس منزّل من السماء.

كل هذه الافتراءات لا تزال موجودة في كتب تزخر بها المكتبات

الفرنسية مثل كتابات دي ريار، والكونت دي بولنفليه، وشاتوبريان وفولتير وجان جاك روسو ولامارتين وحتى فيكتور هيجو وغيرهم من كبار الأدباء الفرنسيين.

كما أنني اهتممت أيضا بالترجمات المختلفة للقرآن الكريم إلى الفرنسية، لأنها غالبا ما كانت تبدأ بمقدمة عن حياة الرسول محمد (بصفته مؤلف القرآن حسب ادعائهم). وأعتقد أن هذه الافتراءات على الرسول الكريم أشد وطأة في الإساءة إلى الرسول مما ألحقت به الرسوم الكاريكاتوريه الدنماركية المسيئة للرسول في عام 2007، والتي أظهرت الرسول وعلى رأسه قنبلة على وشك الانفجار توحي بأنه إرهابي. ولقد أثارت هذه الرسوم المسيئة أزمة كبيرة بين العالم العربي الإسلامي وبين الدنمارك ومعظم الدول الأوروبية. فقد اعتبر الأوربيون أن هذه الرسوم تدخل في إطار حرية التعبير عن الرأي وهي مكفولة لكل مواطن حر في كل دول القانون، بينما اعتبر المسلمون هذه الرسوم إساءة للرسول الكريم وازدراء للدين الإسلامي بل ولكل الأديان. وطالبوا حكومة الدنمارك بالاعتذار وبمنع نشر هذه الرسوم الكاريكاتوريه المسيئة للرسول، ولكن ما لم يفهمه المسلمون في العالم العربيي والإسلامي أن الحكومة في الدول الديمقراطية لا تسيطر على الصحافة ولا على وسائل الإعلام، وأن الحكومات الأوروبية لا تستطيع أن تمنع صحيفة من نشر ما تريد الصحيفة نشره، وأن حرية التعبير مكفولة للجميع. وهكذا لم تعتذر الحكومة الدنماركية لأنها ليست هي المسئولة عن النشر فلماذا تعتذر عن شيء لا يد لها فيه، و لم تقبل الصحيفة الاعتذار عن نشر الرسوم المسيئة لأنها اعتبرت

أن النشر يدخل في إطار حرية التعبير وليس من حق أحد أن يتدخل فيما تنشره.

وعلى الرغم من مقاطعة معظم البلاد الإسلامية للمنتجات الدنماركية فإن ذلك لم يحل الأزمة و لم تستطع المقاطعة أن تنتصر على حرية التعبير، طبقا للمفهوم الديمقراطي الأوروبي، وأعادت الصحيفة الدنماركية نشر الرسوم المسيئة للرسول بل إن كثيرًا من الصحف في معظم الدول الأوروبية أعادت نشر هذه الرسوم مثلما حدث في فرنسا وفي سويسرا. وعلى الرغم من أن المسلمين في الدنمارك وفي معظم هذه الدول الأوروبية رفعت قضايا ودعاوى ضد الصحف التي نشرت الرسوم المسيئة للرسول الكريم فإن المسلمين خسروا جميع هذه القضايا المرفوعة ضد الصحف الأوروبية التي نشرت الرسوم المسيئة. وكانت حيثيات الحكم في الدنمارك والمانيا وفرنسا وسويسرا واحدة ومطابقة لبعضها "من حق الصحف أن تنشر ما يروق لها ويدخل ذلك في إطار حرية التعبير التي يكفلها القانون في الدولة الديمقراطية".

والحقيقة أن ردود الفعل الغاضبة من جانب المسلمين كان مبالغًا فيها واتسمت بكثير من العنف والذي ظهر على شاشات تليفزيونات العالم من خلال مناظر المظاهرات الاحتجاجية وحرق أعلام بعض الدول الأوروبية التي نشرت الرسوم، وحرق وتدمير مقر سفارات هذه الدول في البلاد الإسلامية. وكان لمناظر العنف هذه تأثير كبير على الأوروبيين ولقد عانينا نحن المسلمين المقيمين في الدول الأوروبية من أزمة الرسوم المسيئة

للرسول الكريم التي كانت لها تداعيات سيئة جدا علي المسلمين في معظم الدول الأوروبية، وازداد نشاط أحزاب التيار اليميني المتشدد المتطرف في كل الدول الأوروبية، وكل هذه الأحزاب اليمينية تكره الأجانب وخاصة المسلمين مما زاد من اتساع الفجوة بين الأوروبيين والمسلمين المقيمين في الدول الأوروبية وأسهم في انتشار الظاهرة المتزايدة في الغرب والتي يطلقون عليها "الإسلاموفوبيا" أي الخوف من الإسلام ومن المسلمين.

* * *

لقد اعتقدت وأنا أعد رسالة الماجستير، في منتصف السبعينيات، عن شخصية الرسول محمد (ﷺ) في الأدب الفرنسي أنه لزاما عليّ أن أدافع عن الرسول الكريم (ﷺ) وأفند هذه الافتراءات والخزعبلات والخرافات، الموجودة عنه في الأدب الفرنسي، الواحدة تلو الأخرى وأدحضها بالحقائق الثابتة الموجودة في كتب السيرة وتفسيرات القرآن الكريم. وحتى أتمكن من المادة العلمية لدحض هذه الافتراءات أخذت أقرأ كتب التراث الإسلامي عن السنة النبوية الشريفة، وتفسيرات كبار المفسرين للقرآن الكريم، ومعظم أمهات الكتب العربية التي لم أكن قرأتها من قبل. قرأت تفسير الطبري وتفسير ابن كثير والزمخشري وابن تيمية وتفسير الجلالين والتفسيرات الحديثة، تفسير سيد قطب والشيخ شلتوت، إلى جانب روائع المكتبة الإسلامية مثل قوت القلوب لأبي طالب الحارثي وإحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي. وأخذت أقارن بين الترجمات

الفرنسية للقرآن الكريم والتفسيرات الإسلامية ومقاصد الشريعة وكتب السنة والسيرة النبوية الشريفة.

بدأت باستخراج كل الآيات القرآنية التي تذكر الرسول محمد لتحديد مكونات صورته وشخصيته من النص القرآني. ولم أجد سوى آيات قليلة جدا تتحدث عن شخص الرسول الكريم، ولم يتم ذكر اسم محمد في القرآن الكريم سوى في السورة التي تحمل اسمه وفي آيتين أخريين ومرة واحدة تحت اسم أحمد، بينما ذكر القرآن الكريم اسم موسى مائة وواحد وثلاثين مرة، واسم عيسى عشرات المرات، ووجدت في ذلك أكبر دليل لدحض ادعائهم بأن محمدًا هو مؤلف القرآن لأنه لوكان هو المؤلف لكان أسهب في الحديث عن نفسه وفي ذكر اسمه ولما ذكر اسم الأنبياء الآخرين أكثر من ذكر اسمه شخصيا.

ولكن البروفيسور جان ستاروبنسكي، المشرف على رسالة الماجستير، وهو من أكبر أساتذة مدرسة النقد الأدبي الحديث وهي مدرسة فرديناند دي سوسيور، وهو يهودي أيضا، لم يعجبه دفاعي الشديد عن الرسول الكريم وقال لي إن أسلوبي بعيد كل البعد عن الحياد والموضوعية العلمية، وإن كتابتي يغلب عليها الحماس والاندفاع والانفعال بينما المفروض في إعداد أي دراسة أكاديمية البعد عن الانحياز وطرح الأفكار بأسلوب براجماتي عقلاني يرتكز على المنطق والإقناع وليس على العاطفة والانفعال.

ومن ثم تم رفض البحث الذي أعددته، وطلبت مني إدارة الدراسات العليا بالجامعة تغيير الموضوع والبعد عن الموضوعات الدينية بل يستحسن

إختيار موضوع أدبي اجتماعي بعيد عن حساسية إنتمائي الديني! بعد هذا الرفض كان يجب أن أعيد كل شيء من جديد وأختار موضوعا جديدا وأستاذا جديدا للإشراف على الماجستير ثم على الدكتوراه.

وشاء العلي القدير أن أحمل للمرة الثالثة. وبدأت أستعد لاستقبال المولود الجديد. وكنت لا أزال أعمل كمترجمة في المكتب الثقافي السعودي. وحين حان موعد الولادة تقدمت بطلب للسفارة السعودية للحصول على إجازة وضع وجاءني الرد بالرفض حيث إنهم لم يجدوا في قانون العمل السعودي في ذلك الوقت، منتصف السبعينيات، مادة تجيز منح الموظفة إجازة وضع، فأعطوني إجازة مرضية لمدة ثلاثين يوما.

وأكرمني الله ورزقني بالبنت التي تمنيتها منذ أول حمل. فرحتي بميلاد ابنتي جعلتني أنسى الدراسات العليا وطموحاتي وأحلامي وتفرغت تماما للمولودة الجديدة وكأنني أصبحت أمًّا لأول مرة.

أما زوجي فقد تعلق بالمولودة الجديدة، ولأول مرة في حياته بدأ يعد الرضعة الإضافية للمولودة ويصر على إرضاعها بنفسه من الزجاجات الملونة جميلة الصنع والمرسوم عليها رسومات الميكي ماوس. ومرت سنة وبدأت ابنتي تسير على قدميها فألحقتها بحضانة موظفي الأمم المتحدة، حيث إنني موظفة في سفارة بعثة المملكة العربية السعودية لدى الأمم المتحدة، وزوجي أيضا موظف في سفارة دولة الكويت لدى الأمم المتحدة، وكانت مصروفات الحضانة باهظة عشرة بالمائة من مرتب كل من الأب والأم.

وكنت قد نسيت تماما تجديد التسجيل للدراسات العليا في غمرة فرحتي وانشغالي بالمولودة الجديدة. وذات يوم فوجئت بخطاب مسجل من جامعة جنيف به إنذار بالفصل من الجامعة إن لم أسارع بالتسجيل للدكتوراه بعد أن اعتمدوا السنوات التي قضيتها في إعداد بحث الماجستير كدبلوم تمهيدي للدكتوراه.

حمدت الله أن مجهودي الدراسي لم يضع هباء.

وقررت مواصلة الدراسة والتسجيل للدكتوراه واتجهت إلى الأدب العربي الحديث وتم اختيار أستاذ مشرف جديد للإشراف على أطروحتي للدكتوراه وهو البروفيسور سيمون جارجي، رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة جنيف، وهو أستاذ فرنسي من أصل تركي. طلب مني إعداد بحث تمهيدي من عشر صفحات عن موضوع الأطروحة الذي وقع عليه اختياري. وإخترت موضوعا عن الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) وكنت ولا أزال من أشد المعجبين بكتاباتها سواء الكتابة الأدبية في بداية حياتها أو بعد ذلك كتاباتها الدينية الممتازة وخاصة مؤلفاتها العديدة عن نساء بيت النبوة.

ولكن المشرف الجديد لم يعجبه الموضوع لأنه اعتقد أنني سأعود للدفاع عن الإسلام والرسول الكريم من خلال تحليل مؤلفات بنت الشاطئ. طلب مني الابتعاد عن الموضوعات الدينية واختيار موضوع اجتماعي وأدبي من العصر الحديث، وبما أنني أهتم بالمرأة المسلمة فقد نصحني باختيار موضوع عن تطور أوضاع المرأة في المجتمع المصري من خلال مؤلفات

كاتب مصري حديث. وافقت على اقتراح البروفيسور فطلب مني أن أختار روائيًا مصريًا يعبر في كتاباته عن أعماق المجتمع المصري. فأخذت أعيد قراءة كل ما قرأت لهم من أدباء القرن العشرين: طه حسين، يوسف السباعي، يوسف إدريس، إحسان عبد القدوس، نجيب محفوظ. وقفت عند نجيب محفوظ وأعدت قراءة الثلاثية ووجدت فيها ضالتي، لأنها تعبر عن تطور المجتمع المصري منذ ثورة 1919 وحتى 1944، وبها نماذج وشخصيات نسائية تعكس تطور وضع المرأة في المجتمع المصري. وعندما ذهبت إلى البروفيسور وعرضت عليه فكرتي سألني في دهشة: "من نجيب محفوظ هذا؟". كان ذلك عام 1978، ولم يكن أديبنا الكبير معروفا بعد في أوروبا. أخرج البروفيسور من المكتبة موسوعة الأدباء في العصر الحديث وبحثنا في حرف الميم بحثا عن محفوظ فوجدنا ثلاثة أسطر فقط عنه: "روائي مصري ولد في القاهرة عام 1911 ورواياته تتسم بالواقعية ويعبر فيها عن واقع المجتمع المصري الحديث من خلال شخصيات متعددة من عامة الشعب تعيش في الأحياء الشعبية في القاهرة القديمة ومن أشهر رواياته الثلاثية".

وبحثنا عن ترجمات لنجيب محفوظ إلى اللغات الأوروبية فوجدنا ترجمات لبعض أعماله صدرت في بيروت باللغات الإنجليزية والفرنسية، حيث نشرت بعض المقتطفات من "السكرية" إلى اللغة الفرنسية ترجمها مترجم لبناني اسمه فنسان مونتوى، ونشرت في بيروت عام 1961، وصدرت له بالإنجليزية أيضا في بيروت عام 1966 رواية "زقاق المدق" التي ترجمت أيضا إلى الفرنسية وترجمها مترجم لبناني اسمه أنطوان

كاتان وصدرت عام 1970 تحت عنوان "حارة المعجزات". وأول ترجمة لرواية له في أوروبا كانت ترجمة "أولاد حارتنا" إلى الألمانية وصدرت في مدينة ليدن عام 1965.

وافق البروفيسور على موضوع البحث وأخترنا عنوان "تطور وضع المرأة والمجتمع في مصر المعاصرة في الإنتاج الروائي لنجيب محفوظ". وبدأت أبحث عن دراسات نقدية عن أدب نجيب محفوظ لأستعين بها في إعداد اطروحتي ولم أجد في ذلك الوقت سوى عدد قليل جدا من الدراسات لبعض النقاد. وخطرت لي فكرة لماذا لا أكتب خطابا إلى نجيب محفوظ وأذهب للقائه ومناقشته في إنتاجه، فهو أقدر وأكفأ مَن يرشدني في بحثي. وبالفعل أرسلت له خطابا على جريدة الأهرام بالقاهرة وكان أيامها يكتب في الأهرام وله مكتب هناك.

بعد أسبوعين وصلني خطاب من نجيب محفوظ يحدد لي موعدا للقائه في الإسكندرية في شهر يوليو.

التقيت نجيب محفوظ لأول مرة صباح يوم مشرق في مقهى بدرو على شاطئ البحر في رمل الإسكندرية، حيث اعتاد أن يذهب كل صباح أثناء أشهر الصيف ويلتقي بالاديب الكبير توفيق الحكيم وبعض الأصدقاء لتناول قهوة الصباح. استقبلني نجيب محفوظ بترحاب وقدمني لتوفيق الحكيم ثم استأذن من الشلة وجلس معي أكثر من ساعتين يكلمني عن رواياته وبداياته الأدبية ونظامه في الكتابة، وكان من وقت لآخر يطلق ضحكة حلوة مجلجلة يتحاشى بها الاجابة عن سؤال محرج أو مباشر.

أرشدني نجيب محفوظ إلى بعض المؤلفات التي صدرت عنه باللغة الإنجليزية وكذلك بعض الدراسات والمقالات باللغة العربية وعدد خاص من كتاب الهلال صدر عنه وعن إنتاجه الأدبي، وكذلك دراسات نقدية لبعض كبار النقاد في مصر منهم محمود أمين العالم وعبد المحسن طه بدر وشكري غالي وسيد قطب (الذي تحول فيما بعد من ناقد أدبي إلى كاتب إسلامي اتهم بالتطرف وتم إعدامه في عهد عبد الناصر). كما أخبرني نجيب محفوظ أن أول رسالة دكتوراه أعدت عنه هي للأسف، كما قال، في جامعة تل أبيب من أستاذ إسرائيلي اسمه ساسون سوميك. وقد وجدت فيما بعد كل هذه الكتب في مكتبة جامعة السوربون في باريس، فاستعنت بها في إعداد أطروحتي للدكتوراه والتي اشتملت أيضا على ترجمة رواية ميرامار إلى الفرنسية.

أثناء إعدادي للدكتوراه طلب مني البروفيسور المشرف على رسالتي أن أعمل معيدة في القسم معه لأن معيدة القسم قد استقالت بسبب زواجها، لم أصدق نفسي ووافقت على الفور. تحقق حلمي القديم في أن أصبح معيدة في الجامعة، لم أسع لهذا المنصب بل جاءني على غير انتظار. وهكذا أصبحت معيدة في قسم اللغة العربية والحضارة الإسلامية بجامعة جنيف، وكأنما أراد الله أن يعوضني عما فاتني في بلدي ووطني فحقق لي آمالي وأنا في الغربة.

لم أستقل من عملي كمترجمة في السفارة السعودية فكنت أذهب إلى السفارة في الفترة الصباحية وأعود ظهرًا إلى البيت لأطمئن على الأولاد

وأعد لهم وجبة الغذاء ونتناولها معا ثم أعود إلى العمل بالسفارة حتى الخامسة مساء. ولم أكن أذهب إلى الجامعة إلا مرتين في الأسبوع من الخامسة للسابعة والنصف يومي الثلاثاء والخميس. بعدها أعود للبيت وأعد طعام العشاء للأسرة كلها، وتبدأ السهرة أمام التليفزيون فأترك الأولاد مع أبيهم يشاهدون فيلم السهرة، وأنسحب أنا إلى غرفة النوم التي وضعت في ركن منها مكتبًا صغيرًا، أشتغل في إعداد الأطروحة ساعتين في اليوم هما مدة عرض الفيلم في التليفزيون. بعد انتهاء الفيلم أغلق كتبي وملفاتي وأشرف على دخول الأولاد كل في فراشه وأعود إلى زوجي لأكمل معه السهرة.

استغرق إعداد أطروحة الدكتوراه أكثر من ست سنوات، حيث كنت أجمع بين مسئولياتي كزوجة وأم لثلاثة أولاد، ووظيفتي كمترجمة في السفارة السعودية، ووظيفتي كمعيدة في قسم اللغة العربية والحضارة الإسلامية بجامعة جنيف والإعداد لرسالة الدكتوراه!

وحين أفكر الآن في كل المعاناة التي تكبدتها لتحقيق حلمي في الحصول على الدكتوراه تصيبني الدهشة من إصراري ومكابرتي، بل وعنادي أيضا والتحدي الشديد لكل المبعوثين المصريين، وعلى رأسهم زوجي، الذين اختصروا الطريق واكتفوا بالوظيفة والمرتب المحترم والامتيازات المادية والعيشة السهلة ونبذوا الدراسات العليا. كنت أريد أن أثبت للجميع وخاصة لزوجي أن المال والثراء وسيلة لتحقيق هدف سام وليست هدفا في الحياة وأن السعادة تكمن في المثابرة حتى يتحقق الحلم والهدف!

وتحقق حلمي الكبير وكان يوم مناقشة الدكتوراه من أسعد أيام حياتي، وقد حضر أخي من الإسكندرية بهذه المناسبة. كنت محاطة بأسرتي المكونة من زوجي وأولادي الثلاثة وأخي الذي شاركني فرحتي وكأنه وجد في نجاحي الدراسي تعويضا له، لأنه ترك الدراسة للتفرغ لإدارة المصنع الذي تركة أبي ولإدارة شئون الأسرة، وكان دائما نعم الأخ البار بإخوته وخاصة أخوته البنات، ولقد حضر أخي من الإسكندرية إلى جنيف خصيصا لحضور مناقشتي الدكتوراه. وكانت لجنة التحكيم برئاسة الأديب الفرنسي المشهور، ميشيل بوتور، الذي كان وقتها يعمل كأستاذ محاضر في جامعة جنيف، وهو رائد الرواية الجديدة في فرنسا وقد عاش في مصر سنة كاملة في شبابه وعمل بالتدريس في الأقصر.

استمرت مناقشة الدكتوراه خمس ساعات كاملة عصروني عصرا حتى إنني كدت أصاب بالإغماء من شدة التعب. كانت المناقشة في جلسة مفتوحة في أكبر قاعة محاضرات في مبنى جامعة جنيف، وحضرها عدد من السفراء العرب وفي مقدمتهم السفير السعودي، رئيسي في العمل، وكذلك السفير المصري وحرم السفير الكويتي وحرم السفير العراقي وعدد كبير من المعارف والأصدقاء والطلبة والطالبات.

وحين أعلن الأديب رئيس لجنة التحكيم، ميشيل بوتور، اجتيازي الامتحان والمناقشة ونجاحي بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، رأيت الفرحة في عيون أخي وأولادي وزوجي، كانت فرحتهم بنجاحي أكبر من فرحتي.

وهكذا وبعد عشر سنوات من الدراسة في جامعة جنيف حصلت على درجة الدكتوراه. كان ذلك عام 1983.

وكانت أطروحتي أول دكتوراه في الجامعات الأوروبية للتعريف بالأديب الكبير نجيب محفوظ، وتحتوى على أول ترجمة باللغة الفرنسية لرواية "ميرامار". اشتملت الأطروحة على ثمانمائة صفحة وتتكون من أربعة أجزاء: الجزء الاول دراسة اجتماعية أنثروبولوجية عن تطور المرأة المسلمة في المجتمع المصري، والجزء الثاني عن مكانة المرأة في الإسلام كما استخرجتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والجزء الثالث من الأطروحة عن تطور المرأة في أدب نجيب محفوظ. أما الجزء الرابع فكان ترجمة كاملة لرواية "ميرامار" إلى الفرنسية.

ونشرت الأطروحة، بعد اختصارها إلى مائتي صفحة فقط حسب تعليمات الناشر وهو "لابور وفيداس" وهي دار نشر سويسرية فرنسية وصدر الكتاب عام 1985 بعنوان "المرأة ومصر الحديثة في أدب نجيب محفوظ". وعندما أمسكت بالكتاب في يدي لأول مرة شعرت وكأنني أحتضن مولودًا جديدًا لي.

كان أول كتاب ينشر لي ويحمل اسمي بينما صورتي على الغلاف الخلفي. وقد أبلغتني دار النشر بعد ذلك أن أكاديمية نوبل ابتاعت عدة نسخ من كتابي هذا لتقييم إنتاج نجيب محفوظ الأدبي، واعتمدت على دراستي العلمية النقدية لروايات نجيب محفوظ كإحدى المرجعيات للحيثيات التي ارتكزت عليها لمنح نجيب محفوظ جائزة نوبل في الآداب عام 1988.

عندما عدت إلى الإسكندرية بعد حصولي على الدكتوراه وبعد تعييني في الجامعة، احتضنتني أمي في شوق وانسابت دموعها على خديها وهي تقبلني، وأحسست لأول مرة في حياتي بحنان أمي. لكنها لم تقل أكثر من: "أنا أبكي من الفرحة!".

ولكني أحسست أن دموعها كانت دموع ندم أكثر من دموع فرح، فلم تكن تتخيل أبدا أن البنت التي كانت تريد أن "تسيِّب سرتها" يوم مولدها أصبحت دكتورة قد الدنيا وأستاذة في جامعة أوروبية!

* * *

من أجمل ما كتبت عن هذه الفترة من حياتي وعن ذكريات إسكندرية وكورنيش إسكندرية قصة "عقد الفل وعقد اللؤلؤ" والتي نشرت ضمن مجموعة قصصية نشرتها في التسعينيات عند الناشر العصامي وأول ناشر لروايات نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية، الحاج مدبولي، صاحب مكتبة مدبولي في شارع سليمان باشا بالقاهرة. وكانت المجموعة القصصية الثانية لي وتحمل عنوان "الإسكندرية 60" كتبت أقول:

البحر هادئ كبساط أزرق ناعم ممتد، والزبد الأبيض يتراقص وسط الأمواج الصغيرة المتكسرة التي تستكين على الشاطئ في خضوع بينما صوت فيروز الملائكي يصل إلينا عبر المذياع تغني للإسكندرية:

شط إسكندرية يا شط الهوا   رحنا إسكندرية رامانا الهوى

ليالي مشيتك يا شط الغرام وإن أنا نسيتك ينساني المنام

صوته الخشن يعلو على صوت فيروز الناعم ويدخل تعديلا على المقطع الأخير للأغنية فيردد: "وإن أنا نسيتك تنساني المدام"، وتغرق "المدام" التي هي أنا في الضحك وتنظر إلى الحليوه الإسكندراني الأسمر بدلال وتغني بدورها مقلدة صوت كوكب الشرق أم كلثوم:

أنساك يا سلام أنساك دا كلام أهو دا اللي مش ممكن أبـدا

فينتشي الشاب الأسمر من الفرحة ويضحك عاليا وهو يقول: "أم كلثوم تغلب فيروز". بائعة الفل والياسمين تمر بين الجالسين على سور الكورنيش، تختار العاشقين المتيّمين وتقترب من الشاب الأسمر وتمد له عقدا أبيض من الفل وتغريه بشرائه قائلة: "ربنا يخلي لك الأمورة" وتضحك الأمورة التي هي أنا وتنظر إلى حبيبها نظرة ذات مغزى فيدخل يده في جيبه ويخرجها بقرشين يدسهما في يد البائعة الذكية ويأخذ عقد الفل ويلفه حول رقبة الأمورة التي يزداد وجهها إشراقا وحبورا.

كم مرة التف عقد الفل حول عنقي في جلساتنا على كورنيش إسكندرية؟ كان يقول لي في كل مرة يضع عقد الفل حول عنقي: "سيأتي اليوم الذي أضع فيه حول عنقك عقد اللؤلؤ الحر".

وانسابت سنوات العمر... وبعد مرور سبع سنوات على زواجنا سافرنا معا في رحلة شهر عسل جديد إلى باريس وفي أحد أفخم فنادق عاصمة النور وحول مائدة مستديرة فوقها شمعدان فضي به شمعتان في

لون الورد البلدي، أخرج من جيبه علبة مخملية... مد يده السمراء وحمل العقد اللؤلؤ من محلات كارتيه بباريس، ولفه حول عنقي وهو يضع قبلة حانية فوق خدي ويهمس في أذني: "ربنا يخلي لي الأمورة"!

أمواج النجاح

في جنيف عرفت النجاح تلو النجاح: النجاح في الدراسة، النجاح في العمل، النجاح في الاندماج في المجتمع والنجاح في تربية الأولاد وحمايتهم من الذوبان في المجتمع السويسري والحفاظ على هويتهم المصرية العربية الإسلامية. أصبح ابني البكري مهندس كمبيوتر، وابني الثاني دكتورًا وخبيرًا فيزيائيًا أما ابنتي فأصبحت طبيبة وجراحة عيون مشهورة.

أول النجاحات كان نجاحي في مناقشة الدكتوراه، واحتفلت بهذه المناسبة بأن أقمت حفلا صغيرا لجميع الأصدقاء والمعارف. حضر الحفل السفير السعودي والسفير المصري وكثير من أساتذة الجامعة وكثير من الدبلوماسيين، ومن الطلبة الذين أقوم بالتدريس لهم، إلى جانب الأساتذة

أعضاء هيئة التحكيم. وأذكر أن الأديب ميشيل بوتور، رئيس هيئة التحكيم والمناقشة، قال لي يومها: "لا تظني أن الحصول على الدكتوراه هو نهاية المطاف، إنه أول درجة في سلم الإبداع والنجاح والشهرة".

كان على حق!

فقد بدأت بعض الصحف والمجلات والدوريات العلمية في مجال الدراسات النقدية والأدبية تكتب عني. وأول من نشر خبر حصولي على الدكتوراه هي مجلة "سيدتي" التي تصدر في لندن تحت عنوان "أول رسالة دكتوراه في جامعة أوروبية عن تطور المرأة في المجتمع المصري وفي روايات نجيب محفوظ". ثم نشرت مجلة "المصور" المصرية نصف صفحة عني في عدد خاص عن الإسكندرية مع صورة فوتوغرافية أرسلها لهم أخي تحت عنوان: "ابنة الإسكندرية تحصل على الدكتوراه من جامعة سويسرية"، ثم نشرت جريدة الأهرام المصرية في صفحة المرأة مقالا بعنوان: "أول دكتوراه تمنحها جامعة جنيف عن تطور تعليم الفتاة المصرية عبر القرن الأخير" ونشرت الأهرام صورتي مع نجيب محفوظ، التي أرسلها أخي للجريدة. وكان أخي قد حضر أول مقابلة لي مع نجيب محفوظ والتقط لي عدة صور مع الأديب الكبير كما قام بتسجيل هذا اللقاء تسجيلا صوتيا.

بعد حصولي على الدكتوراه ونشرها في كتاب بالفرنسية، أرسلت نسخة إلى الأديب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ، فأرسل لي خطاب شكر رقيقًا بخط يده جاء فيه:

"الدكتورة الجليلة فوزية العشماوي

تحية طيبة وبعد،

فقد تلقيت هديتك الثمينة الكريمة بسعادة تفوق أي وصف وشكر عميق هو دون ما تستحقين من امتنان وتقدير، وسوف أعكف على قراءتها والاستمتاع بها حال انتهائي من علاج عيني بسبب عارض من أعراض السكر. وإني أتمنى لنشاطك الفكري أمدا غير محدود وتقدما راسخا أنت جديرة به. ولك مني أصدق التحيات وأطيب الدعاء.

المخلص – نجيب محفوظ 9/ 5/ 1985"

أثلج صدري بكلماته المنتقاه بفن ومقدرة، وشعرت بحنان أبوي ممّا شجعني على الكتابة له من جديد وتبادلنا عدة رسائل، وكانت رسائله دائما يفوح منها عبق الأصالة والمقدرة. وحين فاز بجائزة نوبل للآداب كنت من أوائل المهنئين له فقد عرفت الخبر قبل أن يعرفه هو شخصيا، وتلك حكاية طريفة أسردها هنا.

فعندما أرسلتُ لدار النشر الفرنسية المجلد الذي يحتوي على نص رسالة الدكتوراه الكاملة لنشرها، ثمانمائة صفحة، أرجعها لي الناشر وقال إنها ضخمة جدا ويجب أن أختصرها لتكون كتابا لا يزيد على مائتي صفحة فقط. أقترحت عليه أن ينشر الجزء الأول فقط ويترك الجزء الثاني وهو ترجمة فرنسية كاملة لرواية ميرامار لنجيب محفوظ، فوافق الناشر على

اقتراحي ونشر الجزء الأول من رسالة الدكتوراه ولم ينشر الجزء الثاني.

وهكذا لم يتم نشر الجزء الثاني من الرسالة وهو ترجمة رواية ميرامار باللغة الفرنسية، وبدأت أبحث عن ناشر فرنسي يوافق على نشر ترجمة هذه الرواية الجميلة لنجيب محفوظ التي اخترتها لأن أحداثها تدور في مدينتي الجميلة الإسكندرية. أرسلت الترجمة إلى عدة دور نشر فرنسية كان ذلك في نهاية عام 1985. ومضى عامان ونصف العام دون أن أتلقى موافقة على نشر الرواية من أي دار نشر، فلم يكن نجيب محفوظ معروفا بعد في فرنسا، ولم يكن قد صدرت له سوى رواية واحدة مترجمة إلى الفرنسية هي "زقاق المدق"، إلى جانب ترجمة لبعض أجزاء من الثلاثية.

وذات ليلة وقرب منتصف الليل رن جرس التليفون في منزلنا بجنيف، كان ذلك بالتحديد يوم 10 اكتوبر عام 1988، وكانت المتحدثة سيدة لبنانية تعمل في دار النشر الفرنسية "دي نويل" في باريس وطلبت مني أن أرسل لها بالفاكس صباح الغد موافقتي على نشر ترجمة رواية "ميرامار" لنجيب محفوظ لدى دار النشر التي تعمل بها. واندهشت جدا من هذه المكالمة الغريبة قرب منتصف الليل، وهذا شيء خارق للعادة وللعرف السائد في أوروبا، حيث جرت العادة ألا يزعج أحد أحدا بالتليفون بعد التاسعة مساء على أكثر تقدير وفي حالات الضرورة فقط، والاتصالات التليفونية بشأن العمل أو التعاقدات تكون نهارا وليس عند منتصف الليل. ولكن المتحدثة كانت في غاية الاهتمام والجدية ومتهافتة على استحصال

موافقتي على النشر، وقامت بتحديد سعر الترجمة بمبلغ محدد غير مجز وطلبت مني أن أدون هذا المبلغ المتفق عليه بخط يدي في خطاب الموافقة على النشر وأرسله لها قبل العاشرة من صباح اليوم التالي بالفاكس.

وكانت على علم بأن نجيب محفوظ قد سبق وأعطاني موافقة خطية على نشر ترجمتي الفرنسية لروايته ميرامار لدى الناشر الذي يناسبني. وكنت قد أرسلت صورة من هذه الموافقة بخط يد نجيب محفوظ إلى مختلف دور النشر ومنها دار النشر التي تعمل بها المتحدثة. وبالفعل قمت في صباح اليوم التالي بكتابة خطاب الموافقة المطلوب وأرسلته بالفاكس في العاشرة صباحا لدار النشر الفرنسية في باريس وفقا للاتفاق الذي تم بيني وبين السيدة اللبنانية بالأمس. وبعد ساعة وفي نشرة أخبار الحادية عشرة صباحا فهمت سر تهافتها واستغلالها للموقف، فقد سمعت من راديو جنيف أن الأكاديمية السويدية قد أعلنت فوز الأديب المصري نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب لعام 1988.

ولو أنني تأخرت ساعة واحدة في الرد عليها لربما كنت حصلت على أضعاف المبلغ الضئيل الذي حددته هي مسبقا ووافقت أنا عليه وكتبته بخط يدي في خطاب الموافقة على نشر ترجمتي لديها. ونشرت الترجمة بالفعل وحققت نجاحا وردود فعل كثيرة في الصحف والدوريات الأدبية، كما أشاد بها كثير من النقاد الفرنسيين، واعتبروها من أجود الترجمات باللغة الفرنسية لرواية من روايات نجيب محفوظ، حتى إنه أعيد نشرها وطباعتها طبعة شعبية في سلسلة "كتاب الجيب" بسعر في متناول الجميع

ووزعت أعدادًا كبيرة جدا وهذا شيء نادر بالنسبة لمبيعات الأدب الأجنبي المترجم.

* * *

تزايدت مظاهر نجاحي فقد كثرت خطابات التهنئة والمكالمات التليفونية وبدأت بعض الصحف العربية تكتب عني (الأهرام المصرية، القبس الكويتية، ومجلة سيدتي التي تصدر في لندن ومجلة زهرة الخليج التي تصدر في أبو ظبي)، بصفتي أول من أعد رسالة دكتوراه في جامعة أوروبية عن نجيب محفوظ. وبدأت بعض المجلات تراسلني وتطلب مني حديثا صحفيا، مما شجعني وجعلني أبدأ في كتابة بعض المقالات وأراسل بعض الصحف السويسرية والفرنسية والعربية لنشر مقالاتي، كما أنني شاركت في بعض المناظرات في التليفزيون السويسري عن العرب والمسلمين في الدول الأوروبية. وأخذ بعض أصدقائنا يقيمون لي حفلات ويدعونني للعشاء للاحتفال بي، وأحسست أن زوجي بدأ يتضايق، خاصة أن بعض أراذل الأصدقاء بدأوا يصطادون في المياه العكرة وأخذوا يتهكمون على زوجي، لأنه هو الذي جاء إلى جنيف في بعثة رسمية للحصول على الدكتوراه ولكنه ترك الدراسة و لم يحصل على الدكتوراه بينما زوجته التي جاءت كمرافق له هي التي واصلت الدراسة وحصلت على الدكتوراه!

وهكذا أصبح نجاحي يذكّر زوجي بفشله في تحقيق الهدف الذي جاء من أجله إلى جنيف!

كل هذا زاد من الفجوة بيننا وأسهم في ابتعادنا عن بعضنا. اتهمته بأنه يغار من نجاحي واتهمني بأنني ركبني الغرور!

هل ركبني الغرور فعلا أم أنني وجدت نفسي أخيرا ووجدت من يقدّر قيمتي؟ كنت أشعر بأنني استرديت كياني ووجودي وآدميتي وأهميتي وقيمتي التي فقدتها منذ مولدي في بلدي مصر. لقد أرادت أمي التخلص مني فور ولادتي لمجرد أنني أنثى، في مصر ضاعت أحلامي في إكمال دراستي العليا والعمل كمعيدة في جامعة الإسكندرية، مصر رفضت منحي بعثة دراسية أسوة بكل المبعوثين المصريين زملائي الذين فشلوا في الحصول على الدكتوراه ونجحت أنا في الحصول عليها بإرادتي القوية وقوة عزيمتي وجهدي الشخصي.

لا والله، لم يكن هذا غرورا بقدر ما كان اعتزازا بالنفس وفخرا بنجاحي. لأول مرة في حياتي أحتفل علنا بنجاحي فقد حرمت من فرحة الاحتفال بأي نجاح لي في مصر! حتى عندما نجحت في البكالوريا الفرنسية وكنت الأولى على جميع المدارس الفرنسية في جمهورية مصر العربية كلها، لم يحتفل أحد بنجاحي، لم تقم لي أسرتي حفلة، لم يقدم لي أحد هدية، لم يقابلني وزير التربية والتعليم مثلما يفعلون الآن في مصر مع أوائل الثانوية العامة! بل الأدهى من ذلك أنه عندما كان المذياع يذيع أغنية عبد الحليم حافظ الجديدة:

وحياة قلبي وأفراحه   وهناه في مساه وصباحه
دا مافيش فرحان في الدنيا   زيِّ الفرحان بنجاحه

والتي كان يهديها معظم الأهالي لأولادهم الناجحين، كانت أمي تغلق المذياع الذي يذيع هذه الأغنية احتراما لشعور أخي، الذي رسب في الثانوية العامة في نفس السنة التي نجحت فيها أنا في البكالوريا، وفزت بالمرتبة الأولى على جميع المدارس الفرنسية في مصر!

كذلك لم أفرح بنجاحي وحصولي على الليسانس، على الرغم من أنني كنت أول فتاة في أسرتنا تحصل على الليسانس، فإن الظروف أيضا لم تكن ملائمة و لم يحتفل أحد بنجاحي، و لم أحتفل أنا نفسي بهذا النجاح لأن والدي توفي وأنا أؤدي امتحانات الليسانس، وظهرت النتيجة قبل مرور الأربعين على وفاة أبي وكان بيتنا يعيش في حالة حداد وصمت بلا صوت راديو ولا أغانٍ ولا مكان للفرحة بالنجاح!

لم أفرح أبدا بنجاحي، و لم أفرح حتى بزواجي فلم يكن هناك حفل زفاف ولا فرح، فلم يكن قد مضى عام على وفاة أبي، ورفضت أمي أن تقيم لي فرحا وحفل زفاف.

لكل ذلك كانت فرحتي بنجاحي في الحصول على الدكتوراه أكبر فرحة في حياتي!

وتساءلت ما جدوى النجاح والتفوق إذا لم يفرح به الناجح ويحتفل به علنًا مع أسرته وأصدقائه ومعارفه؟

لذلك ولأول مرة في حياتي دافعت عن حقي في الفرح بنجاحي وحصولي على أعلى شهادة جامعية! وقررت أن أودع كل مشاكلي وأحزاني وإحباطاتي السابقة وأبدأ صفحة جديدة أستمتع فيها بنجاحي.

ولكن زوجي لم يفهمني و لم يقدر ظروفي و لم يفهم فرحتي المبالغ فيها! و لم أفهمه أنا أيضا واعتقدت أنه غيران مني ومن نجاحي. وأنا في غمرة نجاحي وفرحتي إذا بزوجي يطلب مني أغرب طلب كنت أتوقعه منه... طلب مني زوجي أن أستقيل من التدريس في جامعة جنيف ومن عملي في السفارة السعودية والتي ترقيت فيها بعد حصولي على الدكتوراه وأصبحت مستشارة لشئون الأمم المتحدة والمنظمات الدولية.

طلب مني زوجي أن أغادر جنيف نهائيا وآخذ ابنتنا الصغيرة التي بلغت السابعة من العمر وأعود بها إلى الإسكندرية لأربيها "تربية إسلامية بعيدا عن الحريات الزائدة في سويسرا"، وأن أتفرغ لها تماما على أن يبقى هو في جنيف مع الولدين اللذين وصلا للمرحلة الثانوية حتى يكملا دراستهما في سويسرا ويلتحقا بالجامعات السويسرية، ويبقى هو معهما ويستمر في عمله في السفارة الكويتية ليتولى الإنفاق علينا جميعا في جنيف وفي الإسكندرية!

ذهلت من تفكيره الرجعي، فلم أكن أتخيل أبدا أنه ينتظر حتى أحصل على الدكتوراه وأبدأ صعود أول درجة في سلم النجاح فيحاول ترحيلي إلى مصر لأنحبس في البيت بلا عمل ولا إنتاج، أربي ابنتنا وأنتظر زيارته من حين لآخر حين يأتي إلى مصر في إجازة هو والولدان.

رفضت تقسيم الأسرة وحرمان ابنتي من أبيها وأخويها وحرمان الولدين من أختهما وأمهما وفراقي عن زوجي وولدي والتخلي عن وظيفتي وعملي وأبحاثي والبعد عن جنيف وأصدقائي ومعارفي وحياتي

الناجحة فيها. حاولت مناقشة زوجي وإثناءه عن عزمه ولكنه أصر على موقفه.

تغير زوجي من ناحيتي وأصبح يتحاشاني ويتحاشى أصدقاءنا جميعا حتى لا يناقشه أحد في موقفه المتعنت تجاهي، فكان يغادر البيت مبكرا قبل أن أستيقظ من النوم ويعود بعد أن أكون قد استسلمت للنوم بعد المجهود الجبار الذي أبذله في الوظيفتين، التدريس في الجامعة والعمل في السفارة السعودية، إلى جانب أعباء البيت والأولاد. وعندما أطلبه تليفونيا في مكتبه لا يرد على مكالماتي. واعتقدت أنها أزمة وتمر ونعود لعهدنا القديم.

وحين وصلتني أول دعوة لحضور مؤتمر دولي خارج جنيف رفض زوجي مبدأ سفري وحدي لحضور المؤتمر ورفض السفر معي كمرافق وقال لي: "لن أكون أبدا زوج الست!".

فاض بي الكيل.. أحسست ببركان ثائر في داخلي وأخذ لهيب نيرانه يشعل صدري ويصعد إلى رأسي... تحدَّيته وسافرت وحدي...! اتهمني بأني أصبحت زوجة ناشزًا!

* * *

وهكذا تحول نجاحي في عملي إلى شقاء في حياتي الزوجية!

وعلى الرغم من حزني الشديد على خلافي مع رفيق العمر فإنني

تماسكت وتمسكت بحقي في البقاء في جنيف، وفي العمل بالجامعة والسفارة وفي حقي في السفر لحضور المؤتمرات، وفي الكتابة والتأليف والالتقاء بالأصحاب والاصدقاء والمشاركة الفاعلة في المجتمع الذي نعيش فيه، وأيضا في الحصول على الجنسية السويسرية بعد استيفاء المدة القانونية للإقامة في سويسرا وهي اثنتا عشرة سنة.

وهذه قصة أخرى، فقد رفض زوجي التقدم بطلب للجهات السويسرية للحصول على الجنسية السويسرية وعلى جواز السفر السويسري الأحمر الذي يحمل شارة الصليب الأحمر الدولي وكان يقول: "لا يمكن أضع اسمي على جواز سفر شعاره الصليب وأنا مسلم!". حاولت إقناعه بأن شارة الصليب الأحمر ليست صليبا بل هي شارة عبارة عن ضلع طولي وضلع أفقي متشابكين وهما بنفس الطول والحجم، أما الصليب فهو ضلع طويل مستقيم وضلع قصير أفقي أي أن ضلعي الصليب ليسا بنفس الحجم ثم إن جواز السفر السويسري مجرد وثية سفر لتسهيل التنقل بين الدول بدون الحصول على "فيزا" لكثير من الدول ولتسهيل إقامتنا في سويسرا ولتثبيتي في وظيفتي في الجامعة، وحتى لا نكون دائما أجانب بل نصبح من أهل البلد ويصبح من حقنا الانتخاب والعمل السياسي وشراء العقارات والحصول على امتيازات كثيرة منها المعاش عند بلوغ السن القانونية.

ولكن زوجي كان عنيدا و لم يقتنع بوجهة نظري وفشلت كما فشل جميع الأصدقاء والمقربين منا في إقناعه بالحصول على الجنسية السويسرية، و لم أكن أستطيع أن أتقدم بطلب بمفردي للحصول على الجنسية، فقد

كان القانون حتى ذلك الوقت في سويسرا، بداية الثمانينيات، لا يعترف باستقلال الشخصة القانونية للزوجة، ولا يسمح لها بالحصول على الجنسية بدون موافقة الزوج (وإن كان القانون قد تم تعديله بعد عدة سنوات في سويسرا تحت ضغط المنظمات النسوية المدافعة عن حقوق المرأة وحقوق الإنسان).

وعندما فشلت كل محاولاتي ومحاولات الأهل والأصدقاء في إقناع زوجي بالعدول عن موقفه المتعنت، وإصراره على مغادرتي جنيف نهائيا أنا وابنتي، قمت بغادرة بيت الزوجية غاضبة واعتقدت أن زوجي سيهرع لمصالحتي وإعادتي إلى البيت وينفذ طلباتي، ولكني فوجئت، بعد عدة أيام باتصال هاتفي من القنصلية المصرية بجنيف، أخبرني القنصل العام أن زوجي ذهب إلى القنصلية وحرر توكيلا رسميا باسم شقيقه وأرسله بالحقيبة الدبلوماسية ليتولى شقيقه طلاقي غيابيا.

صعقت من الصدمة، فلم أكن أتصور أبدا أن يلجأ زوجي لهذا الأسلوب بعد كل ما عشناه معًا، لم أتخيل أبدا أنه بالإمكان أن نفترق عن بعضنا إلى الأبد...

اعتصرني الألم وبقيت وحدي أجتر ذكريات أحلى سنوات الصبا والشباب التي عشتها معه، والتي عرفت فيها معنى الحب والتضحية والإخلاص... كيف أعيش بدونه وقد اعتدت على وجوده بجواري في جميع مراحل العمر، وصهرتنا الحياة والتجارب معا لسنوات طوال، خمس وعشرين سنة ونحن معا!

وكان الفراق!

وبعد الطلاق شعرت وكأنني فقدت بعضًا مني!

دفنت حزني ولوعتي في قلبي ووجدت في الكتابة متنفسا لما يجيش في صدري من مشاعر الأسى والندم، كتبت ديوان شعر، لم أنشره، عن وجع الفراق وشجن الحنين. كتبت أقول في إحدى القصائد بعنوان:

سيمفونية الحنين:

كتاباتي كلها شجن وأنين
تعوِّضني عما فاتني من سعادة ونعيم
في كنف من أحببت وضاق بي بعد حين!

خبا البريق في عينيي
وانسحب ماء الحياة من وجنتي
وجف الريق في حلقي وعلى شفتي
واندثرت الدموع في مقلتيَّ
حياتي لم يعد فيها بعده
سوى الكتاب والناي الحزين
وأوتار قلبي تعزف له سيمفونية الحنين

ومن قصيدة أغلى ما عندي:

أضعته بكبريائي وغروري واندفاعي
لم أكن أعرف في ذلك العهد
أن حبه أغلى ما عندي!

كم بنينا من قصور فوق الرمال
وسبحنا معا واعتلينا أمواج البحار
قذفت بنا من علٍ أمواج كالجبال
وانهارت تحت أقدامنا قصور الرمال!

***

ولكنني لم أستسلم طويلا للحزن فسرعان ما تمالكت نفسي واستعنت بالصبر والصلاة والعمل الجاد ورعاية شئون أولادي الذين كبروا وأصبحوا شبابا في سن حرجة يحتاجون لمزيد من الإشراف والمراقبة، في مجتمع متحرر وكل شيء فيه مباح ومتوفر والإغراءات كثيرة والانحراف سهل. لا أدري من أين جئت بكل هذا العزم وكل هذه الطاقة التي كنت أبذلها وأنا وحيدة في بلد غريب وأحمل على عاتقي كل هذه المسئوليات الجسام.

وجدت السكينة والراحة والاطمئنان في قراءة القرآن الكريم، واتخذت من الآية الكريمة: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة: التوبة، الآية: 105) شعاري في الحياة في تلك الفترة العصيبة من عمري، كنت شعلة نشاط وحيوية واندمجت في العمل والنشاط الاجتماعي والانتاج الأدبي والفكري والبحث العلمي والمشاركة في مؤسسات المجتمع المدني.

وجدت طريقي وعرفت أن الألم يصهر الإنسان ويدفعه للأمام، فاندفعت بكل كياني لتحقيق ذاتي، مستعينة بالصبر والصلاة والمحافظة على ثوابت ديني الإسلامي في بلد أوروبي بدأت تنتشر فيه بوادر التعصب الديني والخوف من المسلمين "الإسلاموفوبيا".

* * *

أمواج الاختلاف

ربما يتساءل البعض ما الفرق بين الحياة في الإسكندرية والحياة في جنيف وما أوجه الاختلاف بين المجتمع المصري والمجتمع السويسري؟

الحقيقة أن الاختلاف كبير جدا، الاختلاف في كل شيء في التعامل مع الناس، في أسلوب التعامل، في طبيعة العلاقات بين الناس، في نظرة الرجل إلى المرأة، في أسلوب تربية الأولاد، في مناهج التعليم والدراسة، في احترام القانون، في ديمقراطية المعاملة وعدم التفرقة بين الرجل والمرأة أو بين الغني والفقير أو بين السليم والمعاق. وأهم ما في الأمر هو شعور الإنسان المقيم في سويسرا بالأمان والاطمئنان والاستقرار في ظل الديمقراطية الكاملة.

ولعل أبلغ مظاهر الديمقراطية في سويسرا هو أن "الناس سواسية كأسنان المشط"! لا فرق بين الوزير والبواب.

سأبدأ بمكانة البواب أو حارس العقار في المجتمع السويسري، وهو أول ما لفت نظري حين قدومي إلى جنيف وسكني في عمارة ضخمة. فقد وجدت أن البواب أو حارس العمارة يقطن في شقة من أربع غرف في الطابق الأول من نفس العمارة. وعندما رأيت بواب عمارتنا في جنيف لأول مرة، وجدته يرتدي نفس الملابس التي يرتديها أي ساكن في العمارة: بنطلون جينز وتي شرت وحذاء رياضيًا. وكذلك زوجته سيدة شقراء، رشيقة ترتدي جينزًا وتي شيرتًا وحذاء رياضيًا وكذلك أولادهما، وهم يذهبون إلى نفس المدرسة التي يذهب إليها أولادي وأولاد سكان العمارة، لا يختلف مظهر أولاد البواب عن مظهر أي طفل آخر في العمارة. البواب عنده سيارة مثل معظم السكان ومخصص له مكان في جراج العمارة مثل أي ساكن. ومواعيد عمل البواب من الثامنة صباحا حتى الثانية عشر ظهرا، ويأخذ ساعتين راحة للغداء ثم يعاود العمل من الثانية بعد الظهر حتى الخامسة مساء، وهي مواعيد العمل الرسمية لجميع الموظفين والعاملين في الدولة.

ولا يحق لأي ساكن من السكان أن يزعج البواب خارج المواعيد الرسمية للعمل، ولا يقوم البواب ولا زوجته بتأدية أي طلب أو مشوار لأي ساكن من السكان، بل على البواب الوجود في محل عمله أي شقته في الدور الأول في مواعيد العمل الرسمية. وتوجد عند البواب نسخة من مفتاح شقة كل ساكن في العمارة، ويتلخص عمل البواب في تنظيف العمارة، أي السلم والمصعد ويتم التنظيف بالمكنسة الكهربائية. يتولى

البواب أيضا مهمة الرد على استفسارات السلطات السويسرية، وعلى الأخص "مكتب سكان المدينة"، وهو مكتب مختص بتدوين بيانات كل ساكن من سكان المدينة أي اسمه وتاريخ ميلاده ونوع عمله ومقر عمله ومكان سكنه ونوع تصريح إقامته إذا كان أجنبيا، فإذا رأي البواب شخصا غريبا من غير السكان يدخل ويخرج من العمارة ويقيم عند أحد السكان، فمن حقه أن يسأله عن بياناته وأن يخطر مكتب سكان المدينة بوجود شخص جديد في العمارة وخصوصا إذا كان الشخص أجنبيا.

يطلق على البواب لقب "مسيو" وعلى زوجة البواب "مدام"، وهي نفس الألقاب التي تطلق على رئيس الجمهورية وعلى الوزير وعلى حرم رئيس الجمهورية وحرم الوزير، أي لا فرق بين رئيس الجمهورية وحرمه وبين البواب وحرمه في ظل الديمقراطية السويسرية!

مما لفت نظري أيضا في سويسرا ارتفاع الرواتب والأجور، فكل إنسان يعمل يحصل على مرتب يكفيه ليعيش به عيشة كريمة، أي يدفع منه إيجار سكنه ويشتري لوازمه من مأكولات وخلافه، ويخصص منه نسبة للرحلات والمناسبات وشراء الملابس ويدفع ضرائب الدولة وأقساط التأمين الصحي. وتوجد ميزة للسويسريين، إذا كان المرتب لا يكفي للمعيشة الكريمة فإن السويسري من حقه مطالبة الدولة باستكمال دخله لمواجهة مصاريفه ومتطلباته إذا كان دخله أقل من "الحد الأدنى للأجور". والتأمين الصحي في سويسرا إجباري حتى على الطلبة والأجانب، وهذه نعمة كبيرة لأن كل إنسان مقيم على الأراضي السويسرية ملزم بإبرام وثيقة

تأمين صحي تضمن له العلاج المجاني في المستشفيات والكشف الطبي والعلاج لدى أي طبيب أو جراح يختاره. وأجمل ما في التأمين الصحي في سويسرا إن الإنسان بمجرد أن يبرم وثيقة تأمين صحي مع شركة التأمين ويدفع قسطا شهريا بسيطا يستطيع بعد ذلك أن يذهب إلى الطبيب، بعد أخذ ميعاد بالتليفون من سكرتيرة الطبيب، ويذهب في الموعد لاجراء الكشف الطبي والفحوص والأشعة ثم الذهاب إلى الصيدلية لأخذ الدواء الذي كتبه الطبيب، أو إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية! وشركة التأمين الصحي هي التي تسدد فواتير الطبيب والمستشفى والصيدلية! أما المريض فلا يدفع سوى قسط التأمين الشهري ونسبة عشرة بالمائة فقط من إجمالي جميع فواتير العلاج بدون حد أقصى لتكاليف العلاج.

سويسرا مشهورة بأنها بلد البنوك وبلد شركات التأمين، كل شيء في سويسرا عليه تأمين: الشقة أو البيت الذي تسكن فيه، السيارة، الصحة، الحياة، الوظيفة، البطالة. لذا فكل إنسان يعيش في سويسرا يكون في حالة من الإطمئنان التام لأنه إذا مرض فعلاجه مضمون ومجاني، إذا تعرض للسرقة سواء سرقة محتويات شقته أو محتويات سيارته فإن التأمين يرد له تسعين في المائة من قيمة المسروقات. إذا شب حريق في بيته أو في محله، مهما كانت أسباب الحريق، فالتأمين يرد له تسعين في المائة من قيمة التلفيات، وإذا فقد وظيفته، لأي سبب من الأسباب، فإن تأمين البطالة يدفع له سبعين في المائة من مرتبه ويبحث له عن عمل جديد حتى يجد له الوظيفة المناسبة لخبرته ومؤهلاته، حتى إذا مات الإنسان في سويسرا،

وكان سويسري الجنسية أو لديه تصريح إقامة دائمة "جرين كارت"، فإن الدولة تتكفل بمصاريف دفن الجثمان بالمجان ويدفع التأمين الصحي أو التأمين على الحياة تعويضا لأهل المتوفي.

أما أمور المجتمع وإدارة الدولة فإن الشعب السويسري هو الذي يدير سياسة بلاده وليس الحكومة ولا رئيس الجمهورية ولا الوزراء. سويسرا تتبع نظاما جمهوريا ديمقراطيا، وهي الدولة الوحيدة التي يقوم فيها الشعب بالتصويت على كل صغيرة وكبيرة من أمور البلاد، ولا يستطيع رئيس الجمهورية ولا المجلس الحاكم، أي الحكومة أن يتخذ قرارا بمفرده دون الرجوع للشعب والتصويت على القرار. ويتكون المجلس الحاكم أي الحكومة السويسرية من سبعة مستشارين فقط يتولون الحقائب الوزارية بالتقاسم فيما بينهم، وكل واحد من المستشارين السبعة يتولى رئاسة الجمهورية لمدة عام واحد لا يجدد، يبدأ من أول يناير وحتى نهاية ديسمبر، ثم تنتقل رئاسة الجمهورية تلقائيا إلى المستشار التالي وهكذا سنويا في جو من التفاهم وبمنتهى الحضارة والديمقراطية. وقد تولت ثلاث سيدات حتى الآن رئاسة جمهورية سويسرا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهن السيدة روت درايفوث والسيدة ميشلين كالمي راي والسيدة دوريس ليوتارد.

وتصويت الشعب الإجباري على كل أمور الدولة هو الذي جعل سويسرا لا تنضم إلى الأمم المتحدة إلا أخيرًا، منذ خمس سنوات فقط، على الرغم من وجود المقر الأوروبي للأمم المتحدة على أراضيها منذ

عام 1948، لأن نتيجة التصويت الشعبي الذي أجري لاستفتاء الشعب السويسري بشأن الانضمام للأمم المتحدة جاءت ضد الانضمام للأمم المتحدة، على الرغم من موافقة الحكومة ورئيس الجمهورية على الانضمام ولكن طالما الشعب قال لا، فكلمة الشعب هي العليا وهي القرار النهائي. وحتى الآن يرفض الشعب السويسري الانضمام إلى الوحدة الأوروبية وإلى العملة الأوروبية الموحدة، حيث جاءت نتيجة الاستفتاء الشعبي برفض الانضمام، فلم تنضم سويسرا للاتحاد الأوروبي حتى الآن. هذه هي الديمقراطية السويسرية.

أما ما لم يعجبني في سويسرا فهو قانون الأحوال الشخصية للأسرة حيث إنه طبقا لهذا القانون، الذي كان مطبقا حتى بداية التسعينيات ثم تم تعديله تحت ضغوط المنظمات النسوية وحقوق الإنسان، فإن المرأة تفقد إسمها بمجرد أن تتزوج فتحمل اسم زوجها، بمعنى أنه بمجرد تسجيل الزواج في السجل المدني يصبح اسم الزوج هو اسم الأسرة ومن ثم فجميع أفراد الأسرة بمن فيهم الزوجة والأولاد يحملون نفس الاسم "اسم العائلة" وبعده يأتي الاسم الصغير لكل منهم.

ومن النوادر أو المشاكل التي صادفتني منذ وصولي إلى جنيف هو موضوع "اسمي" في الأوراق السويسرية الرسمية. فعندما وصلت إلى جنيف لزم الأمر أن أسجل نفسي في السجل المدني وأقدم وثيقة زواجي لتسجيل بياناتي الشخصية في السجل المدني في الحي الذي أقيم فيه ليتم استخراج بطاقة شخصية سويسرية لي، وهو ما يطلقون عليه "تصريح

إقامة" للأجانب طبقا لنوع الإقامة، وبما أنني كنت طالبة جامعية وزوجي طالبا فكان من حقي "تصريح إقامة ب" وهو تصريح سنوي ويجدد سنويا بموجب تجديد التسجيل في الجامعة. قدمت أوراقي للسجل المدني وقالوا لي إنهم سوف يرسلون لي تصريح الإقامة على عنوان منزلنا بالبريد المسجل. وانتظرت وصول التصريح وعندما وصلني فوجئت بأن اسمي تمت كتابته "مدام أبو زيد فوزية" وأبو زيد هو اسم عائلة زوجي، واعتقدت أن هناك خطأ في التسجيل، فأخذت التصريح وذهبت على الفور إلى مكتب السجل المدني لتصحيح الخطأ وكتابة الاسم الصحيح.

أصابتني الدهشة الشديدة عندما أجابني الموظف المسئول أنني أنا المخطئة وأنهم في سويسرا يسجلون الزوجة باسم زوجها وليس باسم عائلتها هي. وأنني منذ الآن أصبح اسمي "مدام أبوزيد" وليس فوزية العشماوي! عدت إلى المنزل وأنا في غاية العصبية والانزعاج من هذا الإجراء، كيف يمحون شخصية الزوجة القانونية المستقلة ويلصقونها كتابعة للزوج! ليس هذا من الإسلام، لأن الإسلام كفل للمرأة المسلمة الشخصية القانونية المستقلة ومنحها أيضا الذمة المالية المستقلة، فكيف يسلبني القانون السويسري الحق الذي منحه الله سبحانه وتعالى لي من فوق سبع سماوات؟!

وعندما عاد زوجي للمنزل ووجدني على هذة الحال وأخبرته بما حدث ابتسم منتشيا وقال لي: "برافو عليهم والله آهو كدا المرجلة بصحيح... يعني الزوج السويسري غلب سي السيد!".

لجأت إلى أحد المحامين وطالبت بإعاده اسمي على بطاقتي وتصريح إقامتي وجميع أوراقي الرسمية السويسرية، حيث إنني جئت للدراسة وسوف أعود إلى بلدي بعد إتمام دراستي وأحصل على شهادة الدكتوراه، فإذا كتبوا اسمي على شهادة الدكتوراه "فوزية أبو زيد" لن تعترف بها مصر لأن المرأة في مصر تحتفظ باسمها بعد الزواج ولا تأخذ اسم زوجها. وبالفعل رفعت دعوى قضائية للاحتفاظ باسمي، ومما أثار دهشتي أن جميع المصريات وكذلك النساء المسلمات اللواتي جئن إلى سويسرا كمرافقة للزوج أو كزوجة دبلوماسي لم تعترض إحداهن على هذا الإجراء أي حذف اسمها واستبداله باسم الزوج، وأنني الزوجة الوحيدة التي تقدمت بهذه الدعوى، ربما لأنني أدرس وأريد أن تكون شهاداتي الجامعية باسمي وليس باسم زوجي.

استمرت الدعوى وأخذت مجراها وقامت إدارة السجل المدني باستشارة خبير في الشئون الإسلامية من ألمانيا لإبداء الرأي الشرعي في مطلبي، وبعد عدة جلسات ومقابلات، وافقوا على استخراج بطاقة جديدة يكتب فيها اسمي "فوزية العشماوي – أبوزيد" أي اسم عائلي ثنائيًا. ولكن هذا الحل لم يروق لي لأنه ليس الحل الأمثل ولا يحقق مطلبي فاستأنفت الدعوى وطالبت بعدم كتابة اسم الزوج على الشهادات الجامعية والاكتفاء باسم عائلتي فقط على الشهادة ولا ما نع من كتابة الاسمين على الأوراق الرسمية السويسرية الأخرى. وأخيرا وافقوا على مطلبي وكانت أول واقعة من نوعها في السجل المدني السويسري عام 1973. ولكن الغريب في الأمر أنه بعد نحو سبع سنوات تم تعديل قانون

الأحوال الشخصية السويسري وأصبح من حق الزوجة أن تختار الاسم العائلي الذي تريده، وأصبح من حقها الاحتفاظ باسم عائلتها إلى جوار اسم عائلة زوجها.

ولكن الغريب في الأمر أنني في حياتي اليومية في جنيف كان الجيران والمعارف وزملائي في الجامعة وجميع من أتعامل معهم من السويسريين ينادونني ويتعاملون معي باسم "مدام أبوزيد"، ولم أعد أسمع اسمي الذي ولدت به إلا في محيط أصدقائنا ومعارفنا من المصريين ومن البلاد العربية وحين أعود في إجازة في مصر!

* * *

أمواج التعصب

لم أشعر أبدا عندما وصلت إلى سويسرا في بداية السبعينيات بوجود عداء من جانب السويسريين أو خوف من الإسلام أو المسلمين، لأن الإسلام لم يكن ظاهرًا، أي لم يكن هناك أي مظهر خارجي يدل على أن الشخص مسلم أو مسلمة، ولكن فيما بعد، خاصة في منتصف الثمانينيات وبعد ثورة الإمام الخميني في إيران وقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، بدأت بعض النساء المسلمات يرتدين الحجاب، وكذلك الحال بالنسبة لبعض الرجال المسلمين الذين بدأوا يطلقون لحيتهم، فأصبح الإسلام ظاهرًا للعين وملفتًا للنظر.

في السبعينيات لم يكن أحد في سويسرا يتحدث أو يذكر الإسلام والمسلمين إلا فيما ندر، لأن معظم المسلمين الموجودين في سويسرا، في

ذلك الوقت، كانوا من العرب، فكان الأهالي يتحدثون عنهم ويذكرون أنهم عرب أو مصريون أو لبنانيون أو سوريون أو مغاربة ولا يقول أحد أبدا هؤلاء مسلمون. وعندما التحقت بالجامعة كطالبة للدراسات العليا كان زملائي يجدون صعوبة في نطق اسمي فكانوا يطلقون عليَّ "ليجيبسيان أي المصرية"، عندما يتحدثون عني فيما بينهم، وكذلك الأساتذة المدرسون. واستمرت الحال هكذا حتى بعد أن اشتغلت بالتدريس في الجامعة فكان الجميع يعاملونني باحترام وود ويطلقون عليَّ "ليجيبسيان" أو "الإسكندرانية" وكنت لا أجد أي غضاضة في ذلك.

تغيرت الأوضاع مع بداية "ظهور الإسلام" في أوروبا وازدياد الهجرة من الدول الإسلامية خاصة من الجزائر والمغرب ويوغسلافيا، حيث كانت الأوضاع في هذه الدول غير مستقرة فهاجر منها كثير من مواطنيها وجاءوا إلى فرنسا وسويسرا للإقامة فيها بحثا عن الاستقرار. ولكنهم أحضروا معهم أفكارًا وتيارات إسلامية متشددة بدأت تنتشر في فرنسا وسويسرا وسائر الدول الأوروبية، خاصة أن الأحداث الدولية تسارعت وتزامنت أحداث فيها عنف وكذلك بعض الأعمال الإرهابية وبعض التفجيرات في مترو باريس، القريبة من جنيف. كذلك جاء عدد كبير من الطلبة من تلك الدول للالتحاق بجامعة جنيف وخاصة من الطالبات الجزائريات الهاربات من أحداث العنف ومن المجازر الوحشية التي انتشرت في الجزائر، بسبب التعصب والتشدد من بعض الحركات والجماعات الإسلامية، وظاهرة اضطهاد البنات والنساء اللواتي لا يرتدين الحجاب بل واغتصابهن وأحيانا قتلهن، مما جعل وسائل الإعلام في فرنسا

وفي سويسرا تنشر مقالات وصور وقصص وحكايات مبالغ فيها عن هذه الأحداث المؤسفة.

بدأت أجواء من الخوف من كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين تنتشر بين الفرنسيين والسويسريين، وأصبحوا ينظرون إلى المسلمين نظرات فيها ريبة وشك بل إن البعض بدأ يخلط بين تعبير "مسلمين" و"إرهابيين". وزادت حدة الخوف بعد انتفاضة الحجارة الأولى في الأراضي الفلسطينية، في بداية الثمانينيات، ثم انتشار ظاهرة الفدائيين الذين يفجرون أنفسهم بحزام ناسف في المقاهي والملاهي الإسرائيلية، فأصبح بعض السويسريين يرون في كل مسلم ملتح"إرهابيا" يريد أن يفجر نفسه أو يفجر ما حوله، وفي كل امرأة مسلمة ترتدي الحجاب "إرهابية" تخفي قنبلة تحت حجابها.

وأصابتني الدهشة الشديدة عندما سمعت لأول مرة أحد زملائي في الجامعة يتحدث عني ويذكرني بقوله "الأستاذة المسلمة". هكذا لم أعد "المصرية" وأصبحت "المسلمة" بينما أنا نفس الشخص لم أتغير ولكن نظرة السويسريين لي هي التي تغيرت، على الرغم من أنني لم أرتد الحجاب في الجامعة لأنه ممنوع أن يظهر المدرس أو المدرسة في المدارس والجامعات الحكومية أو حتى الموظفين والأطباء وخاصة الطبيبات وجميع العاملين في الدولة، ليس مسموحًا لهم بارتداء أي شيء يدل على انتمائهم الديني حيث إن الدولة علمانية محايدة فيجب ألا يبدو على العاملين بها في مظهرهم الخارجي وتعاملاتهم وتصريحاتهم أي شيء يدل على دينهم مثل حجاب المرأة المسلمة، صليب كبير على صدر المسيحية أو "طاقية سوداء" على رأس اليهودي.

وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001 المؤسفة وتفجير برجي التجارة العالمية في نيويورك، وإلصاق تهمة هذه العمليات الإرهابية بالمسلمين، تفاقمت المشكلة وازدادت مظاهر الخوف بل الرعب من الإسلام والمسلمين وانتشرت بين الأوروبيين ظاهرة جديدة أطلق عليها اسم "الإسلاموفوبيا" أي الخوف من الإسلام والمسلمين.

* * *

عشت كل هذه الإجواء الصعبة في جنيف مع بداية الثمانينيات وأحسست لأول مرة بأنني أصبحت غير مرغوب فيها، وأنني متهمة ويجب أن أدافع عن نفسي وعن ديني وعن إسلامي. بدأت أكتب بعض المقالات في الصحف السويسرية لتهدئة النفوس والتعريف بسماحة الإسلام ودرأ تهمة الإرهاب عن الإسلام والمسلمين. كما اشتركت في عدة برامج تليفزيونية سواء في التليفزيون السويسري أو الفرنسي وذلك في حلقات نقاشية مع بعض المفكرين من غير المسلمين في حوارات دينية عن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وكنت دائما أدافع عن سماحة الدين الإسلامي وأعرض لمحات من سيرة الرسول الكريم محمد (ﷺ) لتكذيب الادعاءات المغرضة المنتشرة في الغرب عنه، ولتصحيح تلك الصورة المشوهة التي رسمها المستشرقون عن رسولنا الكريم في أدبياتهم، ولكن للأسف الشديد لم تأت جهودي بالنتائج المرجوة بسبب انتشار موجة العداء للإسلام والمسلمين أو ما يطلقون عليه "الإسلاموفوبيا".

وفي صيف 1994، قامت زوبعة في وسائل الإعلام السويسرية ضدي بعد أن نشرت لي إحدى الصحف السويسرية واسعة الانتشار وهي صحيفة" "لاتربيون دي دنيف" مقالة بعنوان "لا تمسوا قرآني" أدافع فيها عن القرآن الكريم بعد أن دأبت بعض الصحف علي نشر مقالات ورسومات كاريكاتورية فيها استهزاء بالإسلام وبالقرآن الكريم وبالرسول محمد (ﷺ). وفي مقالي هذا انتقدت الكاتب الإنجليزي من أصل هندي سلمان رشدي، مؤلف كتاب "الآيات الشيطانية" كما انتقدت كذلك

الكاتبة البنجلادشية، تسليمة نسرين، مؤلفة كتاب "العار" الذي تطالب فيه بحذف جميع الآيات القرآنية التي "تضطهد" النساء.

وفي مقالي هذا كتبت، أن كلاً من سلمان رشدي وتسليمة نسرين يعتبران من المرتدين عن الإسلام، وإن الإسلام في غنى عنهما ويتبرأ منهما ومن أمثالهما وأنهما يستحقان مظاهر العداء ضدهما التي ظهرت في المظاهرات التي قامت ضدهما والفتوى التي أصدرها الإمام الخميني بسفك دم المرتد سلمان رشدي.

أثارت هذه المقالة كثيرًا من الجدل في الأوساط الثقافية السويسرية وأفاضت الصحف في الرد ونشرت مئات من رسائل القراء ردا على مقالتي واتهموني بأنني من مؤيدي القتل والعنف، وأنني أحرض على قتل سلمان رشدي وتسليمة نسرين. ووصل الأمر إلى إدارة جامعة جنيف وإلى وزيرة التعليم، وهي يهودية، فأرسلت لي "إنذارًا بالفصل" من الجامعة. تطورت الأمور وتم استدعائي من وزارة التعليم العالي وتهديدي بالفصل إن لم أكذب ما كتبت وأعتذر عنه، ولكني رفضت وتمسكت بما قلت.

والحقيقة أن موقف المسلمين في سويسرا شجعني على الصمود، فقد ساندتني المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف أو المسجد الكبير كما يطلقون عليه، وكذلك وفد جامعة الدول العربية وجميع سفراء الدول العربية والإسلامية في جنيف، وخاصة السفير المصري لدى الأمم المتحدة حينذاك، د. منير زهران، الذي أعلن إنه يساندني "قلبا وقالبا" إلى جانب مساندة القراء المسلمين وبعض الأصدقاء من السويسريين وخاصة من

البروتستانت والكاثوليك وحتى اليهود الذين كنت أشارك معهم في ندوات عن حوار الأديان.

وكما يقولون "رب ضارة نافعة" فقد أثارت هذه القضية ردود فعل أيضا في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، حيث نشرت بعض الصحف والمجلات العربية مقالات وتحقيقات عني وعن موقفي من الدفاع عن القرآن الكريم وما تعرضت له من تعسف من جامعة جنيف بسبب موقفي المدافع عن ديني ومعتقداتي. وكان أول من تناول الموضوع مجلة "زهرة الخليج" في الإمارات العربية المتحدة حيث نشرت تحقيقا مطولا من عدة صفحات في عددها 812 الصادر بتاريخ 15 أكتوبر 1995 بعنوان مثير "سويسرا تعلن الحرب على سيدة عربية تدافع عن القرآن: قالت الدكتورة فوزية العشماوي: لا تمسوا قرآني، وصرخت جنيف: مسلمة متعصبة تدعو للقتل". وكذلك نشر الكاتب الكبير الأستاذ فهمي هويدي مقالا مطولا رائعا في صحيفة "الشرق الأوسط" بعنوان "جائزة الدفاع عن القرآن وجائزة مهاجمة القرآن" وأجرى فيه مقارنة بين ما تعرضت له من تعسف وإنذار بالفصل من عملي بالجامعة بسبب دفاعي عن القرآن الكريم، والجائزة التي حصلت عليها الكاتبة البنجلادشية المرتدة تسليمة نسرين لأنها انتقدت القرآن الكريم في كتابها "العار" والذي طالبت فيه بحذف كل الآيات القرآنية التي "تظلم المرأة المسلمة" حسب قولها، مما أثار غضب المسلمين في بنجلاديش وخرجوا في مظاهرات صاخبة يطالبون بقتلها، فهربت من بلادها ولجأت إلى هولندا التي منحتها اللجوء

السياسي كما منحتها أكبر جائزة أدبية لديها مكافأة لها على كتابها "العار" لما فيه من حرية التعبير والدفاع عن حقوق المرأة المسلمة.

كذلك نشرت صحيفة الشرق الأوسط مقالا رائعا بتاريخ 1994/9/25 بقلم الأستاذ أحمد أبو الفتوح بعنوان "أخيرا... حدث التحرك للدفاع عن الإسلام" قال فيه: "الدكتورة فوزية العشماوي أرَّقها ما نشرته الصحف في سويسرا وما تذيعه الإذاعات تأييدا لسلمان رشدي وتسليمة نسرين، واتهام الإسلام بأنه دين التعصب وتحريم حرية الرأي... إشتركت الدكتورة فوزية العشماوي في برنامج تليفزيوني مع سيدة قامت بترديد الهجمات التي تشنها وسائل الإعلام الغربية ضد الإسلام، وتولت الدكتورة فوزية التصدي لهذه الاتهامات بهدوء وفهم وإدراك جعل أحد أصدقائي -وهو مسيحي- يبادر بالاتصال بي تليفونيا ويبدي شديد إعجابه بالحجج التي قدمتها الدكتورة فوزية، ولم تكتف الدكتورة فوزية بالبرنامج التليفزيوني بل أرسلت خطابا سجلت فيه رأي الإسلام في أمر المرتد عن الدين ونشرته جريدة "تريبيون دي جنيف" في عدد يوم 19 أغسطس 1994. إن تصدي الدكتورة فوزية العشماوي للحملات ما يستحق ليس فقط التقدير بل تحرك المنظمات والحكومات الإسلامية إلى تبني أسلوب عمل يوفر باستمرار توضيح ديننا. كما نشرت الصحف السعودية مقالات متعددة عن الموضوع ولعل أكثر المقالات التي تناولت القضية مقالة بقلم محمد عيسى الكنعان في صحيفة الرياض بتاريخ 31 أغسطس 1994 بعنوان "الدكتورة فوزية العشماوي تنادي من

جنيف والإسلاماه" ومقالة أخرى بعنوان "الدكتورة فوزية العشماوي... في انتظار نخوة المعتصم" جاء فيها: "في الوقت الذي تجد فيه الكاتبة المرتدة تسليمة نسرين التكريم وبسط السجاد الأحمر ونثر الورود المعطرة في كل تحركاتها تواجه الدكتورة الفاضلة فوزية العشماوي قضية تتفاعل في جنيف تغذيها حرب إعلامية غربية تطالب عبر صولاتها بتأديب الدكتورة ومحاكمتها كما تدعو إلى إقصائها من وظيفتها العلمية. وهنا نجد تباين الموقف الذي يمرغ قلب المسلم في تراب الحزن ويسحق نفسه بخناق الكدر... فالمرأة التي هاجمت القرآن الكريم تجد كل نصرة عندما هب الغرب للدفاع عنها، بينما لم يترك العالم الإسلامي لتلك المرأة التي دافعت عن القرآن الكريم إلا اللهم البيان الذي صدر عن المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف، والذي نشر في صحيفة "لوكورييه" وكان مفاده أن كل جريمة السيدة فوزية العشماوي أنها واتتها الشجاعة للدفاع عن دينها، ومن ثم فيجب ألا تتحالفوا ضدها وتجعلوها تدفع ثمن دفاعها عن الإسلام بمحاربتها في وظيفتها في الجامعة أنها صادقة وليست متعصبة".

والحمد لله سرعان ما انقشعت هذة الغمة ونصرني الله سبحانه وتعالى واضطرت الجامعة والوزيرة إلى سحب التهديدات بالفصل تحت تأثير هذا التأييد من الجميع لما عرف عني من أنني مسالمة ومعتدلة، فقد اكتفت وزيرة التعليم بأن أرسلت لي خطابا مسجلا به "لفت نظر" على ألا أعود للخوض في أي حديث علني عن انتمائي للدين الإسلامي، وخاصة في وسائل الإعلام السويسرية للدفاع عن معتقداتي الدينية، وأن أحترم علمانية وحياد الدولة السويسرية التي أمثلها لأنني أعمل بجامعتها!

ولكنني لم أبال بهذه التهديدات، واعتبرت "لفت النظر" نيشانا وضع على صدري وفي ملف خدمتي ورمزا لدفاعي المشروع عن ديني وعن قرآني الكريم. و لم تمر سنوات على تلك الزوبعة حتى ثارت زوبعة ثانية على إثر نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول الكريم محمد (ﷺ) في صحيفة دنماركية، ثم إعادة نشر هذه الرسوم في الصحف الفرنسية والصحف السويسرية مما أثارني واستفزني مثلما حدث لكل مسلم يحترم دينه ويحترم الرسول الكريم. و لم أنتظر طويلا لمواجهة ذلك التيار المتشدد والتعصب الديني المتزايد ضد المسلمين في أوروبا.

وما إن أعادت صحيفة لا تربيون دي جنيف، عام 2007، نشر الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية المسيئة للرسول الكريم (ﷺ) حتى قمت على الفور بإرسال خطاب عاجل بالفاكس لرئيس تحرير هذه الجريده كتبت فيه "أتحداك أن تنشر خطابي هذا في صحيفتكم باسم حق حرية التعبير الذي تدافعون عنه وتنشرون الرسوم المسيئة لمعتقداتنا الدينية باسم حق حرية التعبير، فلو أنكم حقا تحترمون حق حرية التعبير فيجب عليكم احترام حقي في حرية التعبير، وتنشرون خطابي هذا، وهو خطاب ونداء إلى جميع المسلمين في سويسرا لمقاطعة جريدتكم وإلغاء اشتراكاتهم فيها وأنا أول قارئة أطلب منكم إلغاء اشتراكي في جريدتكم وأعلن مقاطعتي لجريدتكم".

وتحداني رئيس تحرير صحيفة لا تربيون دي جنيف هذه ليثبت لي وللقراء أنه بالفعل يحترم حق حرية التعبير ونشر خطابي في الصفحة الأولى في الجريدة واستجاب كثير من القراء المسلمين لنداء مقاطعة الجريدة

فتضاءلت مبيعاتها. سارع رئيس التحرير يستنجد بالتليفزيون السويسري وطالب بإجراء مناظرة تليفزيونية معي ليثبت للمشاهدين أن جريدته إنما نشرت الرسوم من منطلق حق حرية التعبير وليس بقصد الإساءة للقراء المسلمين.

وفي المناظرة التليفزيونية التي أذيعت على الهواء مباشرة في النشرة الإخبارية المسائية التي يشاهدها الملايين في سويسرا وفي فرنسا، انتهزت الفرصة وعرضت لمحات عن حياة الرسول الكريم (ﷺ) وعن تسامحه وأنه أول من نادى بالمساواة بين الغني والفقير، وبين الأبيض والأسود وأول من نادى بعدم التمييز العنصري وأول من ألغى العبودية وأول من منح المرأة حقوقها وكرامتها والشخصية القانونية والذمة المالية المستقلة، فكيف تتهمونه بالإرهاب وتضعون على رأسه قنبلة على وشك الانفجار مثلما ظهر في أحد الرسوم المسيئة؟

وبهذه الطريقة ضربت عصفورين بحجر، فقد عرفت رئيس التحرير بخطئه وعرفت المشاهد بحقيقة شخصية الرسول الكريم (ﷺ).

وعلى الرغم مما تعرضت له من استنكار ونقد وتجريح من بعض القراء المتعصبين، وكذلك من بعض مشاهدي التليفزيون الذين أرسلوا لي خطابات مطولة ينتقدون فيها تعصبي"للإسلام" و"ينصحونني" بتصحيح موقفي لأني أعيش في بلد محايد يحترم حرية التعبير وينبذ العنف والتعصب، وأنني أعتبر متعصبة لأني أدافع عن الإسلام دفاعا عميانيًا. فإنني لم أبال واستمريت في الكتابة لصحف أخرى مثل صحيفة "لو تان" وهي من

أوسع الصحف انتشارا في سويسرا لتصحيح الصورة المشوهة المنتشرة في سويسرا وفي معظم الدول الأوروبية عن الإسلام والمسلمين وخاصة عن المرأة المسلمة، وكنت أوقع باسمي على مقالاتي في الصحف والمجلات الأوروبية التي أنشر فيها باللغة الفرنسية، وأكتب تعريفًا بنفسي بتعبير: "باحثة مسلمة مصرية سويسرية".

أرسل أحد القراء خطابا نشرته هذه الجريدة في باب "بريد القراء" وهو خطاب احتجاج من مفكر سويسري كبير يستنكر موقفي ويقول فيه: "كيف توقعين على مقالاتك وتعربفك بنفسك، وتذكرين أنك مسلمة بينما أنت أستاذة في جامعة علمانية ويجب أن تكوني علمانية مثل الجامعة التي تمثلينها وتعملين بها، وكيف تذكرين انتماءك للإسلام ولمصر قبل انتمائك لسويسرا التي منحتك العلم والثراء والشهرة؟ ورددت عليه بمقال مطول قلت فيه: "لقد ولدت في مصر مسلمة مصرية، وأول ما نطقت نطقت بالعربية، وهي لغتي الأم وأول ما حفظت، حتى قبل أن أتعلم القراءة والكتابة، كان سور وآيات من القرآن الكريم وهو كتابي المقدس وأول ما درست درست اللغة العربية والدين الإسلامي قبل أن أتعلم الفرنسية والإنجليزية وقبل أن أتجنس بالجنسية السويسرية. ومازلت وسأظل كذلك طوال حياتي رغم حبي الشديد لسويسرا التي أعطتني الكثير، ولكن انتمائي للإسلام وللغة العربية ولوطني الأم مصر سيظل دائما الأول والأقوى".

* * *

أمواج الحنين

لا يوجد شيء في الدنيا أقسى من الوحدة في الغربة حين يفتقد الإنسان شخصا ما، كما يقول الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين، رائد الرومانسية في القرن التاسع عشر في فرنسا، صاحب أشهر بيت شعر عن الشعور بالغربة بعيدا عن الحبيب الذي يقول فيه:

إنســان واحد تفتقده　　فيبدو العالم من حولك خواء

هذا الخواء العاطفي يزيد من إحساس الإنسان بالغربة، خاصة حين يجد الإنسان نفسه بدون رفيق يذكّره ببلده الأصلي ويخفف عنه الإحساس بالغربة في بلاد مختلفة في اللغة والدين والعادات والتقاليد والمناخ والجو.

كل شيء في بلد الغربة يجعلك تشعر أنك لست في بلدك وبين أهلك

وناسك، وكلما نظرت حولك وجدت نفسك غريبا عن كل ما يحيط بك من مناظر طبيعية ومن وجوه بشرية ومن أصداء كلام غريب يخرق أذنيك بمعان ومعتقدات تخالف معتقداتك الراسخة في وجدانك، ساعتها يزداد شعورك بالغربة ويجتاحك حنين جارف للوطن ولرؤية ناس آخرين، لمناظر طبيعية مختلفة، لأصوات وكلام وضحكات وتعليقات مغايرة، تشعر بالرغبة في الجري، الجري بعيدا عن كل ما حولك ربما يوصلك الجري إلى هناك إلى البلد الذي تحن إليه، إلى الناس الذين تود أن تسمع أصواتهم، إلى المناظر الأليفة التي اعتادت عيناك رؤيتها. ولكن الغريب في الأمر أنك حينما تعود إلى الوطن وتشم رائحته، رائحة الأرض والشجر والناس وترى الطبيعة والمباني القديمة العتيقة التي يفوح من خلالها عبق التاريخ والذكريات، تجد نفسك تائها وسطها وتسمع صوتك نابعا من أعماقك:

"أهذا ما كنت تبحث عنه هناك في الغربة، وتشتاق اليه؟".

ويأتيك الصوت خافتا مترددا: "كأنه هو".

سنوات طويلة عشتها وأنا أتأرجح بين مصر وسويسرا أو بالأصح بين الإسكندرية وجنيف، كل من المدينتين عريقة في القدم ولها تاريخ مميز وكل منهما تطل على المياه، فالإسكندرية تطل على البحر وجنيف تطل على البحيرة. وعندما أكون أمام البحر في الإسكندرية أشعر بالحنين الجارف إلى بحيرة جنيف، وحين أكون في جنيف أشتاق لرائحة بحر الإسكندرية.

وعشت بين الإسكندرية وجنيف أصارع أمواج الحنين وشجن السنين!

الحنين الجارف إلى شيء ما، إلى شخص ما، إلى لحظة ما من العمر مرت ولن تعود أبدا مهما استحضرناها بخيالنا وإحساسينا وحواسنا، الحنين يجعلنا نعيش في الماضي نتخيله من جديد، نود لو يعود لنعيش نفس اللحظات بنفس الأحاسيس وفي نفس الجو. ولكن هيهات هيهات أن نعيد ما فات.

عشت الحنين إلى الوطن والحنين إلى الحبيب الأول والحنين إلى الزمن الجميل، إلى عهد الطفولة وعهد الشباب وعهد الهوى، أين مني كل هذه الذكريات بحلوها ومرها، استعادة الذكريات فن لا يجيده إلا الإنسان المرهف الحس. كثير من الأدباء والشعراء كتبوا روائع فنية عن الحنين، فالأدب العربي زاخر بقصائد الشوق والحنين ولعل أشهرها قصائد المجنون قيس بن الملوّح وهو يحن لمعبودته ليلى لدرجة أنه كان يستعيد ذكراها ويغمر بالقبلات جدران بيتها المهجور بعد أن رحلت بعيدا.

أما في الأدب الفرنسي الحديث، فالأديب الروائي مارسيل بروست قد خلد الحنين للطفولة ولذكرياتها في روايته الطويلة المشهورة " البحث عن الزمن الضائع"، من خلال حاستي الشم والذوق، فكلما أكل في شيخوخته قطعة من المادلين، وهي نوع من المعجنات الفرنسية مثل الكيك، استعاد طعم ورائحة المادلين التي كان يأكلها وهو طفل، ويجرفه الحنين إلى أمه وإلى وجهها الباسم وهي تقدم له قطعة المادلين في طفولته ويحن إليها وإلى

كل ما في البيت من أثاث وستائر ومفروشات وحتى الضيوف، ضيوف وضيفات أمه!

أما أنا فإنني أستعيد الذكريات من رنين الأصوات في أذني، فما زلت أسمع صوت المؤذن، مؤذن مسجد أبو العباس بالإسكندرية، وربما يكون هو أول صوت سمعته بعد مولدي في منزل صحن مسجد أبو العباس، وأستعيد صدى صوته في فناء المسجد الواسع وأسمع رنيته مع كل آذان في أي مكان من العالم، على الرغم من اختلاف تموجات الصوت وأسلوب الأذان من بلد لبلد. سمعت الآذان في الحرم المكي وفي الروضة الشريفة بالمدينة المنورة وفي المسجد الأزرق باسطنبول وفي مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء وفي مسجد كبير في سكوبجيه في ماقدونيا، وحتى في المسجد الكبير بقرطبة في إسبانيا مسحوبا بنغمات موسيقي أندلسية بديعة. ولكن صوت مؤذن مسجد أبو العباس بالإسكندرية في الأربعينيات له صدى مختلف ورنينه في أذني لا ولن يضيع.

كذلك رنين جرس الكنيسة، حتى الآن كلما سمعت جرس إحدى الكنائس في جنيف أستعيد رنين جرس الكنيسة، كنيسة مدرسة السبع بنات بالإسكندرية، وهو يدق الدقات الإثنتي عشرة حين يتعانق عقربا الساعة في منتصف النهار ليعلن موعد صلاة "الأنجلوس"، فتتوقف الدراسة وتقام صلاة قصيرة في الفصل قبل النزول إلى فناء المدرسة حيث نفترق نحن المسلمات عن التلميذات المسيحيات اللواتي يدخلن الكنيسة مع الراهبات بينما نلعب نحن في الفناء لحين انقضاء صلاتهن.

وتغمرني أمواج الحنين كلما سمعت صوتا يتغنَّى بأغنية ما سمعتها وأنا طفلة ثم وأنا شابة في مكان معين وفي ظروف معينة ثم مر الزمان وتغير المكان وبقيت الأغنية كما هي وكلما سمعتها تذكرت الزمان والمكان والأحداث البعيدة:

أشعر بحنين شديد إلى أبي كلما سمعت أغنية محمد عبد الوهاب الجميلة "يا ما بنينا عش الأمانيّ"، وخاصة المقطع الذي يعبر فيه عن حنينه وافتقاده لحبيبته نوال ويقول فيه:

يا نوال فين عيونك اشتكيلك همي وذل حالي

وأبتسم وأنا أتخيل أبي جالسا على الكرسي الخيرزان في بلكونة شقتنا في شارع البحرية بالإسكندرية يدخن سيجارة ويسعل من حين لآخر وهو يحادثني، وأنا جالسة أمامه على الأرض على عتبة البلكونة أتأمل الفنار البعيد وهو يرسل ومضات نوره التي تضيء وجه أبي الأسمر الممتلئ. حكي لي مرة ونحن جالسان هكذا عن سر تسميته لي: "نوال" بعد أن سجل اسمي في شهادة الميلاد "فوزية". قال لي: بعد ما رجعت من مكتب الصحة بعد تسجيلك وكتابة اسمك "فوزية" على اسم الأميرة فوزية، عروسة مصر التي تزوجت ابن ملك إيران، سنة ما إنت اتولدتي. رجعت بيتنا وأنا طالع السلالم سمعت صوات وعويلاً من شقة أختي اللي كانت ساكنة في نفس العمارة فوق شقتنا، جريت عليها لقيتها بتصرخ وتصوّت لأن بنتها "فوزية" اللي عمرها شهرين، ماتت وهي على ذراعها في اللحظة دي. داريت عنها إني سميت بنتي على اسم بنتها وعلى اسم

الأميرة فوزية، كل الناس اللي كان ربنا بيرزقهم ببنت في السنة دي كانوا بيسموها فوزية. ولما رجعت لشقتنا، لقيت أمك فاتحة الراديو، وكان محمد عبد الوهاب بيغني ويقول: "يا نوال فين عيونك" وسألتني أمك: رحت مكتب الصحة وسجلت البنت؟ هزِّيت رأسي فسألتني: "وسميتها إيه يا ترى"، رديت عليها بدون تفكير: "سميتها نوال!".

كانت والدتي وإخوتي وجميع الأهل والجيران والمعارف يعتقدون أن اسمي "نوال" وينادونني به ولم أكتشف أنا اسمي الحقيقي إلا في اليوم الأول لذهابي إلى المدرسة، عندما بدأت المعلمة تنادي على أسماء التلميذات البنات وكل واحدة تقف عند سماع اسمها وتقول نعم وأنا الوحيدة التي لم أسمع اسمي ولم أقف ولم أقل نعم فسألتني المعلمة: إنت اسمك إيه يا شاطرة؟ أجبتها: اسمي نوال، بحثت عن الاسم ولما لم تجده سألتني: واسم أبوكي إيه فقلت "عبد المنعم"، وبعد أن بحثت في كشف الأسماء قالت لي: لا، إنت اسمك فوزية مش نوال!

ومن أجمل أغاني محمد عبد الوهاب القديمة التي أحببتها أيضا أغنية بها مقطع يقول فيه:

فين صوتك الحلو الرنان   يخفف الأحزان عني

كان أبي يغنيها وعندما كنت أسمعها وأنا صغيرة أضحك في نفسي وأقول بسخرية: "يظهر أن حبيبته كانت "غجرية" وصوتها عاليًا وبتزعق على طول"، ولكني بعد أن أحببت وعاشرت من أحببت سنوات طويلة في بيت الزوجية، عرفت معنى الصوت الرنان وهو يدخل عليّ البيت ويناديني

بصوته الحلو الرنان ليعرف أين أنا، ويطبع قبلة على خدي ويحكي لي عن يومه في العمل وأبادله حديثا بحديث وحكاية بحكاية.

ومن الأغاني التي أحببتها ورددتها كثيرا أغنية فريد الأطرش الرائعة:

حبيب العمر حبيتك وأخلصت في هواك عمري

لا يوم خنتك ولا نسيتك ولا في يوم غبت عن فكري

كان اللحن يجذبني وتشدني الكلمات الجميلة عن معنى الإخلاص فى أسمى معانيه، فليس في الدنيا قيمة أجمل من الإخلاص، فالإخلاص شيمة الكريم والخيانة شيمة اللئيم.

انجذبت بعد ذلك لصوت عبد الحليم حافظ في بعض أغانيه وليس كل أغانيه، وما شدني لعبد الحليم حافظ هو إعجاب زوجي به بينما كنت أنا من أشد المعجبين بفريد الأطرش، وكنا أحيانا نختلف بل ونتشاجر بسبب فريد وعبد الحليم، وهناك أغنية لعبد الحليم أتذكرها دائما ليس لأنها أجمل أغانيه ولكن لأن يوم خطوبتنا وبعد انتهاء الحفل، خرجنا خطيبي وأنا مع أصدقائنا نتمشّى على كورنيش الإسكندرية، كنا في شهر نوفمبر، وكان الضباب الكثيف يلف المدينة وبدأ خطيبي يغني مقلدا عبد الحليم حافظ ونحن نضحك ونتريّق عليه:

يا شارع الضباب مشيتك أنا وحدي مرة بالعذاب ومرة بالهنا

وكلما سمعت هذه الأغنية لعبد الحليم حافظ وموسيقاها ذات الخلفية الجوفاء التي توحي بكثافة الضباب، أتذكر ضباب الإسكندرية في ليلة

خطوبتنا. ولاتزال هذه الذكرى تعيش في وجداني وأستعيدها خاصة في شتاء جنيف القارص البرودة، حين أتمشّى أحيانا وحدي وسط الضباب وأتذكر هذه الأغنية وأبتسم وأنا أقول في نفسي: "غريبة أن ليلتها لم أتشاءم من الضباب الكثيف بل كنت أضحك وأنا في منتهى النشوة وأنا أسير بجوار خطيبي وسط شلة أصدقائنا على شاطئ الإسكندرية، دون أن يخطر على بالي أنني في يوم من الأيام سأمشي وحدي وسط الضباب أستعيد ذكريات ضباب تلك الليلة البعيدة!".

أين أنا من أغنية فريد الأطرش البديعة:

يا مالكة القلب في إيدك دا عيد الدنيا يوم عيدك

لا أذكر أي احتفال بيوم عيد ميلادي في طفولتي، فلم تكن حفلات أعياد الميلاد للأطفال ولا حتى للكبار منتشرة في الأربعينيات والخمسينيات، لذا لم يحتفل أحد بعيد ميلادي وأنا طفلة. أول حفلة عيد ميلاد لي كانت وأنا مخطوبة ومن إعداد خطيبي. وبعد زواجنا، اعتاد زوجي أن يحتفل بعيد ميلادي كل عام. وكان يحتفل بي احتفالا كبيرا ويقدم لي هدية ثمينة من الذهب أو الماس مع باقة من الورود و"ييجي على نفسه" كما يقول لأنه لم يكن يحب فريد الأطرش ويغني لي بصوته "الحلو الرنان" هذه الأغنية الجميلة لفريد الأطرش. "يا مالكة القلب في إيدك دا عيد الدنيا يوم عيدك".

أما الآن فأولادي وأحفادي يحتفلون معي بعيد ميلادي ويقيمون لي حفلة كبيرة ويغمرونني بالهدايا ويضحكون ويغنون لي، ولكن رنين

صوته يطغي على أصواتهم وضحكاتهم، وأتذكره دائما وأنا وسطهم وأسمع صوته وكلماته الحلوة وأستعيد لفتاته الجميلة ودعاباته المرحة التي لا تزال تملأ قلبي، وأشعر أن الدنيا كلها تغني لي بصوته القادم من أعماق البحر.

كم مرة رددت مع كوكب الشرق أم كلثوم أبيات قصيدة "ثورة الشك"؟ فقد كانت أغنيتي المفضلة لسنوات طويلة:

أكاد أشك في نفسي لأني أكاد أشك فيك وأنت مني

يقول الناس إنك خنت عهدي ولم تحفظ هوايا ولم تصنه

ثورة الشك كما صاغها الأمير عبد الله الفيصل وكما غنتها أم كلثوم، عشتها بكل عنف أحاسيسها وتداعيات معانيها وتمنيت أن تكون عاصفة وتمر وتخمد الثورة ويعود الصفاء والهدوء ولكن العاصفة استمرت وازدادت عنفا وصخبا فدمرت كل شيء واقتلعت من الوجدان أجمل وأنبل العواطف التي جمعت بيننا في يوم من الأيام.

كم مرة غنيت أمام بحر إسكندرية ودموعي تنساب في صمت:

يا موج البحر أنغامك شكت للشط عن حالي

وكان حبي في أحضانك وقلبي من الهوى خالي

المقطع الأخير من اللحن الخالد لفريد الأطرش "بنادي عليك"، أسمعها في أذني كلما وقفت أمام البحر في السلسلة بالشاطبي بالإسكندرية وتأخذني ذكرى ما فات، ويزداد حنيني للماضي الجميل وإحساسي

بالوحدة على الرغم من وجود الأولاد والأهل والأصدقاء، وأستعيد في خيالي كشريط سينمائي عِشرة العمر الطويلة التي هانت عليه كما هانت عليّ.

أما المقطع الأخير من رائعة عبد الحليم حافظ، "في يوم في شهر في سنة":

كنت أتمنى يطول العمر وأعيش حواليك

ولا أشوف عمري دمعة حزينة تملا عينيك

فلم أكن أتخيل أبدا أنني سأرى هذه الدمعة تنساب من عيني رفيق العمر وهو في غيبوبة، وأنا جالسة على حافة سريره في غرفة الإنعاش في مستشفى جنيف الجامعي، أحاول أن أعيده إلى الوعي، أقول له إني سامحته، وسأظل على عهده وأني لم ولن أحب سواه. فرغم الغيبوبة التي كان قد دخل فيها منذ يومين، فإنه يبدو أنه سمعني وطفرت دمعة من عينيه مسحتها بيدي، ولكنها كانت الدمعة الأخيرة من عينين مغمضتين لم يفتحهما بعد ذلك أبدا.

* * *

بعد وفاته تبعثرت أشلاء ذاتي وعدت وحدي للوطن وأمام البحر في الإسكندرية هاجت الذكرى ووجدت نفسي أكتب شعرا أقول فيه:

عشنا معا بعيدا عن الوطن سنوات طوالا

ذقنا فيها الحب أنهارا وزرعنا المودة أزهارا
لم نشعر بالغربة يوما و لم نعرف الشجن
نسينا الأهل و البلد وغرقنا في بحر العسل
ذات ليلة باردة غاب عن سمانا القمر
و ملأ السحاب أفقنا وطل منه الحزن
انقسمت دنيانا و سرنا كل في طريق مختلف
عدت و حدي للبلد بعد أن أضناني السهر
ضاع الحب في الغربة وأصبح رفيقي الشجن
و تركت فيها من كان يوما عوضي عن الوطن!

الجزء الثالث

أمواج المشاهير

أمواج المشاهير

مدينة جنيف ملتقى دولي وثقافي وفني، وتعقد فيها كثير من المؤتمرات الدولية المهمة، لذا فإن كثيرًا من الشخصيات السياسية والدبلوماسيين والمشاهير يتدفقون عليها مثل الأمواج. ولقد التقيت فيها بشخصيات مرموقة من جميع الأوساط ومن مختلف المجالات والتخصصات سواء شخصيات تمر في زيارة خاطفة أو شخصيات أقامت في المدينة الجميلة لسنوات أو لأشهر أو لأسابيع. ومعظم الشخصيات التي تعرفت إليها في جنيف سواء الشخصيات المصرية أو العربية أو الأجنبية كانت إما من الدبلوماسيين بحكم عملي كمترجمة ثم كمستشارة ثقافية في سفارة كل من المملكة العربية السعودية، ثم سفارة دولة الإمارات العربية المتحدة، إما بحكم عملي كأستاذة لغة عربية وحضارة إسلامية في كلية الآداب بجامعة

جنيف وإما بصفتي رئيسًا لجالية المصريين في سويسرا لعدة سنوات.

وقد التقيت في سويسرا كثيرًا من أدباء مصر والعالم العربي في ندوات ومؤتمرات أدبية أو أثناء إقامتهم في "لافيني" وهو قصر الأدباء في جبال سويسرا، حيث تتم دعوة أدباء وكتاب من جميع أنحاء العالم للإقامة مع بعضهم في قصر على قمة جبل في سويسرا، يتفرغون فيه للكتابة والإبداع لمدة شهر، بعيدا عن المشاكل التي قد يعانون منها في موطنهم. وقد تبرعت أرملة ثري سويسري كبير، بهذا القصر ليكون مقرا لإقامة الأدباء بدون تفرقة بينهم يقيمون فيه شهرًا مجانا ويكتبون بحرية ما يشاءون.

من بين الشخصيات المرموقة التي التقيت بها في جنيف وباريس والقاهرة أذكر:

الملوك والرؤساء والشخصيات السياسية

- الرئيس محمد أنور السادات، رئيس جمهورية مصر

كان هذا اللقاء في عام 1974 بعد انتصارات أكتوبر في مقر السفارة المصرية في باريس، خلال إحدى زيارات الرئيس السادات الرسمية لفرنسا، حيث أعرب عن رغبته في لقاء مفتوح مع المبعوثين المصريين. ذهبت مع زوجي، الذي كان وقتها رئيس اتحاد الطلبة المصريين في سويسرا. قام الرئيس السادات بمصافحتنا جميعا فردا فردا، وقد لفت نظري لون بشرته، فلم أر في حياتي مثل هذا اللون لبشرة إنسان، فهو ليس فقط أسمر ولكنه أسمر بحمرة شديدة غير مألوفة وابتسامته تبرز بياض أسنانه اللامعة، أما لهجته الصعيدية فلم تكن طبيعية بل مبالغ فيها. خطب فينا وتحدث بفخر

زائد عن انتصارات أكتوبر المجيدة وبسالة الجنود وشجاعتهم وبطولتهم الخارقة في عبور القناة ونسف خط بارليف.

قدم لنا الرئيس السادات تصورا جديدا عن حرب أكتوبر لم نكن قد سمعناه من قبل، لأننا نحن المصريين في الخارج، لم نكن قد تشبعنا بعد بتحليلات المصريين لحرب أكتوبر ولم نكن سمعنا الأناشيد الوطنية والخطب الحماسية ولم نقرأ المقالات والتحقيقات الصحفية ولم نشاهد أفلام البطولات، فلم تكن الفضائيات قد انتشرت بعد، بل كنا جميعا قد تتبعنا وعايشنا تطورات حرب أكتوبر من خلال ما تبثه وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية، وكلها تقع تحت تأثير اليهود، وقد قدموا لنا وللعالم الغربي من خلال تحليلات كبار المعلقين العسكريين والسياسيين الأمريكيين والأوروبيين تصورا مختلفا تماما عن حرب أكتوبر، وأفهمونا أن ما حدث في الثغرة أضاع على مصر فرصة نادرة لتحقيق الانتصار والتقدم العسكري، وأن الحروب بخواتمها وأن مصر لم تخرج منتصرة في النهاية من حرب أكتوبر. لذا لم يلق خطاب الرئيس السادات الاستقبال والحماس الذي كان يتوقعهما من المبعوثين المصريين في فرنسا وسويسرا.

وعلى الرغم من أننا لم نعلق على كلامه فإنه لاحظ عدم اقتناعنا بوجهة نظره مما سبب له ضيقا واضحا بدا على وجهه.

– السيدة جيهان السادات

التقيت السيدة جيهان السادات في نفس المناسبة وقد عقدت سيادتها لقاء مع السيدات من زوجات الدبلوماسيين والمبعوثات والطالبات المصريات، كانت في منتهى الجمال والأناقة ولكنها تنظر إلينا نظرات فيها استعلاء وترفع، وكانت ترافقها الدكتورة سهير القلماوي وإنجي أفلاطون وبعض الصحفيات. وقد لاحظت عليها أنها لم تكن متمكنة من معلوماتها وهي تتحدث إلينا، وكلما ترددت في الحديث أسعفتها الدكتورة سهير القلماوي ببعض المصطلحات والمعلومات، وأحيانا أخرى كانت السيدة جيهان السادات تتوقف عن الكلام لتسأل إنجي أفلاطون عن معلومة ثم تستكمل حديثها. ولقد بهرني جمال السيدة جيهان السادات وما زلت أتعجب حتى الآن كيف أحبت هذه الشقراء الجميلة رجلا مثل أنور السادات بملامحه الغليظة ولون بشرته الغامقة وصوته الأجش، وكيف تزوجته وهي بهذا الجمال وهي في السادسة عشر من عمرها ومن طبقة أرستقراطية وأمها إنجليزية وهو صعيدي من ميت أبو الكوم "خريج سجون" ومطرود من الجيش وبلا عمل ومطلّق وعنده أولاد ويكبرها بعشر سنوات!

– الرئيس حسني مبارك

شاهدت الرئيس حسني مبارك عن قرب عدة مرات في جنيف أثناء حضوره مؤتمرات دولية، وكذلك صافحته عدة مرات في دار السفارة

المصرية بجنيف ورأيته عن قرب أيضا عدة مرات في قصر المؤتمرات بالقاهرة أثناء إلقائه الخطاب السنوي بمناسبة المولد النبوي الشريف، في إطار المؤتمر السنوي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والذي يعقد سنويا بمناسبة المولد النبوي الشريف، وتتم دعوتي للمشاركة فيه بصفتي أستاذة للحضارة الإسلامية بجامعة جنيف.

وفي كل عام كان رئيس الجمهورية حينذاك، حسني مبارك، يحضر الجلسة الختامية للمؤتمر ويلقي خطابا بهذه المناسبة بحضور وزير الأوقاف وشيخ الأزهر والمفتي ومعظم وزراء مصر في احتفال كبير بقصر المؤتمرات بالقاهرة. وبدلا من أن ينصت الرئيس للعلماء الحاضرين ويستمع إليهم خاصة أن الحضور من كبار رجال الدين والمفكرين وأساتذة الجامعات والمفتيين ووزراء الأوقاف من جميع الدول الإسلامية، وبدلا من أن يستفيد الرئيس من خبرتهم وعلمهم يقف يخطب في العلماء خطبة دينية تعتبر سطحية ومرتجلة بالنسبة لمعلوماتهم وثقافتهم وخبرتهم، وكنت أتعجب من التصفيق الشديد الذي يقاطع به الحضور خطاب الرئيس، وربما كنت الوحيدة بين الحضور التي لا تصفق ولا تقف حينما يقف الجميع لتحيته بحرارة شديدة ومبالغة لا تليق بالعلماء الأفاضل.

وقد منحني الرئيس حسني مبارك وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى للعلوم والفنون عام 2008 خلال الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وكنت من المكرمين من علماء المسلمين.

وعند صعودي إلى المنصة لاستلام الوسام احترمت تعليمات المسئولين

بمكتب الأمن برئاسة الجمهورية، الذين عقدوا لنا نحن المكرمين اجتماعا مصغرا قبل الاحتفال، وأوصونا خلال الاجتماع بعدم توجيه أي كلام للرئيس أو الضغط على يده وعدم الاقتراب الشديد منه أو النظر في عينيه وترك مسافة ذراع ممتدة بيننا وبينه. ولكني حين صعدت إلى المنصة واقتربت من الرئيس حسني مبارك لاحظ هو اضطرابي فجذبني قليلا نحوه هو يصافحني ويضغط على يدي الممدودة له لاستلام الوسام وقال لي بابتسامة ودهشة: " قالوا لي إنك من سويسرا لكن واضح إنك كده!" ولم أفهم على الفور ماذا يعني بكلمة "كده"، ولكني سرعان ما أدركت أنه يقصد أني أرتدي الحجاب، فكان لزاما عليّ أن أجيبه فقلت له: "أيوة ياريس أنا فعلا سويسرية ومصرية إسكندرانية... وبنحبوه" ضحك الرئيس عند سماع لهجتي الإسكندرانية وسألني: "هو مين اللي بتحبوه؟".

- السيدة سوزان مبارك

التقيت بها أكثر من مرة في جنيف وفي باريس. ولي معها عدة صور تذكارية نادرة. أول مرة التقيت بها في قصر الأمم المتحدة بجنيف مع الدكتورة أمينة الجندي، وزيرة الشئون الاجتماعية، خلال مؤتمر عن المرأة الريفية وكيفية النهوض بها. وعندما جاء الدور على كلمة مصر توقعت أن تقوم الوزيرة بعرض تقرير مصر مثلما فعل جميع وزراء الدول الأخرى، ولكني فوجئت بأن التي أخذت الكلمة هي حرم رئيس جمهورية مصر والتي بدأت تقرأ الورقة المقدمة من مصر باللغة

العربية، ولكنها سرعان ما انتقلت من اللغة العربية وبدأت تقرأ من الورقة بالإنجليزية. وقد التقيت السيدة سوزان مبارك بعد ذلك ثلاث مرات: مرتين في بيت السفيرة المصرية فايزة أبو النجا، التي كانت تشغل منصب سفيرة مصر ومندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة في جنيف قبل تعيينها وزيرة. والذي لاحظته على السيدة سوزان مبارك أنها سيدة متحفِّظة في كلامها تنصت جيدا لما يقال لها وتستدرج محدثها في الكلام، وأحسست أنها تريد أن تسمع بنفسها بعيدا عمن يحيطون بها دائما، ويلتفون حولها في دائرة لحمايتها أو لإبعادها عن الناس. وقد دهشت كثيرا من عدد الصحفيات المصريات اللواتي يصاحبن السيدة سوزان مبارك في رحلاتها لجنيف أو لباريس ويحيطن بها بكاميراتهن وأجهزة التسجيل بحيث يصعب على أي صحفي أو أي شخص يود الاقتراب منها أن يتحدث معها، وتساءلت لماذا يأتون معها حتى جنيف أو باريس لأخذ صور وأحاديث صحفية معها؟ لماذا لا يفعلون ذلك وهي في مصر وهم أيضا.

آخر مرة ألتقيت فيها بالسيدة سوزان مبارك كانت في باريس في قصر الإليزيه أثناء حفل العشاء الذي أقامه رئيس فرنسا السابق جاك شيراك عام 2006، قبل نهاية فترة رئاسته بقليل، وعرض خلاله مشروع المبادرة الأورمتوسطية بالاشتراك مع دول الخليج العربي. كانت السيدة سوزان مبارك ترتدي تاييرًا من تصميم أحد أكبر بيوت الأزياء في فرنسا وتتحلى بمجوهرات تبهر النظر، بينما برناديت شيراك، حرم رئيس جمهورية فرنسا، ترتدي ثوبا في غاية البساطة بلا أي حلى أو حتى ماكياج.

خلال ذلك اللقاء الأخير دار بيني وبين السيدة سوزان مبارك نقاش مطول عن أوضاع المرأة في مصر، وكنت أعد دراسة ميدانية كلفتني بها منظمة اليونسكو في باريس عن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمرأة في العالم العربي في العقود الأربعة الماضية. وطلبت من سيادتها أن ترشدني وتدلني على اسم مسئول مصري أحصل منه على أحدث الإحصائيات عن تطور أوضاع المرأة في مصر، خاصة أنها تهتم بقضايا المرأة المصرية، وأنشأت حركة سوزان مبارك للسلام وكانت في ذلك العام رئيس منظمة المرأة العربية. ولكن سرعان ما تقدم منا السفير المصري في باريس وقاطع نقاشنا بحجة أنني أرهق "الهانم" بأسئلتي وطلب مني أن أعطيه عنواني الإلكتروني ليرسل لي جميع المعلومات التي أحتاجها، ولكنه لم يتصل بي بعد ذلك أبدا. وللأسف لم أستطع الحصول على أحدث الإحصائيات عن المرأة المصرية رغم اتصالاتي المتكررة بالمسئولين المصريين ورغم استخدامي للإنترنت والدخول على مواقع مختلف الوزارات والهيئات المصرية التي من المفترض أن تحتوي على إحصائيات وتقارير حديثة يتم تحديثها دوريا ويمكن الاعتماد عليها في إعداد دراسات جادة، ولكنها للأسف الشديد لاتحتوى إلا على بيانات عن الاحتفالات والمؤتمرات ومختلف الأنشطة والصور وافتتاح المباني الجديدة وقص الأشرطة ولا يوجد بها إحصائيات. ولقد اضطررت للجوء إلى إحصائيات برنامج الأمم المتحدة للتنمية وتقاريره عن العالم العربي للحصول على معلومات دقيقة عن تطور المرأة المصرية.

– الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك والسيدة قرينته برناديت شيراك

قابلتهما في باريس في قصر الإليزيه الشهير، وكنت مدعوة بصفتي الأمين العام المساعد للمؤتمر الإسلامي الأوروبي، لحضور مؤتمر لطرح مشروع المبادرة الأورمتوسطية بالاشتراك مع دول الخليج العربي. وقد أقام الرئيس جاك شيراك حفل عشاء ضخمًا في قصر الإليزيه وكانت ضيفة الشرف السيدة سوزان مبارك، وكان الرئيس الفرنسي يسير بتواضع شديد وسط المدعويين وأخذنا عدة صور تذكارية معه، وكان لا يمانع في ذلك ويصافح الجميع بحرارة وابتسامته العريضة تحيي الجميع. أما زوجته السيدة برناديت فقد كانت في منتهى البساطة سواء في ثوبها العادي جدا أو في حديثها اللطيف معنا.

وقد حدثت نادرة لي في هذا الحفل، حيث شعرت بالعطش الشديد بعد تناول "السيمون فيميه" والكافيار. وبعد أن صافحت الرئيس شيراك الذي كان يسير ومعه الدكتور عبد العزيز التويجري، أمين عام منظمة الإسيسكو في الرباط والدكتور محمد البشاري، رئيس فيدرالية المسلمين في فرنسا، وتقدمت أنا بضع خطوات عنهم لعلّي أجد جرسونًا يحمل صينيه بها أكواب ماء أو عصير، وفجأة وجدت أمامي بالفعل جرسونًا أنيقًا جدا يحمل صينية فضية وعليها كأس واحدة مذهبة وبها ماء مثلج، فأسرعت أمد يدي لأمسك بالكأس وأروي عطشي ولكن الجرسون تراجع وهو يصرخ: "هذا كوب ماء الرئيس شيراك".

تراجعت مضطربة بينما وصل الرئيس جاك شيراك من ورائي وسمعته

يضحك بصوت مرتفع لأنه سمع ما قاله لي الجرسون، وفهم الموقف فأمسك بالكوب يمده لي لأشرب منه، ولكني رفضت شاكرة وهرولت مسرعة أبتعد وأنا في غاية الخجل.

– الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي

قابلته وصافحته وتناقشت معة وهو في منصب وزير الداخلية في فرنسا قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية، وذلك خلال مؤتمر الأمانة العامة للقيادة الشعبية العالمية الإسلامية الليبية، والذي عقد في باريس عام 2005. وكان نيكولا ساركوزي، ضيف الشرف الرئيسي في هذا المؤتمر عن الإسلام والمسلمين في أوروبا، بصفته وزيرًا للداخلية ومسئولاً عن شئون الأقليات والديانات في فرنسا. وكنت مشاركة في المؤتمر بمحاضرة عن صورة الإسلام والمسلمين في كتب التاريخ الأوروبية ومن بينها فرنسا، والمحاضرة عبارة عن تلخيص لدراسة مستفيضة قمت بإعدادها بناء على تكليف من مكتب التربية الدولي في جنيف ومنظمة اليونسكو في باريس. وقد استمع نيكولا ساركوزي باهتمام شديد للمحاضرة التي ألقيتها، وبعد المحاضرة صافحني وهنَّأني وناقشني في بعض النقاط وطلب مني نسخة من هذه الدراسة. وقد أرسلت لسيادته نسخة من الدراسة باللغة الفرنسية على وزارة الداخلية في باريس.

- الملكة نور، زوجة الملك حسين بن طلال، ملك الأردن السابق

قابلت الملكة نور عدة مرات خلال مؤتمرات المفوضية السامية لشئون اللاجئين في جنيف. الملكة نور لها شخصية قوية ومقدرة فائقة على التعبير باللغة الإنجليزية وفيها شموخ وتعال يتناسب مع مكانتها كملكة.

- الملكة رانيا، حرم العاهل الأردني

زوجة عاهل الأردن الحالي الملك عبد الله، فهي متحدثة بارعة أيضا وتعرف كيف تختار التعبيرات الملائمة لعرض قضية اللاجئين الفلسطينيين ومعاناتهم بأسلوب يتناسب مع العقلية الغربية. لها حضور قوي ربما يرجع لجمالها وأناقتها الملفتين للنظر، وأهم ما يميزها بساطتها وابتسامتها المشرقة وتواضعها الشديد في تعاملها مع كل من يقترب منها.

- الملكة سبيكة، حرم ملك البحرين

التقيت الملكة سبيكة في مونت كارلو بإمارة موناكو، أثناء رئاستها لندوة عن مشاركة المرأة المسلمة في الحياة العامة والسياسية في العالم العربي وكنت أنا رئيس إحدى الجلسات. عندما أخذت الملكة سبيكة الكلمة تحدثت بالإنجليزية بصوت رزين وبدقة في التعبير واتزان في عرض أوضاع المرأة البحرينية. وقد طلبت الملكة مقابلتي بعد سماع التقرير الذي عرضته بالفرنسية عن المشاركة السياسية للمرأة المسلمة في معظم

دول العالم العربي والإسلامي، وقد صافحتني الملكة باحترام وشكرتني على "العرض الرائع" حسب تعبيرها والذي تابعته هي باهتمام شديد من خلال الترجمة الإنجليزية، وطلبت مني نسخة من التقرير، وكانت في منتهى التواضع والبساطة وتلتف بعباية سوداء أنيقة.

- ملك البحرين، الشيخ حمد بن خليفة

وقد التقيت جلالته في القصر الملكي في المنامة، عاصمة البحرين. كنت مدعوة لحضور مؤتمر "التقارب بين المذاهب الإسلامية" الذي حضرة نخبة من العلماء والمفتيين ووزراء الأوقاف ورجال الدين وأساتذة الجامعات والباحثون في مجال الدراسات الإسلامية. وقد أقام جلالته حفل تكريم على شرفنا في قصره الرائع، في ضواحي المنامة، والمحاط بأشجار نخيل باصقة والقصر مبني على الطراز الإسلامي القديم بالأرابيسك وفن الخط العربي في تشكيلات هندسية ورسومات فنية وديكورات ونفائس نحاسية وسجاجيد بديعة بمساحات وأحجام لم أر مثيلاً لها في أي قصر من قصور العظماء التي دخلتها فيما عدا قصر الإليزيه في باريس. وقد رحب بنا جلالة ملك البحرين وصافحنا فردا فردا وتبادل مع كل منا كلمات ترحيب بسيطة والتقطت لنا صور تذكارية مع جلالته، وقد رحب ترحيبا خاصا بالسيدات العالمات وكنا خمس سيدات فقط وكانت معنا الدكتورة سعاد صالح، مفتي النساء في مصر، كما يطلقون عليها، والسيدة رباب الصدر من لبنان، ابنه أخت الإمام الصدر الذي إختفى في ليبيا، منذ عدة

سنوات ولم يعثر له على أثر بعد ذلك ولا أحد يعرف إن كان قد لقي مصرعه أم لا يزال على قيد الحياة. وقد انتهز ملك البحرين فرصة وجود السيدة رباب الصدر وجلس معها عدة دقائق يستفسر منها عن أحوال أسرة الإمام الصدر، وقد قالت لنا بعد هذا اللقاء إنها شعرت بحنان أبوي صادق من قبل الملك

- الرئيس السويسري، فلافيو كوتي

قابلته في مدينة بريج السويسرية عام 1998، في الاحتفال بمرور مائة وخمسين سنة على قيام الفيدرالية السويسرية (الاتحاد السويسري). كنت أيامها مكلفة من قبل اللجنة الأوروبية المشتركة بإعداد دراسة أنثروبولوجية عن "ظهور الإسلام" والوجود الإسلامي في دول الاتحاد الأوروبي ضمن فريق من سبعة أساتذة من سبع دول أوروبية، وقد كلفت بدراسة "ظهور الإسلام" وعن المسلمين في سويسرا. انتهزت فرصة وجودي في هذا الاحتفال الضخم برئاسة الرئيس فلافيو كوتي، الذي طلب من الحاضرين توجيه أية أسئلة يريدونه أن يجيب عنها، فوقفت ووجهت له سؤالا "متى ستعترف سويسرا بالإسلام دينا لبعض مواطنيها مثلما فعلت النمسا وإسبانيا واعترفتا بالإسلام؟ أجابني الرئيس بأن سويسرا حكومة وشعبا تحترم الإسلام ومبادئه وقيمه السامية، ولكن سويسرا دولة علمانية تفصل الدين عن الدولة ولاتعترف بأي دين، وكل سكان سويسرا أحرار في اختيار الدين الذي يناسبهم. أما موضوع الاعتراف بالأديان فإنه لا يدخل

في اختصاص الحكومة السويسرية، ولكن من اختصاص كل مقاطعة من المقاطعات وداخل كل مقاطعة يوجد تقسيم إلى دوائر وبلديات وكل دائرة مختصة بشئون سكانها وأوضاعهم.

- الرئيسة السويسرية، روث درايفوس

وهي سيدة يهودية ذات شخصية قوية وعلى درجة كبيرة من الجدية والبساطة في نفس الوقت. وهي أول سيدة تتولى رئاسة الجمهورية في سويسرا. وبعد خروجها على المعاش تفرغت للعمل الانساني الخيري وقد التقيت بها بعد ذلك عدة مرات بعد خروجها من الرئاسة، وقد تناقشنا طويلا في القضية الفلسطينية خاصة أنها كانت وراء مبادرة ما أطلق عليه "مبادرة جنيف للسلام". وهي تؤيد بشدة إنشاء دولة فلسطينية مستقلة.

ومن الطريف أن السيدة روث درايفوس قد اتصلت بي ذات مرة تليفونيا، وهي تشغل منصب رئيسة جمهورية سويسرا، بعد أن قرأت إعلانا في الصحيفة عن عرضي لبيع شقتي في جنيف. وعندما ذكرت لي اسمها لم أصدق أن رئيسة جمهورية سويسرا تتصل بنفسها لتستعلم عن شقة معروضة للبيع، وتناقش معي بكل بساطة سعر الشقة ومساحتها ومميزاتها، على الرغم من أن لديها بالطبع سكرتارية وموظفين، ولكن في سويسرا مهما بلغ مركز المسئول لا يستطيع أن يكلف موظفا تحت رئاسته بأداء خدمات شخصية له. هذه هي الديمقراطية السويسرية!

- الرئيس السويسري، باسكال كوشبان

الذي التقيت به في الإسكندرية أثناء زيارته الرسمية لمصر في فبراير 2008، وقد احتفلت به جمعية الصداقة المصرية السويسرية بالإسكندرية وأقامت له حفلا كبيرا في مقر هذه الجمعية في قصر بديع في حي لوران بالإسكندرية. ودار نقاش بيني وبينه عن العلاقات المصرية السويسرية وأعرب عن رغبته في تعلم اللغة العربية عندما علم أنني أقوم بتدريسها في جامعة جنيف. وقد شارك الرئيس السويسري باسكال كوشبان وزوجته بتواضع شديد كل الحاضرين من المصريين والسويسريين في تناول الشاي والمشروبات. وكان الرئيس كوشبان يدور وسط المدعوين وينضم إلى كل حلقة لبضع دقائق يتحدث معهم في ود وكأنه واحد منهم. وحين جاء وقت تقطيع "تورتة" الاحتفال بمرور 150 سنة على إنشاء هذه الجمعية، أصر الرئيس السويسري على تقطيع التورته بنفسه وأمسك بالسكين وقطع أول قطعة وكنت قريبة منه فقال لي أحضري طبقا وخذيها، وبالفعل "خدمني" الرئيس السويسري فقلت له ضاحكة: "هذه أول وآخر مرة في حياتي يقوم فيها بخدمتي رئيس جمهورية!"، وعلت ضحكاته مع ضحكات الحاضرين. وقد التقط لنا المصور صورة تخليدا لهذا التواضع الشديد لرئيس جمهورية سويسرا وهي من الصور النادرة التي أعتز بها جدا.

– الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي، رئيس الجماهيرية الشعبية الديمقراطية الليبية

التقيت الرئيس الليبي في طرابلس خلال مؤتمر كبير جمع علماء المسلمين من جميع أنحاء العالم وشيوخ ومفتيين من كثير من الدول الإسلامية، وكذلك سلاطين وشيوخ قبائل من أفريقيا في إطار مبادرة من العقيد معمر القذافي من أجل تجسيد الاتحاد العربي الأفريقي عام 2000 ثم التقيت به بعد ذلك في مؤتمر آخر لإنشاء الولايا ت المتحدة الإفريقية. وفي المرتين استمعت إلى العقيد القذافي وهو يلقي خطابا حماسيا يعرض فيه ضرورة الاستجابة لنداء التاريخ ببناء الوحدة الأفريقية لتصبح تجمعا جديدا يتميز بتنوعه وثرائه الحضاري والثقافي وضخامة إمكاناته البشرية وموارده الطبيعية ونزعته الإنسانية.

وقد صافحت العقيد القذافي وتبادلنا بعض كلمات الترحيب. ثم التقيت بعد ذلك بعدة سنوات الرئيس معمر القذافي في خيمته المشهورة وهي مقره الرسمي في طرابلس وجلسنا، نحن العلماء ورؤساء مؤسسات وجمعيات المجتمع المدني وأساتذة الدراسات الأسلامية في جامعات العالم، نتحاور معه في عدة قضايا من قضايا المسلمين حول العالم، بصفته رئيسا للقيادة الشعبية الإسلامية العالمية ومقرها طرابلس بليبيا، وهدفها توحيد كلمة المسلمين حول العالم وإيجاد الحلول لمشاكلهم. والذي لاحظته على الرئيس معمر القذافي أنه كان يتكلم و"بقه مقفول" أي أنه لا يفتح فمه وهو يتحدث بل يتحدث من بين شفتيه، وكأنه يستخسر أن

يفتح فمه لذا تخرج الكلمات غير واضحة وغير مفهومة، ثم إنه يرتجل في خطاباته ويبدأ جملة ولا يكملها ويخرج من موضوع ويدخل في موضوع آخر بلا حرج ولا ينظر إلى من يخاطبهم بل ينظر إلى الأرض أو في الفضاء ولا يبتسم أبدا وأحيانا يصمت لمدة طويلة ونظن أنه انتهى من الخطاب ولكنه سرعان ما يعاود الكلام في موضوع مختلف تماماعما كان يقوله من قبل.

ودأب القذافي بعد أن أطلق على نفسه "ملك ملوك أفريقيا" على التحامل على الحكام العرب وخاصة السعوديين، بل إنه كان ينتقدهم علنا ولا أحد من العلماء الكبار الموجودين يجرؤ على الرد عليه. ولعل أكثر ما أثار دهشتي التقويم الجديد الذي أحدثه والذي بدأه بوفاة الرسول محمد (ﷺ) لأن هذا التاريخ، حسب القذافي، هو نهاية الوحي الإلهي وانقطاع العلاقة بين السماء والأرض بانتهاء تبليغ آخر رسالة سماوية إلى الأرض وهي الرسالة والوحي الإلهي "القرآن الكريم" ومن ثم فانقطاع الوحي وانقطاع الصلة بين السماء والأرض، في نظره، هي بداية التاريخ البشري وبداية التقويم. والغريب أنه لم يعرض مشروعه هذا على العلماء ويناقشه معهم بل فرضه على الليبيين، وأراد أن يفرضه على العالم الإسلامي كله. وكنا كلما ذهبنا إلى طرابلس في مؤتمر نجد التاريخ مختلفًا عما هو متعارف عليه في أنحاء العالم العربي والإسلامي ولا أحد يجرؤ على المناقشة أو الاعتراض.

– **الرئيس زين العابدين بن على، رئيس جمهورية تونس**

ذهبت إلى تونس عدة مرات بدعوة رسمية لحضور مؤتمرات تحت رعاية الرئيس زين العادين بن علي. كان المؤتمر الأول بمبادرة من الدكتور عبد العزيز التويجري، أمين عام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الأيسيسكو)، وهو شخصية سعودية مرموقة وشعلة نشاط وحيوية وصاحب كلمة وآراء جريئة في مختلف مناحي العمل الإسلامي. وكان موضوع المؤتمر عام 2006، عن تحالف الحضارات وحوار الأديان. ودخلت القصر الجمهوري في قرطاج وقاعة الاحتفالات الكبرى في القصر، حيث استقبلنا رئيس الجمهورية عند مدخل القاعة بالإسلوب الفرنسي المتبع في البلاط الملكي أيام الملك لويس الرابع عشر، أي أن الحاجب ينادي على كل شخص ويذكر اسمه وصفته بصوت جهوري، فيتقدم الضيف من الرئيس ويصافحه ويشكره على تشريفه بهذه الدعوة الكريمة. وقد ألقى الرئيس زين العابدين بن على، خطاب الافتتاح باللغة العربية الفصحى واتسم خطابه بالبلاغة والمنطق السليم.

– **الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بلا**

قابلته في جنيف وفي طرابلس ليبيا في إطار المشاركة في عدة مؤتمرات دولية، وذلك بعد خروجه من الحكم. أعجبت بأسلوب الرئيس بن بلا في عرض أفكاره بوضوح وثقة بالنفس بلغة فرنسية ممتازة مع بعض التعبيرات باللهجة الدارجة الجزائرية. وكان يدافع عن حقوق الشعب الفلسطيني

وحقه في تقرير المصير وفي إنشاء دولته المستقلة وثقته بأن ذلك سيتحقق قريبا مثلما تحقق الاستقلال في الجزائر

- رئيس وزراء البرتغال السابق، ماريو سواراس

التقيت به في منتصف التسعينيات في مدينة "يار لي بالميه" بالقرب من نيس في جنوب فرنسا، حيث عقدت اليونسكو مؤتمرا دوليا كبيرا عن مباردة برشلونة الأورمتوسطية عام 1994. وكان رئيس وزراء البرتغال، ماريو سواراس هو ضيف الشرف لهذا المؤتمر. وكنت أحضر لأول مرة في حياتي مؤتمرا بهذه الضخامة وهذه الأهمية وكذلك أول مرة ألتقى برئيس وزراء دولة أوروبية وأصافحه وأتحدث معه مثل أي إنسان عادي، دون حراسة ولا بودي جارد ولا تعليمات مشددة بعدم الاقتراب منه، فاعتقدت أن مهمتنا نحن المدعوين هي أن ننصت لرئيس الوزراء ونصفق له. و لم يخطر على بالي أن رئيس الوزراء سيكتفي بالترحيب بنا، نحن العلماء والخبراء، كما قال، وإنه حضر هذا المؤتمر ليسمعنا ويتعلم منا ومن خبرتنا. والحقيقة أنني لم أصادف بعد ذلك مسئولا كبيرا بهذه الدرجة مثل ماريو سوارايس، ينصت للعلماء والخبراء ولا يلقي علبهم محاضرة مطولة كما هي الحال في معظم المؤتمرات المهمة التي حضرتها بعد ذلك خاصة في مصر وفي دول العالم العربي والإسلامي حيث يستحوذ كل رئيس أو حاكم على الكلمة و"يعلم العلماء" ويلقي عليهم خطابا مهمًا عن سياسته الحكيمة وخبرتة الطويلة وأفكاره النيّرة.

– سمو الأمير ماجد بن عبد العزيز آل سعود، أمير مكة المكرمة

التقيت سمو الأمير ماجد بن عبد العزيز آل سعود في قصره الفاخر في مكة المكرمة عندما لجأت إليه ليجد لي مخرجا ووسيلة للذهاب إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول (ﷺ) أثناء رحلة الحج الأولى لي، أنا وزوجي، عام 1973 بعد أن تم إغلاق مطار جدة قبل يوم الوقوف بعرفات بيومين وهما اليومان اللذان كنا قد خططنا للسفر خلالهما إلى المدينة المنورة. كنت في ذلك العام الذي قررنا فيه آداء فريضة الحج أعمل بالمكتب الثقافي التابع لسفارة المملكة العربية السعودية في جنيف، وكنت مسئولة عن الطلبة السعوديين المبعوثيين للدراسة في سويسرا. ومن بين هؤلاء الطلبة كانت عندي طالبة ممتازة هي سمو الأميرة مشاعل بنت ماجد آل سعود، مبعوثة لدراسة الطب في جامعة جنيف. وعندما نوينا السفر، زوجي وأنا، لأداء فريضة الحج وأخبرت الأميرة مشاعل بذلك أعطتني أرقام تليفونات والدها سمو الأمير ماجد بن عبد العزيز للاتصال به إذا احتجنا أي شيء ونحن في المملكة العربية السعودية. وكان أيامها الأمير ماجد يتولى منصب أمير مكة المكرمة. ونظرا لأني كنت أعمل بالسفارة السعودية فقد حصلنا على تأشيرة الحج بسهولة وبدون اللجوء إلى مكتب حجز للحج أو التسجيل لدى مطوف، وقمنا بحجز الفنادق بأنفسنا سواء في مكة المكرمة أو في المدينة المنورة. ولكننا أخطأنا في التخطيط لأننا ذهبنا أولا إلى مكة المكرمة وأرجأنا الذهاب إلى المدينة بعد الانتهاء من أداء العمرة في مكة المكرمة، وعندما حان موعد السفر للمدينة المنورة أغلق مطار جدة ولم تعد هناك إمكانية للذهاب إلى المدينة المنورة، فأسقط في يدنا لأن معنى ذلك أننا

لن نستطيع أن نذهب لزيارة الرسول (ﷺ) في المدينة، خاصة أن موعد مغادرتنا النهائية إلى جنيف ثالث يوم العيد. وهنا تذكرت سمو الأمير ماجد فاتصلت به تليفونيا و لم أكن أتوقع الرد السريع الفاعل، فقد أرسل لنا سموه سيارة خاصة وذهبنا إلى قصره الفاخر في مكة المكرمة واستقبلنا بنفسه ورحب بنا أيما ترحيب، وشرحت له الموقف فأمر على الفور لنا بسيارة خاصة أقلتنا إلى مطار جدة، وأصدر سموه تعليماته للسلطات المختصة في مطار جدة بأن نستقل، زوجي وأنا، طائرة البريد العاجل المتجهة إلى المدينة يوميا في المساء والتي تعود من المدينة إلى جدة بعد ظهر اليوم التالي. وبالفعل استقلينا طائرة البريد الصغيرة مع الطرود والخطابات العاجلة إلى المدينة المنورة، ووجدنا في انتظارنا سيارة خاصة في مطار المدينة وأخذنا السائق والمضيف رأسا إلى مسجد الرسول الكريم حيث قضينا الليلة في صلاة متصلة منذ صلاة المغرب وحتى الفجر، وأدينا كذلك صلاة الظهر وصلاة العصر تقديمًا وقصرًا، ثم رجعنا إلى جدة وبعدها إلى مكة المكرمة.

كان سمو الأمير ماجد بن عبد العزيز في منتهى الكرم والبساطة و لم يتردد لحظة في خدمتنا وتقديم العون لنا، ومهما أوتيت من بلاغة فلن أستطيع أن أعبر عن مدى شكري وامتناني له لأنه جعلني أزور الحبيب محمد رسول الله (ﷺ) لأول مرة في حياتي، وأصلي في الروضة الشريفة الصلوات الخمس وقراءة القرآن الكريم طوال الليل.

- الدكتور أكمل الدين أوغلو، رئيس منظمة المؤتمر الإسلامي

قابلته مرتين المرة الأولى في كوبهاجن عام 2007، في مؤتمر ضخم دعتنا إليه وزارة الخارجية الدنماركية بعد أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول الكريم (ﷺ)، وقد أعجبت بحزمه وشجاعته الأدبية عندما ألقى خطابا باللغة الإنجليزية شدد فيه على ضرورة احترام الأديان كشرط أساسي للحوار بين الحضارات، وأن الرسوم المسيئة للرسول الكريم أساءت لأكثر من مليار ونصف مليار إنسان مسلم في جميع أنحاء العا لم. أما المرة الثانية التي قابلت فيها الدكتور أكمل الدين فكانت في جنيف في إطار انعقاد المجلس الدولي لحقوق الإنسان، وفي هذه المرة أنا التي ألقيت خطابا عن "حقوق المرأة في الإسلام مقارنة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان". وأثبت من خلال البحث والمقارنه أنه لا يوجد تعارض سوى في ثلاثة بنود فقط من البنود الثلاثين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وبين حقوق المرأة في الإسلام كما نستخرجها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وبعد محاضرتي تقدم مني الدكتور أكمل الدين وصافحني وهنّأني على هذا البحث القيم، الذي ألقيته باللغة الفرنسية واستمع إليه معظم سفراء الدول لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة، وفي قاعة تغص بغير المسلمين الذين جاءوا من معظم دول العا لم أعضاء الأمم المتحدة، ليتعرفوا على حقيقة مكانة المرأة في الإسلام.

– الدكتور بطرس بطرس غالي، الأمين العام الأسبق لمنظمة الأمم المتحدة

وكما هو معروف فالدكتور بطرس بطرس غالي كان يحضر كثيرا إلى جنيف وكان يعمل أستاذًا في العلاقات الدولية والقانون الدولي في المعهد العالي للدراسات الدولية التابع لجامعة جنيف. كما كان يحضر كثيرًا من المؤتمرات الدولية المنعقدة في جنيف كمندوب عن مصر. وقد التقيت به عدة مرات في جنيف. ولقد تناولنا العشاء معا ذات مرة وجلسنا على نفس المائدة طوال السهرة في النادي الدبلوماسي في جنيف، حيث أقيم حفل عشاء على شرف الدكتور بطرس غالي بعد فوزه بمنصب الأمين العام للأمم المتحدة. وقد كنت أيامها عضو المكتب التنفيذي وأمين صندوق جمعية المصريين في سويسرا، وكنا –جميع أعضاء المكتب التنفيذي– نجلس حول مائدة واحدة وانضم إلينا الدكتور بطرس غالي بعد إلقاء خطاب قصير عبّر فيه عن شكره وتقديره للثقة التي منحها له المجتمع الدولي بانتخابه أمينا عاما للأمم المتحدة. والدكتور بطرس غالي بشوش وابن نكته كما يقولون وقد طلبنا منه أثناء العشاء أن يحدثنا عن مشروعاته المستقبلية فارتسم الجد على وجهه الأسمر وقال بل سأحدثكم عن (MMS) فاعتقدنا أن هذه الحروف هي اختصار لمنظمة جديدة أو لمبادرة دولية سيضطلع بها، وبدأ هو يسرد الحكاية فإذا بها "نكتة أبيحة" وهذه الحروف الثلاثة ما هي إلا اختصار باللغة الفرنسية لأسماء ثلاثة أيام في الأسبوع وثلاثة أشهر في السنة يتذكر فيها زوج عجوز ما كان يفعله في شبابه من مغامرات عاطفية.

- الدكتور فريدريكو مايور، أمين عام اليونسكو الأسبق

وهو إسباني خفيف الظل وعلى درجة عالية من الثقافة ودماثة الخلق وهو من الشخصيات السياسية العظيمة التي التقيت بها في حياتي وبهرني بشخصيته وثقافته واحترامه وتقديره للمرأة كإنسان. وأعتز كثيرا بتقييمه للبحث الذي تقدمت به في أحد المؤتمرات السنوية التي يعقدها منتدى كرانس مونتانا في مونت كارلو. كان المؤتمر عن حوار الحضارات ودور المرأة في إرساء الحوار، وقد تقدمت ببحث عن أهمية دور المرأة في تطوير الحوار بين الثقافات والحضارات. وكان الدكتور فريدريكو مايور قد حضر عدة مؤتمرات سابقة شاركت أنا أيضا فيها عندما كان يشغل منصب أمين عام اليونسكو في باريس، ولقد استمع لمداخلاتي في عدة محاور. وفي مؤتمر مونت كارلو طلب الدكتور فريدريكو الكلمة للتعليق على بحثي هذا وقال: " لقد استمعت للدكتورة فوزية بانسجام شديد وهي بآرائها وثقافتها وسعة أفقها تعتبر عدة نساء في امرأة واحدة ".

أثلج صدري هذا الثناء من هذه الشخصية الدولية الفذة.

- السيدة سوداكو أوجاتا، الرئيسة السابقة للمفوضية السامية لشئون اللاجئين

وهي سيدة يابانية في غاية الذكاء والحيوية والنشاط على الرغم من أنها قصيرة القامة وضعيفة البنية، ولكن لها حضور طاغ وتتعامل بالايماءات والإشارات مع مرؤوسيها وصوتها منخفض وحاد في نفس الوقت، وتتعاطف كثيرا مع العرب والمسلمين. وكانت لها مواقف مشرفة في

صالح اللاجئين خاصة في أفريقيا وفي أفغانستان والعراق والصومال. وقد إلتقيت بها وتناقشت معها أكثر من مرة في قضايا النساء المسلمات المهاجرات اللواتي يعشن في مخيمات اللاجئين ولا يجدن المكان المناسب للصلاة، ويعانين من عدم احترام زيهن الإسلامي وخاصة الحجاب أو احترام الآخرين للصيام في رمضان. وقد أخذت السيدة سوداكو بهذه الملاحظات وأصدرت تعليماتها لمرؤوسيها بإرسال تعميم لجميع مخيمات اللاجئين لاحترام الخصوصيات الثقافية للمهاجرين واللاجئين المسلمين.

- السيدة ماري روبنسون، الرئيس الأسبق لمفوضية حقوق الإنسان

كانت السيدة ماري روبنسون تشغل منصب رئيسة وزراء أيرلندا قبل اختيارها لمنصب المفوض السامي لحقوق الإنسان في جنيف، وهي أول من نادى بعقد مؤتمر لعرض مفهوم حقوق الإنسان في الإسلام، بالتعاون مع الرئيس الايراني في ذلك الوقت رافسنجاني. وقد تمت دعوتي للمشاركة في هذا المؤتمر الهام الذي عقد في قصر الأمم المتحدة في جنيف عام 1997، وكان أول مؤتمر يتناول قضايا حقوق الإنسان في الإسلام وقدم فيه الدكتور أحمد كمال أبو المجد، الذي مثّل مصر في هذا المؤتمر الضخم، عرضا رائعا عن حقوق الإنسان في الإسلام. وقد قابلت الدكتور كمال أبو المجد بعد ذلك في عدة مؤتمرات أخرى وكان دائما يحييني ويشجعني على مواصلة نشاطي للتعريف بحقوق المرأة في الإسلام.

– الوزيرة مارتين برنشفيج جراف، وزيرة التربية والتعليم لجمهورية جنيف سابقا

وهي سيدة يهودية سويسرية ذات شخصية قوية، وقد كان لي معها موقف حين كنت أعمل أستاذة في جامعة جنيف وكانت هي وزيرة التعليم. ولقد استدعتني الوزيرة لتأنيبي ولفت نظري لما بدر مني من دفاع عن القرآن الكريم بعد أن أرسلت خطابا إلى الصحف السويسرية بعنوان "لا تمسوا قرآني"، وذلك بعد أن تطاول أحد الرسامين السويسريين ورسم رسما كاريكاتوريًا يصور فيه المصحف ، القرآن الكريم، وهو يسقط على رأس الكاتب الإنجليزي من أصل هندي، سلمان رشدي، مؤلف كتاب "الآيات الشيطانية" الذي أساء فيه إلى زوجات الرسول (ﷺ) والكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين، مؤلفة كتاب "العار" التي طالبت بحذف جميع الآيات التي تظلم المرأة من القرآن الكريم حسب قولها.

وقد هددتني وزيرة التعليم السويسرية بإيقافي عن العمل وفصلي من جامعة جنيف، لأنني لم أحترم "علمانية" الجامعة وحياد سويسرا، ودافعت عن ديني الإسلامي بينما أنا أنتمي وأمثل جامعة علمانية في دولة علمانية تطبق الحياد ولا يحق للعاملين بها أن يعلنوا عن انتمائهم الديني. وقالت لي الوزيرة: "أنا يهودية في بيتي وفي أسرتي ولكن في مكتبي أنا سويسرية علمانية محايدة لا تدين بأي دين! يجب أن تتعلمي كيف تعيشين وتعملين في دولة علمانية تفصل الدين عن الدولة".

لم أعبأ بتهديدها و لم أسحب خطابي الذي أرسلته للصحف السويسرية

ولم أعتذر عما بدر مني كما طلبوا مني، فأرسلت لي الوزيرة خطابا مسجلا "لفت نظر" وضعوه في ملف خدمتي بالجامعة، فقلت لهم إنني أعتبر هذا الخطاب وساما وضع على صدري جزاء لي عن دفاعي عن قرآني المقدس.

•

– السيد عمرو موسى، وزير خارجية مصر الأسبق وأمين عام جامعة الدول العربية السابق

قابلت السيد عمرو موسى في جنيف وفي تونس وفي القاهرة، وهو يشغل منصب أمين عام جامعة الدول العربية. وقد اختارني سيادته كخبيرة، ضمن فريق عمل مكون من ستة خبراء من العرب والأوروبيين، لإعداد دليل إرشادي لتصحيح صورة الآخر في المناهج الدراسية في العالم العربي الإسلامي وفي دول الوحدة الأوروبية. وقد أعجبت كثيرا بأسلوبه في عرض أفكاره ببساطة وسلاسة وبنظراته الثاقبة من خلف زجاج نظارته السميكة وهو ينظر من حين لآخر إلى من يتحدث إليه ليجس تأثير حديثه عليه. ولفتت نظري الثقة الشديدة بالنفس مع احترام الرأي الآخر حتى دون الموافقة عليه أو الاقتناع به، وهذه ميزة يتمتع بها السيد عمرو موسى غير متوفرة عند كثير من رجالات مصر الذين التقيت بهم، ولقد التقيت به آخر مرة في جنيف، في حملته الانتخابية، بعد ترشيحه لرئاسة الجمهورية، بعد ثورة 25 يناير وتنحي الرئيس مبارك عن الحكم. وسألت عمرو موسى سؤالا أدهشه. "ألا تخاف من هذه المسئولية الكبرى، حكم مصر وهي

على وشك الانهيار الاقتصادي بعد أن تراجعت دوليا وعربيا؟ ومن أين ستأتي بـ "عصا موسى السحرية" لإعادة مكانة مصر عربيا ودوليا؟".

- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ المرحوم محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر

التقيت بفضيلة الشيخ طنطاوي مرات عديدة وإن كنت في كل مرة أعرِّفه بنفسي ليتذكرني، وقد استمع فضيلته لعرضي لقضايا المرأة المسلمة خلال مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكذلك خلال مؤتمرات رابطة خريجي الأزهر الشريف، وكنت حريصة في كل مرة على النظر إليه وهو يجلس في الصف الأول أمامي لأرى تأثير كلامي على وجهه، وكنت ألاحظ الارتياح والإقرار بما أقوله في هزات رأسه.

- الدكتور محمود حمدي زقزوق، وزير الأوقاف الأسبق

الدكتور محمود حمدي زقزوق من ألطف الشخصيات الجادة المحترمة الملتزمة وهو موجود دائما أثناء انعقاد مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بصفته رئيسا للمجلس، ولكن اهتمامه بكل ما يدور في المؤتمر وإنصاته لمعظم المحاضرين يدعو للإعجاب. وهو الذي رشحني للحصول على جائزة الدولة التقديرية ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى للعلوم والفنون الذي منحه لي رئيس الجمهورية في عام 2008، وعندما أخبرني معالي الوزير زقزوق بهذا الترشيح بنفسه أصابتني الدهشة وقلت له: "هذا

كثير عليّ يا معالي الوزير"، أجابني بثقة: "أنت تستحقين كل خير، فأنت سفيرة للإسلام في أوروبا ومن أفضل العالمات المصريات وتشرفين مصر في الخارج".

– فضيلة الشيخ الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر

التقيت الدكتور أحمد الطيب لأول مرة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر المبادرة الأورمتوسطية مع دول الخليج برئاسة الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك. وكانت المشاركة في هذا المؤتمر من كبار الشخصيات وعلى أعلى مستوى خاصة من ممثلي الديانات اليهودية والمسيحية بردائهم الديني المزركش وتيجانهم والصليب الضخم على الصدور، بينما لا يوجد ولا شيخ مسلم واحد يرتدي الجبة والعمامة، حيث كان الدكتور أحمد الطيب وقتها رئيسا لجامعة الأزهر، ويرتدي البدلة الأوروبية. ولقد طلبت الكلمة أثناء إحدى الجلسات وأبديت الملاحظة بأن عدد الذين يمثلون الإسلام قليل جدا بالنسبة لمن يمثلون الأديان الأخرى، وفي الاستراحة بعد هذه الجلسة عاتبني الدكتور أحمد الطيب قائلا. "وهو أنا مش كفاية والّا إيه؟!". واعتذرت له بأنني إنما قصدت بملاحظتي العدد وليس القيمة العلمية حيث إن عدد علماء المسلمين في هذا المؤتمر كان أقل بكثير من العلماء ورجال الدين اليهود والنصارى. ولقد التقيت بعد ذلك الدكتور أحمد الطيب في القاهرة في إطار مؤتمرات الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، والرغم من أنني لست من خريجي الأزهر، وكنت أتمنى

أن أحظى بهذا الشرف، فإنني تمت دعوتي عدة مرات للمشاركة ببحث في هذا الملتقى الديني المهم الذي يشارك فيه معظم خريجي الأزهر الذين ينتشرون في جميع دول العالم، ومنهم من تقلد مناصب رفيعة في تلك الدول ووصل إلى منصب رئيس وزراء ورئيس جمهورية. ولقد كنت من أول المهنئين من جنيف للدكتور أحمد الطيب حين أصدر الرئيس المخلوع حسني مبارك أثناء علاجه في مدينة هايلدلبرج بألمانيا، قرارا بتعيينه شيخا للأزهر يوم الجمعة 19 مارس 2010، ومن المصادفة أنني كنت قد التقيت الدكتور أحمد الطيب بالقاهرة يوم الجمعة السابقة واشتركت معه في نقاش شيق في حلقة تليفزيونية عن الأقليات المسلمة في الغرب في برنامج تليفزيوني على فضائية النيل تي في، ولم يخطر على بالنا أنه بعد أسبوع واحد سيجد في الأمور أمور ويتوفى شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي في السعودية ويدفن في البقيع، بجوار الرسول الكريم (ﷺ) والصحابة ويتم تعيين الدكتور أحمد الطيب شيخا للأزهر الشريف.

– الوزير الفنان فاروق حسني، وزير الثقافة الأسبق

قبل أن ألتقي الوزير الفنان قرأت عنه الكثير خاصة في جريدة "أخبار الأدب" حيث دأب رئيس تحريرها الأديب الصديق جمال الغيطاني على نشر مقالات وتحقيقات فيها انتقادات شديدة لسياسة وزير الثقافة، الذي تراجعت الثقافة المصرية في عهده تراجعا شديدا، وتم إهمال التراث العربي الإسلامي والآثار الإسلامية التي تعاني من الإهمال الشديد وتتعرض للتلف،

حسب ما يستخرجه القارئ من التحليلات والتحقيقات التي تنشرها صحيفة أخبار الأدب. ورغم الانتقاد الشديد الذي يتعرض له الوزير الفنان من المثقفين في مصر فإن مصر رشحته لمنصب الأمين العام لليونسكو، وهي أكبر منظمة دولية للتربية والثقافة والعلوم. وقد التقيت به في صيف عام 2008 في احتفالية أقامها له منتدى كرانس مونتانا في مونت كارلو بإمارة موناكو، بحضور الأمير ألبير، أمير موناكو الشاب في فندق "هوتيل دي باري"، وهو من أعرق الفنادق الخمس نجوم في مونت كارلو على شاطئ الريفييرا اللازوردي. وكان الوزير الفنان فاروق حسني في منتهى السعادة بهذ التكريم وقد صافحته مهنئة له بترشيحه لليونسكو ووقف يتحدث معنا دقائق عن أمله في الفوز وخطته للاضطلاع بالمسئوليات التي سينوط بها في حاله فوزه. ولكنني لم أقتنع بعرضه الموجز بلغة فرنسية لا ترقى لمستوى المنصب المرشح له ولفت نظري كذلك عدم إجادته للغة الإنجليزية أثناء إجابته عن أسئلة الحاضرين فقد كانت إجاباته متعثرة وغير مفهومة بسبب عدم إجادته للغات الأجنبية الفرنسية والإنجليزية وأعتقد أنه لن يفوز بهذا المنصب لأسباب متعددة وأهمها أسباب سياسية. وهي نفس الأسباب السياسية التي حرمت الدكتور إسماعيل سراج الدين من الفوز بهذا المنصب، على الرغم من أنه شخصية ممتازة وعلى درجة عالية من الثقافة ويحمل عدة شهادات دكتوراه وليس دكتوراه واحدة، ولقد رشح نفسه لنفس المنصب في الدورة السابقة ولكن مصر لم تؤيد ترشيح د. إسماعيل سراج الدين لأسباب سياسية لأنها ساندت وقتها مرشح المملكة العربية السعودية د. القصيبي الذي لم يفز لا هو ولا إسماعيل

سراج الدين، على الرغم من قوة شخصية الأخير وشهرته الدولية وخبرته في البنك الدولي فإنه لم يحصل إلاعلى ثلاثة أصوات فقط في الانتخابات. فما بالنا بفاروق حسني!

– **الدكتور إسماعيل سراج الدين - أمين مكتبة الإسكندرية**

قابلته عدة مرات في الإسكندرية وفي جنيف بعد أن أصبح مديرا لمكتبة الإسكندرية، وأعتقد أن مصر كرمته بهذا المنصب تعويضا له عن عدم فوزه في انتخابات اليونسكو وقد قلت له ذلك لأنه في بلده يحظي بتقدير كبير يليق به وبمكانته العلمية. وقد دعوت الدكتور إسماعيل سراج الدين لإلقاء محاضرة عن مكتبة الإسكندرية القديمة والجديدة في إطار الأنشطة الثقافية بين مصر وسويسرا، بصفتي الأمين العام للجمعية الثقافية المصرية السويسرية، التي أنشأتها في جنيف عام 2006 بمشاركة اثنين من زملائي من جامعة جنيف. وقد اخترنا ان تكون محاضرة الدكتور إسماعيل سراج الدين على ظهر باخرة سياحية تسير في جولة بحرية في بحيرة ليمان في جنيف، وكان الجو جميلا والشمس ساطعة والباخرة مزدحمة بأعضاء الجمعية وبالضيوف ومنهم سفيرة مصر في بيرن السيدة نهاد ذكي، وقنصل مصر في جنيف حسام محرم. وأعتقد أنها المرة الوحيدة التي ألقى فيها الدكتور إسماعيل سراج الدين محاضرة على ظهر باخرة، وكان في منتهى السرور وهو يتحدث بالفرنسية بصوت رخيم رزين، وشعرت بالفخر وأنا أستمع إليه فهو موسوعي الثقافة دمث الخلق ورقيق المشاعر.

- الدكتورة أمينة الجندي، وزيرة الشئون الاجتماعية السابقة

التقيت بها عدة مرات في جنيف حيث كانت تحضر مؤتمرات بصفتها رئيسة المجلس الأعلى للأمومة والطفولة، وفيما بعد بصفتها وزيرة للشئون الاجتماعية. وهي سيدة هادئة مهذبة قليلة الكلام ومتزنة جدا. قد خرجنا مرة معا يوم أحد، وهو إجازة نهاية الأسبوع ولا تعقد خلاله اجتماعات أو مؤتمرات، فدعتنا المستشارة الإعلامية لمصر في جنيف الأستاذة بسيمة نفادي، لنخرج في نزهة خارج جنيف ونذهب إلى قرية سياحية فرنسية قريبة من جنيف اسمها "إيفوار" وهي قرية الصيادين ومشهورة بسمك "البرش" الصغير جدا، والذي يتم تحميره في الزبدة وطعمه لذيذ جدا. وهذه القرية في غاية الجمال والهدوء ويرجع تاريخها للقرون الوسطى ولا تزال بيوتها وحاراتها ضيقة لا تدخل فيها السيارات وكلها مخصصة للمشاه وبها مناظر طبيعية خلابة، وبها مطاعم سمك كثيرة على ضفاف بحيرة ليمان التي تمتد حتى جنيف. وقد ذهبنا بسيارتي المرسيدس وكنت أنا التي أقود السيارة، وجلست الوزيرة بجواري والمستشارة الإعلامية في المقعد الخلفي. وكان الجو صيفا وحارا والشمس حارقة. ومن عادتي الاحتفاظ بمظلة صغيرة أضعها أسفل المقعد الأمامي بجواري لأستخدمها للوقاية من المطر حين أغادر السيارة. ولكن الوزيرة أخذت المظلة من تحت المقعد الذي كانت تجلس عليه وفتحتها ونحن داخل السيارة، ووضعتها أمام وجهها للحماية من الشمس. وبالطبع هذه الحركة فيها خطورة كبيرة لأنني لو فرملت فجأة لأي سبب من الأسباب فإن مؤخرة المظلة الحديدية يمكن أن تخرق زجاج السيارة الأمامي وتسبب كارثة. ولكني بالطبع

لم أجرؤ على الاعتراض والتزمت مزيدا من الحذر في القيادة حتى وصلنا إلى مطعم السمك الشهير بسلام. وموقف آخر ظريف حدث لي مع الوزيرة أمينة الجندي فقد قابلتها بالمصادفة ذات مرة أمام كابينة قياس الملابس في أحد "المولات" الكبرى في جنيف، حيث كنت أنتظر دوري أمام الكابينة لقياس قطعة ملابس وكانت الكابينة مشغولة وبداخلها إحدى السيدات، ولكني لا أراها من خلف الستار، وحين أزاحت الستار وجدت أمامي وزيرة الشئون الاجتماعية الدكتورة أمينة الجندي وضحكنا معا لطرافة المصادفة.

- سفراء مصر في جنيف

لي ذكريات ومواقف مع معظم سفراء مصر الذين توافدوا على جنيف منذ بداية السبيعينيات وحتى الآن وأذكر منهم **عبد الله العريان، عمران الشافعي، عبد الرؤوف الريدي، سعدالفرارجي، نبيل العربي، منير زهران، فايزة أبو النجا، نائلة جبر، سامح فهمي وهشام بدر.**

فكل واحد منهم يقضى في جنيف أربع سنوات ثم يعود إلى مصر، بينما أنا باقية في منصبي أستاذة اللغة العربية والحضارة الإسلامية بجامعة جنيف ورئيسة لجالية المصريين بسويسرا. وكل واحد من السفراء وكذلك القناصل يتابع نشاطي العلمي والاجتماعي ويحضر الندوات والمؤتمرات التي أعقدها ويهنئني عليها ثم يرفع تقريرا عني لوزارة الخارجية. الوحيدة التي لم تكمل مدتها في جنيف هي السفيرة **فايزة أبو النجا** التي تم تعيينها

وزيرة فتركت جنيف وعادت للقاهرة. وفي الحقيقة كانت السيدة فائزة أبو النجا نشيطة جدا وتتعامل مع الجميع بتواضع شديد وهي من أكفأ السفراء الذين توالوا على جنيف، أثناء وجودى بها، كسفراء ورؤساء لبعثة مصر الدائمة لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة والمنظمات الدولية في جنيف.

السفيرة فايزة أبو النجا، بابتسامتها الهادئة وصوتها الرقيق وأناقتها الراقية والشال الدائم المميز على كتفها، تتمتع بشخصية قوية ومقدرة فائقة على الإقناع بلباقة وذوق ودبلوماسية مهذبة. وكانت تقدر نشاطي وتقرأ مقالاتي في الصحف والمجلات السويسرية وتناقشني في محتواها. وقد التقيت بها بعد ذلك عدة مرات في القاهرة أثناء حضورها الجلسة الختامية للمؤتمر السنوي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والاحتفال بالمولد النبوي الشريف. وقد كان لهذا المؤتمر الفضل على مدار عشر سنوات متتالية في منحي الفرصة للالتقاء بكثير من الشخصيات المصرية التي شغلت مناصب عليا في حكومة الرئيس حسني مبارك.

الأدباء الأوروبيون والعرب والمصريون

– **الأديب ميشيل بيتور، رائد الرواية الفرنسية الحديثة ورئيس لجنة التحكيم** لرسالتي للدكتوراه في جامعة جنيف والذي شجعني على الكتابة، وكنت ألتقى به كل يوم أربعاء في الممر الفاصل بين قاعتي المحاضرات التي يحاضر في إحداها وأحاضر أنا في القاعة الملاصقة لها، ونلتقي في الاستراحة بين المحاضرتين ونتبادل الحديث ويسألني عن مؤلفاتي وترجماتي ويستفسر مني عن أحوال مصر التي يعشقها، وكان قد عاش في الأقصر وعمل بها مدرسا للغة الفرنسية لمدة عام في الأربعينيات، ولم يزر مصر بعد ذلك، الا في التسعينيات، وبعد عودته من زيارته الثانية قال لي إنه صدم صدمة شديدة عندما رأى البيوت العشوائية الزاحفة على منطقة الأهرامات وأبو الهول، وإن هذا لا يليق بعظمة الأهرامات والفراعنة وعلى المسئولين في مصر أن يصونوا هذه المناطق الأثرية التي يزورها سنويا ملايين السياح، ولكن أحفاد الفراعنة لم يحترموا أجدادهم وحضارتهم وزحفوا على هذه المناطق "المقدسة" في نظره، والتي يجب أن تكون خالية تماما من السكان ويتم تنظيفها والعناية بها أكثر من أي مكان آخر في مصر، فهل من مجيب!

– **الأديب الكبير نجيب محفوظ، الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1988** والذي التقيت به عدة مرات وتبادلنا رسائل وأهديته كتابي "المرأة في أدب نجيب محفوظ" وهو النص المختصر لأطروحة الدكتوراه التي أعددتها بالفرنسية عن أدب نجيب محفوظ ثم ترجمتها إلى اللغة بالعربية. وآخر مرة التقيت به قبل وفاته بعام تقريبا على الباخرة "فرح" الراسية على ضفاف

النيل بالقاهرة وبصحبة الأديب جمال الغيطاني والأديب يوسف القعيد وبعض أصدقائه من "الحرافيش" وكان نجيب محفوظ ليلتها منسجمًا جدا كعادته في لقاء الثلاثاء مع أصدقائه من الأدباء، وكان يناقشهم في القضايا السياسية وأحوال البلد بحماسة شديدة وقد أهديته يومها الترجمة العربية لكتابي الأخير (صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي) وفرح به كثيرا ووعد بقراءته، وكان سعيدا لأنه نجح في الكتابة بيده اليسرى بعد أن فقد السيطرة وإمكانية الكتابة باليد اليمنى بعد حادث الاعتداء الذي تعرض له، عندما حاول أحد المتطرفين الإسلاميين اغتياله ولكن العناية الإلهية أنقذته والحمد لله. وفي هذا اللقاء الأخير معه كتب لي عدة جمل بيده اليسرى ليريني كيف أنه تعلم الكتابة من أول وجديد باليد اليسرى، وأن الإنسان عندما يريد يحقق ما يريد، حسب قوله!.

– **الأديب جمال الغيطاني**، رئيس تحرير أخبار الأدب، أول من نشر لي قصة مترجمة من الفرنسية "الحب" لمرجريت دورا، في صحيفة "أخبار الأدب"، وأعتز بصداقته ومراسلاتنا ومناقشاتنا لكثير من القضايا الأدبية بل والسياسية أيضا ويرجع إليه الفضل في نشر مؤلفاتي الأولى وخاصة الترجمات التي قمت بها من الفرنسية إلى العربية وكذلك حضوري لقاء الأدباء مع نجيب محفوظ يوم الثلاثاء على الباخرة "فرح" على شاطئ النيل. والأديب جمال الغيطاني، شخصية مثقفة ثقافة موسوعية وهو مغرم صبابة بالكتب القديمة وخاصة كتب كبار الرسامين العالميين، ومكتبته في مكتبه بمبنى "أخبار اليوم" بالقاهرة تحتوى على مجموعة كبيرة من هذه الكتب النادرة والموسوعات الأدبية والفنية بمعظم لغات العالم، وهو فخور

باقتنائه لهذه "الكنوز" كما يسميها وهو رغم كل الشهرة التي اكتسبها في الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وألمانيا، بعد ترجمة معظم رواياته إلى الفرنسية والالمانية والإنجليزية وحصوله على جوائز عالمية كثيرة، فإنه إنسان في غاية التواضع والبساطة في حديثه وفي مظهره وفي ملابسه البسيطة جدا فهو لا يرتدى أبدا ماركات "سينيه" مثل كثير من الأدباء المغمورين الذين يظنون أن المظهر يغني عن الجوهر.

– **الأديب إدوار الخراط، الروائي الإسكندراني** الذي كتب لي مقدمة مجموعتي القصصية "الغربة في الوطن" و"إسكندرية 60" وقابلته عدة مرات في جنيف وفي القاهرة، وتبادلنا عدة رسائل وكان دائما مشجعا وعطوفا ولديه مقدرة فائقة على التعبير والتعليق على كل ما يدور حوله بذكاء وحيوية.

– **الدكتور إدوار سعيد، الكاتب الفلسطيني** ولقد تعرفت إليه وهو عضو مجلس أمناء مؤسسة التعاون الفلسطينية في جنيف، والتي أسسها مجموعة من رجال المال والأعمال من الفلسطينيين في الشتات وعلى رأسهم رئيس البنك العربي عبد المجيد شومان، والدكتور إدوار سعيد. وكنت أحيانا أحضر الاجتماعات وأقوم بالترجمة وأتعاون مع هذه المؤسسة كمراجعة ومحررة لمطبوعاتها، وكنت أتناقش مع د.إدوار سعيد في قضايا الاستشراق وبعض قضايا العالم العربي وخاصة القضية الفلسطينية، وكان من أشد المعارضين لاتفاقيات أوسلو للسلام ويعارض بشدة سياسة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات والصلح مع إسرائيل. وإدوار سعيد يتحدث دائما

بانفعال شديد عن كل ما يتصل بفلسطين وباتفاقية أوسلو والتي كثيرا ما يصفها بأنها "بيع القضية الفلسطينية".

– **الأديب بهاء طاهر**، الذي اشتركت معه في عدة ندوات أدبية في جنيف عندما كان يعمل مترجمًا عربي / إنجليزي في الأمم المتحدة، وهو خجول وفي غاية التحفظ والصراحة ويدخن بشراهة ويتحدث بصوت رخيم وكلماته منتقاة بحذر ووجهة الأسمر النحيل يزداد نحولا عاما بعد عام من تأثير مرض السكري، ولكن ابتسامته الرقيقة وكلماته المهذبة تشدان الإنسان إليه وكذلك إلى زوجته الجميلة وهي شقراء من دولة من دول أوروبا الشرقية وتعمل أيضا في منظمة الأمم المتحدة في جنيف.

– **الدكتور عبد الوهاب المسيري**، كاتب موسوعة الصهيونية الذي عقدنا له ندوة في إطار جمعية المصريين في سويسرا، وكان أيامها الدكتور وليد عبد الناصر هو رئيس الجالية والذي أصبح فيما بعد سفيرا لمصر في اليابان. ولقد عقدنا ندوة الدكتور المسيري في جامعة جنيف وكان الحضور كثيفا ولكن الدكتور المسيري كان يومها يتلعثم في الكلام لأنه كان يعاني من اضطراب عصبي شديد بعد المجهود المضني الذي بذله للانتهاء من كتابة هذه الموسوعة. وقال لي إنه كان أحيانا يعمل عشرين ساعة في اليوم بلا توقف، وينام أربع ساعات فقط. وعلى الرغم من حالته الصحية ومرضه فقد كانت الندوة زاخرة بأفكاره النيرة وشخصيته القوية الآسرة ومناقشته مع الحضور بصراحة ووضوح وتواضع شديد.

– **الأديب محمد سلماوي، رئيس اتحاد الكتاب العرب والمصريين** الذي التقيت به مرتين ونشر لي ترجمتي الفرنسية لقصة نجيب محفوظ "دنيا الله" في صحيفة "الأهرام إبدو" التي يرأس تحريرها، كما اشتركت معه في ندوة عن نجيب محفوظ أثناء انعقاد معرض جنيف الدولي للكتاب عام 2008، وكانت مصر ضيف الشرف خلاله. وأهم ما يميز الأستاذ سلماوي هو جديته الشديدة والدقة المتناهية في حديثه وفي إلقائه المتميز الهادئ الرصين، وهو يبدو أكبر من سنه بسبب هذه الصرامة وهذا الالتزام الشديد الذي أعجبت به جدا، ولم أجده عند كثير من الشخصيات المصرية التي التقيت بها.

– **الشاعر أدونيس، زميلي في جامعة جنيف،** الذي كان يقوم بتدريس الأدب العربي في نفس القسم الذي أقوم بالتدريس فيه وإن لم يكن مفهوما من الطلبة لأن مستواه الأدبي كان يفوق بكثير مستوى الطلبه المبتدئين في دراسة اللغة العربية، كذلك لم يكن أدونيس معروفا من الأساتذة أو مؤثرا في الحياة الأدبية والثقافية في سويسرا خلال فترة عمله بجامعة جنيف، لأنه كان يقيم في باريس ويأتي خصيصا يومين في الأسبوع لإلقاء محاضراته في جامعة جنيف ثم يهرع بعد المحاضرات إلى محطة القطار السريع ليعود إلى باريس. ولم يكن يشارك الطلبة ولا الأساتذة في أي نشاط من الأنشطة الثقافية لأنه غير موجود في البلد.

– **الشاعر الكبير نزار قباني،** الذي عاش فترة من حياته في جنيف أثناء الحرب الأهلية في لبنان، وكان يعيش في رعاية وكنف الأمير عبد الله المبارك، زوج الشاعرة سعاد الصباح، في حي "بوديه" في جنيف، وقد كان

نزار قباني معتكفا أغلب الوقت و لم يشارك كثيرا في الحياة الأدبية أو حتى الاجتماعية للعرب المقيمين في جنيف، وقد أهتم بموهبة الشاعرة الأديبة سعاد الصباح والتي تعلمت على يديه أصول وقواعد نظم الشعر العربي.

– **الدكتورة سعاد الصباح، الأديبة والشاعرة الكويتية التي تعرفت إليها** في جنيف وكنت أعطي دروسا في اللغة العربية لأولادها، كما كنت أقوم بترجمة بعض مقالات الصحف السويسرية من الفرنسية إلى العربية لعرضها عليها ولتقرأها لزوجها الأمير عبد الله الصباح. وهي إنسانة لطيفة ومتواضعة وخدومة وفي غاية الكرم. وكان لها الفضل في نشر أول مقالاتي في الصحف الكويتية وخاصة صخيفة "القبس" التي نشرت لي عدة مقالات. وكانت الدكتورة سعاد الصباح متواجدة في جنيف هي وزوجها الأمير عبد الله الصباح أيام حرب الخليج الأولى والغزو العراقي على الكويت ولقد توفي زوجها الأمير وهو في جنيف في الغربة، وبلاده يحتلها جنود صدام حسين وقد تم دفنه في لندن، وبعد تحرير الكويت تم نقل جثمانه إلى الكويت. ولعل أكثر ما أدهشني خلال عشرتي مع د. سعاد الصباح هو حبها الشديد لزوجها الأمير ورعايتها واحترامها له وهو الذي يكبرها بأكثر من عشرين عاما، ولم تكن تتحدث عنه إلا بقولها "سمو الأمير عبد الله".

الشاعر أحمد الشهاوي، صاحب ديوان "في عشق النساء" الذي أثار زوبعة بين علماء الأزهر الشريف، وقد جاء إلى جنيف وعقدنا له ندوة وأمسية شعرية في جنيف وفي زيورخ ولقيت نجاحا كبيرا. وهو إنسان

ودود وصريح وقد ترجمت له ديوان "كتاب الموت" إلى اللغة الفرنسية وقد أطلعته على ديوان الشعر الوحيد الذي نظمته و لم أنشره وهو تحت عنوان "ضاع الحب في الغربة" فأعجب ببعض قصائدي ونشرها في مجلة "نصف الدنيا"، وقد أدخل بعض التصليحات البسيطة على أشعاري ونصحني بنشر الديوان ولكنني لم أنشره حتى الآن.

– **الأديبة سلوى بكر**، الأديبة الروائية الثائرة الجريئة ذات الشكيمة والقلم الحر، والتي جاءت إلى جنيف في إطار "لافيني" قصر الأدباء والتقيت بها في ندوة ضمت الاديب بهاء طاهر في منزل الروائية المصرية المقيمة في جنيف فوزية أسعد، سكرتيرة نادي القلم التي تتولى اختيار الأدباء العرب الذين تتم دعوتهم إلى قصر "لافيني" سنويا. وفي إطار "لافيني" أيضا تمت دعوة **نعمات البحيري، وميرال الطحاوي وعلاء الأسواني وغيرهم.**

– **الروائية ميرال الطحاوي**، زوجة الشاعر أحمد الشهاوي، التي بهرتني بجمالها البدوي وشعرها الناعم الطويل المسترسل على ظهرها في عفوية، فمن النادر أن تجمع المرأة بين الجمال وموهبة الإبداع، ولكن ميرال الطحاوي جمعت بينهما بأسلوبها الرائع في الكتابة وفي الحديث وقد جاءت إلى جنيف أيضا في إطار "لافيني" وعقدنا لها ندوة عرضت فيها روايتها الأخيرة "نقرات الظباء" بمناسبة ظهور ترجمة لهذه الرواية باللغة الألمانية. ومن الطريف أنها أمضت ليلة في ضيافتي في منزلي بجنيف ونامت على فوتيل يفتح فيصبح سريرا، وبعد ذلك كلما جلس أحد ضيوفي على ذلك الفوتيل أقول له: أنت تجلس على الفوتيل الذي نامت فوقه الأديبة الجميلة الواعدة ميرال الطحاوي.

– الروائي علاء الأسواني، صاحب رواية "عمارة يعقوبيان" التي حققت أكبر مبيعات عرفتها رواية عربية حتى الآن في طبعتها العربية وفي طبعاتها المترجمة إلى كثير من اللغات الأجنبية. ولقد تعرفت إلى علاء الأسواني في جنيف وعقدت له ندوة بمناسبة صدور الترجمة الفرنسية لروايته الثانية "شيكاغو" عام 2008، ودعاني لزيارته في القاهرة وزرته بعد ذلك في عيادته بالقاهرة في شارع قصر العيني، وأعجبني ديكورها الحديث وكأنها كوكب فضائي. وكان لقاء جميلا مطولا تناقشنا خلاله في كثير من القضايا الأدبية وأحوال مصر الغالية علينا. وأعجبت بالدكتور علاء الأسواني بسبب تواضعه الشديد وصراحته المتناهية وسلاسة تعبيراته ومقدرته على شد انتباه الجمهور الغربي خاصة في ندواته الأوروبية، لأنه يعرض قضايا حساسة بأسلوب مباشر مبسط وبدون التواء وبتعبيرات مهذبة منقّاه فهو يجيد الفرنسية والإنجليزية، وكانت ندواته ومناقشاته تتسم دائما بالحيوية والإثارة وإجاباته تكون دائما ساخنة وبلا حرج. ولقد تبادلنا مراسلات بالإنترنت وبالموبايل SMS وقد أعجب بروايتي "السبع بنات في الإسكندرية" التي أهديتها له وهو في جنيف وشجعني على كتابة سيرتي الذاتية وتدوين ذكرياتي في الإسكندرية وجنيف، لأني –كما قال– عشت حقبة مهمة من تاريخ مصر والتقيت شخصيات عديدة مهمة في مصر وفي الخارج وأعتبر "شاهدة على العصر" حسب قوله. وعملا بنصيحته كتبت هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ .

أمواج المد والجزر

بعد أن انتهى عقد عملي مع جامعة جنيف وإحالتي إلى المعاش وبعد أن وصلت إلى مكانة علمية دولية أعتز بها، وحققت حظا من النجاح كما شهدت بذلك وكالة الأنباء السويسرية "سويس أنفو" في تعريفها لبعض الشخصيات العربية التي تركت أثرا في الحياة الثقافية السويسرية: "فوزية العشماوي، أديبة ورائدة نسائية وشاهدة على العصر... لها حظ من النجاح بعضه من حسن طالعها وبعضه مما كسبته بفضل العمل والاجتهاد... وهي أكاديمية نشطة وعالمة جريئة في طرح الأسئلة ولها قدرة فائقة على الاشتغال مع جميع الأطياف وإليها يعود الفضل في إبراز صوت أكاديمي مستقل يحظى لدى الجميع بمصداقية عالية".

بعد هذا المدّ وتحقيق الذات والنجاح في المجال العلمي والدولي بعيدا

عن الوطن الأم، مصر الحبيبة، اشتقت للحياة في مصر وفكرت جديا في العودة النهائية والعيش في بلدي حتى نهاية العمر لأرتمي من جديد في أحضان بحر الإسكندرية، كما كتبت في القصيدة التي تحمل نفس العنوان: **بحر الإسكندرية**

كلما ارتميت في أحضانك
تنتابني رعشة
أنتفض كالعصفور المبلول
أرتجف من شدة شوقي
أذوب فيك
يمتزج مائي بمائك
تغرقني بزبدك
فتصبح الدنيا ملكي
أمد يدي لأمسك بك
أنزلق فيك وأدور معك
تقذف بي من علٍ
فلا أشكو من وقعتي
أعود اليك وأنت لاتزال دافئا
لأغوص في أمواجك
وأسبح في أغوارك
فأنعم بإسكندريتي

بعد أن اتخذت قرار العودة النهائية إلى مصر جمعت "شقى عمري" أي جميع مدخراتي بعد سبعة وعشرين عاما من الخدمة في جامعة جنيف، ومكافأة نهاية الخدمة إلى جانب ما حصلت عليه من مكآفات على ترجمة الكتب والبحوث التي أجريتها بناء على تكليف من بعض المنظمات الدولية مثل اليونسكو واللجنة الأوروبية المشتركة والإسيسكو وجامعة الدول العربية ومكتب التربية الدولي في جنيف. وقمت بتحويل هذه المدخرات من العملات الأجنبية إلى الجنية المصري واشتريت بها أصغر شقة في أضخم عمارة في الإسكندرية تطل على البحر في مشروع سان ستيفانو.

كانت الإعلانات عن هذا المشروع مغرية جدا وظننت أن هذا المشروع سيوفر لي كل أسباب الراحة والرفاهية لأستمتع بالإسكندرية، مدينتي الحبيبة ومسقط رأسي، وكل إنسان مهما طال تجواله وترحاله في البلاد يحب أن يعود إلى مسقط رأسه ليعيش فيه بقية عمره ويدفن في جوف الأرض التي ولد فوقها. كانت الدعاية للمشروع، تؤكد أن الملاك سوف يتمتعون بشاطئ البحر وبحمام السباحة وبالنادي الصحي والأسواق التجارية "المول" وكل مميزات المشروع وبتشطيب فاخر للشقق على أرقى مستوى، بل إن شعار المشروع كان "التمتع بالرقي"، وقلت في نفسي سأعيش في نفس مستوى المعيشة الذي تعودت عليه في جنيف.

وكم كانت خيبة أملي حين تسلمت الشقة ووجدت التشطيب غير مستوفٍ لشروط العقد ولا يصل لمستوى أي عمارة متوسطة في المدينة، بل وجدتُ المطبخ والأدوات الصحية في مستوى غير لائق بالمرة، وفوجئت

بأن الملاّك لن يكون باستطاعتهم التمتع بحمام السباحة ولا بالنادي الصحي ولا بشاطئ البحر كما كان مذكورا في الدعاية وفي عقد البيع، فلقد تم تخصيصها لرواد الفندق الفخم "الفورسيزون" وإذا رغب الملاّك في التمتع بها فعليهم دفع اشتراك سنوى باهظ يصل إلى مئات الألوف من الجنيهات.

سارعت بالاتصال بصاحب هذا المشروع الضخم، المهندس هشام طلعت مصطفى، وتمكنت من الحصول على رقم هاتفه المحمول، رغم أن ذلك كان من أصعب ما يكون وكأنه سر حربي خطير، وتحدثت معه وعرّفته بشخصي وشرحت له الخديعة التي وقعنا فيها. والحق يقال إن الرجل كان شهما ووعدني بتعديل التشطيبات حسب رغبتي، والتي تمت بالفعل في خلال أيام قليلة، ولكن فيما يتعلق "بالأماكن الترفيهية التي جاءت في الدعاية وفي العقد فلم يكن المقصود بها شاطئ البحر وحمام السباحة والنادي الصحي ولكن الحمامات داخل الشقق"!

رجعت إلى الإسكندرية، بعد غربة أربعين سنة، صحيح أنني كنت أزور مصر والإسكندَرية عدة مرات في السنة ولكنها كانت زيارات قصيرة لقضاء الإجازات والتي لا تطول أكثر من شهر على الأكثر، وأقضيها في زيارات سريعة للأهل والمعارف والأصدقاء، أو لحضور مؤتمر أو ندوة أشارك فيها بمرئياتي عن بعض القضايا العامة، ولكن ضيق الوقت خلال تلك الإجازات لم يسمح لي بأن أتعامل تعاملا يوميا ومباشرا مع مختلف الطبقات وفئات المجتمع.

ولكن هذه المرة، كان في نيتي العودة النهائية إلى الإسكندرية لأعيش فيها ما تبقى لي من عمر. قمت بتأثيث الشقة الجديدة وعانيت الكثير مع العمال والمهندسين والبائعين وسائقي التاكسي وعربات نقل الأثاث والسباكين والنقاشين والفنيين والحرفيين، وهالني ما وصلت إليه أخلاق وتعاملات جميع المصريين في بداية القرن الواحد والعشرين.

فعندما تركت مصر في بداية السبعينيات، كان المصريون، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وثقافتهم ومعتقداتهم الدينية، لديهم مبادئ عامة واحترام وصدق في التعامل وشهامة ونخوة و"جدعنة" ولسان مهذب، حتى الحرفيين كانوا مؤدبين وعلى خلق ويأخذون ما نعطيهم كأجر بشكر ويحمدون الله بل يقبلون أيديهم "وش وضهر" على الرزق الذي بعثه الله لهم. وكانت الخادمات اللواتي يأتين للخدمة في البيت وتنظيفه كن مؤدبات وخجولات ومنكسرات لا يرفعن أصواتهن أبدا على أصحاب البيت ويعملن بجدية وضمير وينفذن كل ما يطلب منهن في صمت وخضوع، أما الآن وبعد أربعين سنة على مغادرتي مصر، اكتشفت أنماطا جديدة من المصريين بعيدين كل البعد عن أهل إسكندرية في السبعينيات، خاصة طبقة العمال والحرفيين، أصبحوا على درجة عالية من "قلة الأدب" وهذا أقل ما يمكن أن يوصفوا به، يريدون أن يأخذوا أكثر ما يمكن أخذه ويعطون أقل ما يمكن إعطاؤه وبأعلى صوت، وعلى الرغم من أنهم غير مهرة بالمرة، لأن العمال والحرفيين المهرة رحلوا إلى دول الخليج، ولم يبق في مصر سوي صبيانهم الذين لاتتوفر لديهم لا الخبرة ولا الأخلاق، والذين يؤدون عملهم بارتجال وهم يحملون في أيديهم تليفونًا

محمولاً يرن بأعلى درجة طوال عملهم ويتكلمون فيه بلا أدب وبألفاظ بذيئة بدون مراعاة لوجود أصحاب البيت. ناهيك عما يطالبون به من أجر ومغالاتهم في المطلوب، خاصة عندما يجدون أنفسهم في أضخم عمارة في المدينة فيبالغون مبالغة سخيفة في مقابل عمل لا يستحق نصف ما يطالبون به من أجر.

وكانت النتيجة الطبيعية لتدفق المال بين أيدي هؤلاء العمال والحرفيين، الذين لم يحصلوا على درجة من العلم والثقافة، أنهم هم وأسرهم بدأوا يرتادون الأماكن "الشيك" من دور سينما ومسارح ومطاعم وأندية وكافتيريات، والتي تتميز بارتفاع أسعارها ولم يكن يرتادها في الماضي سوى الأثرياء والمثقفين ولكن السباكين والنقاشين والنجارين وعائلاتهم، أي الأثرياء الجدد، طالما أن معهم المال الكافي أخذوا يترددون على هذه الأماكن ويفرضون أذواقهم على أصحابها الذين استجابوا لمطالبهم، فالتجارة كانت دائما عرضًا وطلبًا والذي يدفع أكثر يحصل على ما يريد. وأنا لا أعترض على حق هؤلاء الناس في ارتياد هذه الأماكن الراقية ولكن ما أنتقده هنا هو تدني الذوق العام في هذه الأماكن، وبعد أن كنا نسمع فيها موسيقى كلاسيكية لبيتهوفن وموتسارت أو لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش، أصبحنا نسمع فيها أغاني أحمد عدوية ثم أغاني شعبان عبد الرحيم. و(شعبله) هذا، وهو المغني الشعبي الذي كان يعمل "مكوجي رجل" قبل أن يحترف الغناء "الشعبي" إنما هو أكبر دليل على تلك الظاهرة.

لقد كان المفروض أن يرتقي الذوق العام بفضل انتشار التليفزيون الذي كان يجب أن يتولى مهمة رفع المستوى العلمي والثقافي لهؤلاء الذين حرموا من العلم .والثقافة وليس العكس، لأن برامج التليفزيون الهابطة ساعدت على انتشار ظاهرة الفن الهابط والذوق العام المتدني. وكذلك أفلام السينما تدنى مستواها بصورة مخيفة وأصبحت معظم الأفلام "الكوميدية" ترتكز على الفن الهابط والنماذج التي يسمونها ظلما " شعبية" أي المعلمين وأولاد الشوارع والبلطجية والمنحرفين والنساء السوقيات "الشلق" والعيال "الصيع" ومدمني المخدرات و"الديلر"، كل هذه النماذج السلبية كانت موجودة في المجتمع المصري، ولكن الأفلام والمسرحيات كانت لا تركز عليها بل تركز على النماذج التي تصلح لأن تكون قدوة حسنة للمتفرجين، خاصة أن معظم مشاهدي الأفلام والمسلسلات التي تصور هؤلاء المهمشين وتجعلهم أبطالا، من الشبان الذين يبحثون عن المثل الأعلى فكيف نعطيهم هذه النماذج كمثل أعلى؟ وكيف نسلط الضوء على كل هذه النماذج المشينة والبذيئة، ونجعل معظم أفلامنا ومسلسلاتنا التليفزيونية كلها ضربًا وخبطًا وعنفًا وقتلاً ومخدرات وسجونًا ومجرمين ومنحرفين؟ وبالطبع هؤلاء "الأبطال الشعبيون" يستخدمون تعبيرات وألفاظًا يندى لها الجبين والشتائم والبذاءات أصبحت السمة الغالبة على لسانهم ومن ثم يخرج الشباب بعد مشاهدة هذه الأفلام ويستخدمون نفس التعبيرات السخيفة التي سمعوها من هؤلاء المنحرفين، ويرددونها بلا وعي، وعلى اللغة العربية السلام. كان عندنا في الستينيات أفلام العنف والشر التي كان أبطالها "وحش الشاشة"

فريد شوقي أو "رئيس العصابة" محمود المليجي، ولكنها كانت أفلامًا مهذبة وحوارًا نظيفًا لم يتشدق أبدا أي منهما بألفاظ بذيئة أو جارحة مثلما يفعل أبطال أفلام "الأكشين" حاليا. وأين منا أفلام فاتن حمامة ومريم فخر الدين وماجدة والحوار الرقيق واللسان الحلو، أذكر أن المرة الوحيدة التي تلفظت فيها فاتن حمامة بشتيمة ليست بذيئة "إبن الكلب"، كانت في فيلم "الخيط الرفيع" في نهاية الفيلم بعد أن غدر بها البطل محمود ياسين وهجرها وسافر رغم كل تضحياتها من أجله. أين نحن الآن من هذا الفن الراقي؟

لقد ذهلت عند مشاهدة أفلام الممثلات الشابات الجديدات ورغم أنهن فتيات في منتهى الرقة والجمال فإنهن يقبلن تمثيل أفلام هابطة ويتلفظن في الأفلام والتمثيليات التي تدخل كل بيت في مصر بتعبيرات لم نسمعها أبدا في المجتمع المصري قبل ذلك؟

صدمت لأني وجدت كل شيء في مصر قد تحول إلى الأسوا، وحزنت جدا على مدينتي الحبيبة، الإسكندرية، عروس البحر التي اشتهرت بنظافتها وجمالها، ماذا جرى لها؟ الشوارع أصبحت متسخة وأكوام الزبالة مكدسة فوق الأرصفة، إن وجدت الأرصفة، لأن معظم المقاهي قد استولت علي الأرصفة وأدخلتها في حيز مساحتها التجارية ولا رادع من قانون أو بلدية تحافظ على حماية حقوق المواطن في السير على رصيف متسع. وزحام السيارات لا يطاق في الشوارع والميادين وفوضى المرور ليس لها مثيل في العالم، وعسكري المرور هزيل ضعيف يقف بدفتر

متهرئ يكتب فيه ببطء شديد، دليلاً على تعليمه الضئيل، أرقام السيارات المخالفة لقواعد المرور والتي تمر أمامه بسرعة البرق فلا يسعفه الوقت إلا لتدوين رقمين أو ثلاثة بينما المخالفات بالعشرات. وتكدس السيارات الواقفة في الممنوع صفين وثلاثة صفوف والشارع يضيق ولا يتسع لمرور سيارة واحدة في اتجاه واحد وبصعوبة شديدة، بينما أبواق السيارات لا تكف عن الصراخ بلا داع ولا سبب: ضجيج الشارع لا يطاق وعادم السيارات يترك سحابة سوداء وأبخرة سامة في الجو والتلوث يبلغ ذروته في الظهيرة ووقت خروج الموظفين.

والناس في تكدس نهارا وليلا في الشوارع وفي "المولات التجارية"، ازدحام مهول ومخيف في بعض الأحيان خاصة أيام الجمع والأعياد. لقد أصبت بخوف شديد بل بهلع ليلة عيد الفطر في الصيف الماضي من الازدحام المخيف في "مول سان ستيفانو"، آلاف من البشر واقفون في تجمعات، رجال ونساء وأطفال لا يبتاعون شيئا ولكنهم يتسكعون في طرقات السوق ويتفرجون علي المعروضات في "فاترينات" المحلات، وكان من الواضح أن معظمهم قادمون من الأحياء الشعبية القريبة من سان ستيفانو، الحضرة والظاهرية وفيكتوريا وسيدي بشر، ومستواهم المادي لا يسمح لهم بشراء تلك المعروضات الباهظة الثمن، ويبدو ذلك جليا من نوع ملابسهم وطريقة كلامهم وسخريتهم من ارتفاع الأسعار المدونة على البضائع، وأعتقد أنهم يأتون إلى "المول" للاستمتاع بتكييف الهواء وبعيدا عن حر بيوتهم الضيقة الرطبة.

وأذكر أنني ذهبت إلى مكتب الأمن وطلبت منهم أن يحدوا من عدد الداخلين ولا يسمحون بدخول أشخاص جدد إلا بنفس عدد الخارجين، خاصة أن المدخل واحد وينقسم إلى دخول وخروج، ولكنهم قالوا لي إنهم يخافون على أنفسهم من بطش الشباب الذين يأتون في مجموعات من ستة إلى عشرة شبان مع بعضهم، وربما يعتدون علي الحرس لو منعوهم من الدخول. وأتوقع أن تقع كارثة رهيبة في هذا السوق التجاري إذا استمرت الحال هكذا بلا رقابة على أعداد الداخلين، خاصة أن المخرج ضيق جدا وإذا شب حريق أو حادث فسيكون من المستحيل التحكم في تدافع الخارجين وسيموت الآلاف تحت الأقدام أثناء التدافع للخروج.

راعني أيضا ما طرأ على أخلاقيات الناس عامة في مصر وعلى التكالب على امتلاك السيارات الخاصة، ولاحظت أن بعض العائلات لديها سيارات بعدد أفراد الأسرة، أي سيارة للأب وسيارة للأم وسيارة لكل ابن وبنت حتى وإن كان عدد الأولاد خمسة أو ستة، والعجيب أن الناس تشتكي من ازدحام الشوارع وخاصة الكورنيش وشارع أبو قير، عصب الحياة والمرور في المدينة، وتشاهد السيارات ومعظمها بها راكب واحد، بينما هناك عائلات كثيرة ليس لديها سيارة واحدة:

كما لاحظت أيضا انتشار السيارات المرسيدس و"البي إم دبليو" الفخمة ذات الزجاج الغامق "فيميه" التي يسير بها الأثرياء الجدد في شوارع المدينة مما يستفز المارة، لأنهم لا يرون راكبيها بينما ركابها يرونهم، (يشبهون النساء المنقبات) ظاهرة غريبة لماذا يخفون أنفسهم هل يخافون أن يرى

الناس وجوههم أم أنهم يستفزون الناس. وللعلم هذه السيارات لا يركبها في الدول الأوروبية سوى الأثرياء من عصابات المافيا.

والظاهرة المضادة للظاهرة السابقة، والتي تدل على التناقض الشديد بين طبقات الشعب المصري، هي ظاهرة سيارات "الميكروباص" التي انتشرت بصورة غير معقولة والتي تسير بسرعة جنونية ومعظم سائقيها من الشبان صغار السن ويسيرون برعونة وتهور، ويتسببون في معظم حوادث المرور بالمدينة.

أما التاكسيات فلا أدري كيف تسمح إدارة المرور بتجديد رخص بعض التاكسيات وهي متهالكة، وفي حالة من القذارة يأنف منها أي إنسان. و لم يعد هناك عداد يحسب قيمة "المشوار" والأمر متروك لتقدير السائق حسب مظهر الراكب ونوع ملابسه وحقيبة يده وماركة الموبايل. وهذا أكثر ما ضايقني في مصر وما ضايق أصدقائي الأوروبيين الذين يأتون إلى مصر، لأن الحكومة لم تحدد العلاقة بين سائقي سيارات الأجرة وبين الركاب، عن طريق عداد ثابت وتعريفة محددة لا خلاف فيها ولا استغلال من السائق للراكب، خاصة إذا كان الراكب أجنبيا ولا يجيد اللغة العربية ولا يعرف مستوى الأسعار في البلد. وهذا نوع من الفوضى بكل المعايير.

هالني أيضا منظر تلميذات المدارس وطالبات الجامعات، حيث انتشر بينهم غطاء الشعر أو ما يسمونه بـ "الحجاب"، وهذه ظاهرة لم تكن موجودة إطلاقا عندما غادرت مصر في أوائل السبعينيات وحين كنت

طالبة في جامعة الإسكندرية من 1961 إلى 1965، لم تكن فيها طالبة واحدة تغطي شعرها بإيشارب أو "حجاب"، فهل كنا خليعات وغير متدينات؟ لا والله كنا أكثر احتشاما واحتراما وأدبا وتدينا من الطالبات "المتحجبات" حاليا. لم نكن نرتدي "الحجاب" ولكننا كنا أكثر تمسكا بجوهر الدين وبالأخلاقيات الإسلامية فلم تكن الطالبات على أيامنا، مثل طالبات هذه الأيام المحجبات، اللواتي نراهن منتشرات على كورنيش البحر وكل واحدة ممسكة بيد شاب غريب لا هو قريب ولا زوج ولا خطيب، ولكن الفتاة المحجبة تسمح لنفسها بالجلوس معه ساعات والحديث والضحك معه بخلاعة وبلا خجل رغم أن ذلك يتنافى تماما مع المبادئ الإسلامية ويتعارض مع ارتداء "الحجاب". صحيح أننا كنا نخرج مع زملائنا ونتمشى على كورنيش إسكندرية وكانت هناك ظاهرة "السلسلة" ملتقى العشاق من طلاب جامعة إسكندرية، ولكنهم كانوا مهذبين، يسيرون متجاورين أو يجلسون متجاورين وليس مثل شباب هذه الأيام تجد الشاب واقفا في مواجهة الفتاة يكاد يكون ملتصقا بها وهي "محجبة"!

ولا أريد أن أخوض في قضية "الحجاب" لأنها شائكة وجلبت عليّ كثيرًا من المشاكل مع كل من حاولت مناقشة الأمر معهم، خاصة فيما يتعلق بـ"حجاب" تلميذات المدارس الابتدائية والإعدادية، اللواتي لم يبلغن مبلغ النساء وغير مفروض فيهن "الحجاب"، كما جاء في آية الحجاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ ومعنى ذلك أن الرداء المحتشم

أي الجلباب، كما جاءت هذه الكلمة في الآية الكريمة، وليس كلمة "الحجاب"، هذا الجلباب والجمع "جلابيب" فرض على زوجات وبنات النبي (ﷺ) ونساء المؤمنين أي زوجات المسلمين وليس بنات المسلمين بل فقط "بناتك" وهي الكلمة الواردة في الآية الكريمة المذكورة أي بنات النبي فقط، فلماذا نفرض ذلك على البنات الصغيرات؟ وكانت الإجابة المعتادة دائما "حتى يتعودن على الحجاب" وكأنما الحجاب علم يحتاج إلى "مذاكرة" و"حفظ وتلقين" وتعلم!

ثم إن مقصد الشريعة من فرض "الحجاب" على المرأة البالغة، هو "أن يعرفن فلايؤذين" أي حتى لا يتعرضن للأذية والمعاكسة والتحرش من الرجال عديمي المروءة، فإذا كان الأمن مستتبًا في المجتمع ولا توجد معاكسات وتحرش بالنساء فلا ضرورة "للحجاب". ولكن نظرا للأحوال السائدة في المجتمع المصري حاليا وانعدام الأمن وانتشار التحرش، خاصة في الأماكن المزدحمة وفي الباصات والترام والمترو فإنني أتفهم أن الفتيات والنساء يرتدين "الحجاب" والملابس الفضفاضة حتى "لا يؤذين" أي لحمايتهن طالما أن الأمن غير مستتب في البلد وطالما أن الرجال لا يحترمون النساء ولا المبادئ الإسلامية. فمعظم الرجال في مصر حاليا وخاصة الشبان منهم بعيدون كل البعد عن تطبيق الآية القرآنية الكريمة التي تأمر الرجال بغض البصر، فرجال اليوم لا يغضون البصر ولكنهم "يبحلقون" في النساء، بل ويمدون أيديهم أيضا للتحرش بالفتيات والنساء.

ولكني لا أحبذ إطلاقا فرض "الحجاب" على البنات الصغيرات اللواتي

لم يبلغن مبلغ النساء، كذلك لا أحبذ أبدا بل أستنكر ارتداء "النقاب" حيث إنه يتعارض مع حديث الرسول الكريم (ﷺ) للسيدة أسماء، وهي شقيقة السيدة عائشة زوجة الرسول الكريم، حينما جاءت أسماء لزيارة شقيقتها عائشة، وكانت أسماء ترتدي ثوبا شفافا فرآها الرسول الكريم فقال لها الحديث المشهور: "يا أسماء، إذا بلغت المرأة مبلغ النساء فيجب ألا يظهر منها سوى هذا وذاك" أي الوجه واليدين. وهذا الحديث هو أكبر دليل على أن الحجاب ليس مفروضا على البنات الصغيرات اللواتي لم يبلغن مبلغ النساء بل على النساء البالغات وأن المرأة غير مطلوب منها تغطية وجهها وارتداء النقاب مثلما تفعل بعض النساء الآن. وهذه مصيبة أخرى انتشرت حاليا في المجتمع المصري، وتعتبر الطامة الكبرى، التي يستغلها الغربيون للتأكيد على أن المرأة المسلمة مضطهدة ويفرض عليها الانعزال تماما عن الحياة والمجتمع، والدليل على ذلك هو تغطيتها بالكامل لإخفائها عن الأنظار حتى لا تشارك في أي منحى من مناحي الحياة وهي متخفية مثل الهاربين من القانون ومن العدالة الذين يتخفون وراء قناع.

إن كل هذه المظاهر للتدين إن دلت على شيء تدل على تدين شكلي وظاهري وليس تدينا جوهريا مثلما كانت الحال في المجتمع المصري، في الأربعينيات والخمسينيات. فلم يكن الرجال أيامها يطلقون اللحية ولا النساء يرتدين "الحجاب والنقاب" على الرغم من أن معظم المفكرين المسلمين المتدينين والشيوخ الأزهريين الأفاضل الذين أثروا الفكر والفقه الإسلامي هم من جيل الأربعينيات والخمسينيات، مثل طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل والشيخ شلتوت والشيخ الباقوري

والشيخ عبد العزيز كامل والشيخ حسن البنا، مؤسس الإخوان المسلمين، وغيرهم كثيرون لم يكونوا بهذا التشدد المنتشر حاليا بين رجال الدين و لم يأمروا النساء بارتداء الحجاب أو النقاب وكانت زوجاتهم وبناتهم غير محجبات (وتوجد صور فوتوغرافية تثبت ذلك)، فهل يا ترى فقهاء اليوم أكثر فهما للشريعة وأكثر تدينا من كل هؤلاء الشيوخ والمفكرين العظماء؟ وهل كانت أمهاتنا وخالاتنا وعماتنا ومدرساتنا الفاضلات في المدارس والجامعات غير المحجبات، في الخمسينيات والستينيات، غير فاضلات وتم إلقاؤهن في النار بعد انتقالهن إلى الرفيق الأعلى!

ولعل أكثر ما أفزعني هو تدني مستوى برامج التليفزيون في هذه الأيام فحدث ولا حرج: أين الهدف الأول من هذا الجهاز الجبار وهو تثقيف الناس قبل الترفيه عنهم خاصة إذا كان أغلب المشاهدين في مصر من أهل الريف والأحياء الشعبية، خاصة النساء، من الأميات، اللاتى لا يقرأن، حتى وإن كن يعرفن الكتابة والقراءة، ولا أقول "يجيدن" القراءة والكتابة لأن مستوى إجادة اللغة العربية بين المصريين حاليا متدنٍ جدا. أغلب مشاهدي التليفزيون في مصر، خاصة النساء، يفضّلن الجلوس بالساعات أمام شاشة التليفزيون بدلا من قراءة كتاب مفيد أو حضور ندوة علمية أو أدبية أو حضور حفل موسيقي أو مسرحية، فكل هذه الأنواع الثقافية أصبحت "حرامًا" طبقا للتفسير الشكلي للدين المنتشر حاليا، لذا يفضّل الناس الجلوس في البيت وخاصة النساء فهن "يقرن في بيوتهن"، على الرغم من أن هذه الآية الكريمة موجهة فقط لنساء النبي ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ ... وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...﴾ ولكن التفسير المغلوط

المنتشر حاليا في الفضائيات جعل هذه الآية الكريمة تنطبق على كل النساء، حتى غير المسلمات، وكانت النتيجة أن معظم المصريات أصبحن قابعات في البيوت، ولكن لا مانع لديهن من مشاهدة الأفلام المتدنية ثقافيا وأخلاقيا ومشاهدة المسلسلات التافهة والمغنيات الخليعات شبه العاريات، كل هذا مسموح به طالما أنه داخل جدران البيت، عجبي!

هذا التناقض الشديد والتدين الشكلي المغلوط وعدم التعمق في جوهر الدين هو دليل على وجود أزمة بل أزمات في المجتمع المصري، وهو نتاج لانتشار الفضائيات المتعددة التي يملكها رجال أعمال لهم ميول وأهداف شخصية وسياسية ودينية، واعتماد هذه الفضائيات، وأيضا تليفزيون الدولة الرسمي، على الإعلانات التجارية أفقد هذا الجهاز أهميته كوسيلة للتثقيف والتعليم، فأصبح أكبر مروّج للبضائع والخدمات ومساوئ الأخلاق والفتاوي الدينية التي تشيع البلبلة والتدين الشكلي بين الناس بدلا من رفع مستواهم الثقافي والأخلاقي، وهي المهمة الأولى والأساسية لهذا الجهاز الخطير الذي أسيء استخدامه في مصر.

* * *

فوجئت بكل هذه السلبيات في المجتمع المصري في بداية القرن الواحد والعشرين عندما قررت العودة النهائية إلى مصر، بعد أن أمضيت أربعين سنة في الغربة، مما جعلني أعيد النظر في ترتيباتي وأعدل عن قرار العودة النهائية لمصر، فقررت أن أعيش بين الإسكندرية وجنيف. احتفظت بشقتي في سان ستيفانو بالإسكندرية وبشقتي في جنيف، وجعلت حياتي

تدور في دائرة قطرها يمتد من بحر إسكندرية إلى بحيرة جنيف. أصبحت موزعة بين جنيف والإسكندرية، وحين أكون في جنيف أشتاق لزرقة بحر إسكندرية من شرفة بيتي في سان ستيفانو، وحين أكون في الإسكندرية أشتاق للخضرة الكثيفة في حديقة بيتي في جنيف.

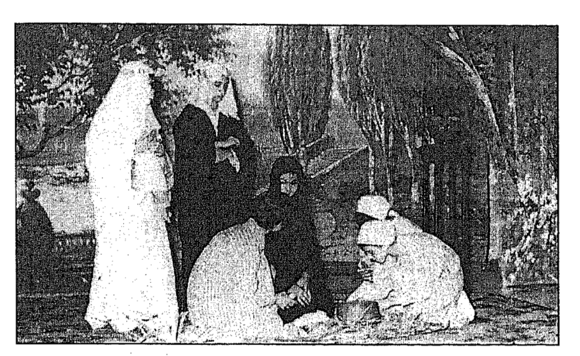
* * *

ملحق

ألبوم الصور التذكارية



كاميليا خفاجى وفوزية العشماوي
مدرسة السبع بنات، الإسكندرية في يوم الأربعاء 11 أبريل 1953



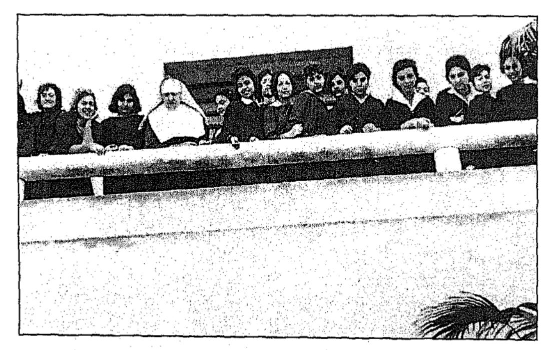
في مسرح مدرسة السبع بنات، الإسكندرية، 1955
فوزية العشماوي (في دور الخليفة) ترتدي الثوب الأسود



في مدرسة السبع بنات، الإسكندرية، 1957



فوزية العشماوي، الإسكندرية، مارس 1958



مدرسة سانت جان أنتيد، الشاطبي، الإسكندرية، 1961



فوزية العشماوي أمام قصر المنتزة، الإسكندرية، 1961



رحلة مع طلبة جامعة الإسكندرية
د. لطفي فام رئيس قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب، 1963، فوزية العشماوي (الثالثة بجوار الشابين)



فوزية العشماوي وأول رحلة إلى باريس، 1973



فوزية العشماوي في صورة عائلية



أمام بحيرة جينيف، 1974



فوزية العشماوي، صورة شخصية



فوزية العشماوي، صورة شخصية

المؤلفة في سـطور

د. فوزية العشماوي

- الدكتورة فوزية عبد المنعم العشماوي.
- مكان الميلاد: الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.
- المؤهلات العلمية: ليسانس آداب، جامعة الإسكندرية، 1965، ماجستير من جامعة جنيف، سويسرا، 1973، دكتوراه من جامعة جنيف، سويسرا، 1983.
- عضو اتحاد الكتاب، مصر.
- عضو أكاديمية جنيف العلمية، 1985.
- عضو لجنة خبراء اليونسكو الأور – متوسطية للمناهج الدراسية، 1991.
- عضو جمعية سويسرا والشرق الأوسط، 1991.
- عضو المركز الثقافي الأوروبي بسويسرا، جنيف 1992.
- رئيسة جالية المصريين بسويسرا، 1992.
- الأمين العام المساعد، المؤتمر الإسلامي الأوروبي، باريس، 2000.
- عضو لجنة وزارة التعليم العالي للمناهج الدراسية، القاهرة، 2003.
- رئيسة منتدى المرأة الأوروبية المسلمة، جنيف، 2004.
- الأمين العام للجمعية الثقافية المصرية السويسرية، جنيف، 2006.

المؤلفات باللغة العربية

- ملخص بحث "الإسلام في كتب التاريخ المدرسية الأوروبية"، مطبوعات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) – الرباط – المغرب 1996.
- الغربة في الوطن (مجموعة قصصية)، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995.
- الإسكندرية 60 (مجموعة قصصية)، مكتبة مدبولي، القاهرة 1996.
- رواية السبع بنات في الإسكندرية، دار شرقيات القاهرة، 1999.
- المرأة في أدب نجيب محفوظ – مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- صورة الإسلام في المناهج الدراسية في الغرب، مطبوعات أيسيسكو، 2005.
- المرأة المسلمة في الاعلام الغربي، أخبار اليوم، كتاب اليوم، القاهرة، 2008.

الترجمة إلى اللغة العربية

- رواية مارجريت دورا "الحب"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1995.
- رواية مارجريت دورا "ليس إلا" أخبار الأدب، القاهرة، 1996.
- قصص لصمويل بيكيت "الحب الاول" و"الصحبة"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

المؤلفات باللغة الفرنسية

- نقد أدبي لمسرحية "محمد" للفيلسوف فولتير، جامعة جنيف، سويسرا، (1974).
- "النبي محمد في الأدب الفرنسي في عصر التنوير"، جامعة جنيف، سويسرا (1976).
- المرأة ومصر الحديثة، جنيف، سويسرا (1985).
- خصائص الترجمة من العربية إلى الفرنسية، جامعة عبد المالك السعدي، المغرب، 1995.
- الأصالة في أدب نجيب محفوظ، مجلة جامعة الروح القدس، لبنان (1995).
- صورة الآخر في كتب التاريخ المدرسية في دول البحر المتوسط، مطبوعات"اليونسكو" (بالفرنسية والإنجليزية والألمانية) (1996).
- المتوسط ملتقى الثقافات والحضارات، معهد روبير شومان، باريس فرنسا، 1996.
- الإسكندرية في مصر "الغربة في الوطن"- مجلة مديترنيان 9 / 8 باريس، 1996.
- كتاب "أوضاع المسلمين في سويسرا"، مركز الدراسات العربية، جنيف، 2000.
- كتاب "الإسلام في المناهج الدراسية في أوروبا"، طرابلس، 2003.
- بحث "تطور المرأة في العالم الإسلامي"، اليونسكو، باريس، 2005.
- بحث "صورة الآخر في كتب التاريخ المدرسية"، اليونسكو، باريس، 2007.

الترجمة إلى اللغة الفرنسية

- دور اليهود في قاعدة الإسلام بالمدينة المنورة للدكتور عبد العزيز كامل، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة 1970.
- رواية "ميرامار" لنجيب محفوظ – دار دونييل – باريس 1989.
- قصة "دنيا الله" لنجيب محفوظ – الأهرام إبدو القاهرة 1995.
- رواية "الجدول الزمني" لميشيل بوتور–مجلة القاهرة –القاهرة 1996.
- كتاب محمد رسول الله للدكتور السائح على حسين –طرابلس– 2005.
- كتاب الزواج والطلاق في مصر القديمة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 2007.

المؤتمرات الدولية

- شاركت الدكتورة فوزية العشماوي في العديد من المؤتمرات الدولية في الدول العربية والإسلامية وفي الدول الأوروبية: الإمارات العربية المتحدة، البحرين، الجزائر، المغرب، ايران، تونس، قطر، مصر، سويسرا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، إسبانيا، البرتغال، مقدونيا، إيطاليا، النمسا، بريطانيا، السويد، الدنمارك، هولندا.
- كما نشرت الدكتورة فوزية العشماوي كثيرًا من الأبحاث والمقالات باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية في العديد من المجلات العلمية المتخصصة في العالم العربي والإسلامي وفي أوروبا.

الجوائز والأوسمة:

- حصلت الدكتورة فوزية العشماوي على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى في العلوم والفنون، جمهورية مصر العربية، عام 2008.

البريد الإلكتروني:

Ashmawi7@yahoo.com

أمواج العمر

بين بحر إسكندرية وبحيرة جنيف

قلت في نفسي: إن السيرة الذاتية نوع من الاعترافات مثلما يفعل إخوتنا المسيحيون في الجلوس أمام القس على كرسي الاعتراف ليتخلصوا من ثقل الذنوب ويطلبوا المغفرة والسماح من خلال الاعتراف والتوبة.

وعلا صوت آخر يقول: ولماذا لا أكتب تجربتي في الحياة خاصة أن حياتي فيها كثير من التجارب التي ربما قد يستفيد منها البعض، وربما أيضا يمكن أن تصلح لتقييم بعض الأحداث التي عاصرتها في فترة زاخرة بالتغييرات في كثير من مناحي الحياة، سواء في المجتمع المصري، حيث ولدت ونشأت وعشت حتى بلغت الثلاثين من عمري، أو في المجتمع الأوروبي، حيث عشت أكثر من نصف عمري في سويسرا و
كما يقولون.

قررت أن أخوض التجربة بشجاعة وصدق. سأذكر بالطبع كثيرًا م
العامة المشهورة، سواء من المصريين أو من الشخصيات الدولية والتي
بها سواء في مصر أو في جنيف، في مراحل حياتي المختلفة، وربما قد ي
مما سأسرده عنهم.

الغلاف: بسمة صلاح

